

آدم عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بأدم عليه السلام	٣٦
ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم	٣٩
فضائل آدم عليه السلام	٤٠
خلق آدم والحكمة منه	٤١
آدم والملائكة	٥١
آدم والجنة	٥٦
آدم وإبليس	٦١
توبة آدم	٦٨
آدم وزوجه	٧١
ذرية آدم	٧٣
موت آدم عليه السلام	٨١
الدروس المستفادة من قصة آدم	٨١



التعريف بآدم عليه السلام

أولًا: آدم لغةً:

(أدم) الهمزة والدال والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الموافقة والملاءمة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمغيرة بن شعبة عندما خطب امرأة: (اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[(١)].

قال الكسائي: يؤدم يعني أن يكون بينهما المحبة والاتفاق، وقيل: إنه الإدام أي: الطعام، يقال: طعامٌ مأدومٌ، وقيل: الأسوة، أدمة أهلي، أي: أسوتهم، والأدمة: الوسيلة.

والأدمة أحسن ملاءمةً للحم من البشرة، ولذلك سمي آدم عليه السلام؛ لأنه أخذ من أدمة الأرض.

والعرب تقول مؤدمٌ مبشرٌ، أي: قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة، فأما اللون الآدم؛ فلأنه الأغلب على بني آدم، وناسٌ تقول: أديم الأرض وأدمتها وجهها، وأدم أدما وأدمة اشتدت سمرته فهو آدم وهي أدماء وجمعها أدم، والآدمي: هو الإنسان نسبة إلى آدم أبو البشر[(٢)].

ويقول أبو حيان: «آدم: اسمٌ أعجميٌ كآزر وعابر، ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، ومن زعم أنه أفعل مشتقٌ من الأدمة، وهي كالسمرة، أو من أديم الأرض، وهو وجهها، فغير صوابٍ؛ لأن الاشتقاق من الألفاظ العربية قد نص التصريفيون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية، وقيل: هو عبريٌ من الإدام، وهو التراب»[(٣)].

ورد محمود أبو سعدة على هذا الادعاء بقوله: «إن اليهود يدعون أنه علم عبري، ليس له جذر في العبرية إلا (أدم) أي احمر أي المجبول من الحمراء وهو الدال على تربة الأرض عند العبرانيين، وهذا لا يصح بالطبع، وإنما الصحيح هو أن العبرية لم تشتق (أدما) من الجذر العبري (أدم)، وإنما نقلتها نقلًا عن العربية (الأدمة)، اسمًا جامدًا لا اشتقاق له عندها، أما آدم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، ١/ ٥٩٩، ح١٨٦٥.
وصححه الألباني. في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ١٠.

(٣) البحر المحيط، ١/ ٢٢٣.



العربي فهو غزير المعاني، من معانيه الامتزاج والخلط»[(١)].

ويقول القرطبي في تفسيره: «قيل: هو مشتقٌ من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها، فسمي بما خلق منه، قاله ابن عباسٍ، وقيل: إنه مشتقٌ من الأدمة وهي السمرة. واختلفوا في الأدمة، فزعم الضحاك أنها السمرة، وزعم النضر أنها البياض، وعلى هذا الاشتقاق جمعه أدمٌ وأوادم، كحمرٍ وأحامر، ولا ينصرف بوجهٍ، وعلى أنه مشتقٌ من الأدمة جمعه آدمون، ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه، قلت: الصحيح أنه مشتقٌ من أديم الأرض، قال سعيد بن جبيرٍ: إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، ذكره ابن سعدٍ في الطبقات»[(٢)]، وما ذهب إليه القرطبي هو ما تطمئن له النفس.

ثانيًا: التعريف بآدم عليه السلام:

هو أول مخلوق من البشر، خلقه الله بيده، وخلق حواء من ضلعه الأيسر، وسمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض[(٣)].

كنيته: أبو البشر، وقيل: أبو محمدٍ، كني بمحمدٍ خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم، قاله السهيلي، وقيل: كنيته في الجنة أبو محمدٍ، وفي الأرض أبو البشر[(٤)].

أجمع أهل الأثر أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، وكساه الله لباسًا من ظفره، وأسجد له ملائكته[(٥)].

ثالثًا: صفة آدم عليه السلام:

مما ذكر من صفات آدم عليه السلام: أن طوله ستون ذراعًا في السماء، وعرضه سبعة أذرع، وذلك ما ورد عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(يدخل أهل الجنة الجنة جردًا، مردًا، بيضًا جعادًا، مكحلين، أبناء ثلاثٍ وثلاثين، على خلق آدم، طوله ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرعٍ)**[(٦)].

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله

(١) انظر: العلم الأعجمي في القرآن، ١/ ١١٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٩.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٤٣٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٩.
(٥) انظر: أخبار الزمان، المسعودي، ص٧١.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب صفة الجنة والنار، باب ما ذكر في صفة الجنة، وما فيها مما أعد لأهلها، ١٣/ ١١٤، قال الألباني: حديث صحيح.

عليه وسلم قال: (كان طول آدم ستين ذراعًا في سبعة أذرع عرضًا، وفي رواية: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[(١)].

وكان عليه السلام وافر الشعر، فعن أبي بن كعبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أباكم آدم كان طوالًا، كان كالنخلة السحوق، ستين ذراعًا كثير الشعر موارى العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة خرج منها هاربًا، فلقيته شجرةٌ فأخذت بناصيته فحبسته، فناداه ربه تعالى: أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا بل حياءً منك بما جنيت، فأهبط آدم إلى الأرض، فلما حضرته الوفاة بعث الله عز وجل إليه من الجنة مع الملائكة بكفنه وحنوطه، فلما رأتهم حواء ذهبت لتدخل دونهم، فقال: خلي بيني وبين رسل ربي، ما أصابني الذي أصابني إلا فيك، ولا لقيت الذي لقيت إلا منك. فلما توفي غسلوه بالماء والسدر، وترًا وكفنوه في وترٍ من الثياب، ثم لحدوه ودفنوه، وقالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده)[(٢)].

رابعًا: عمر سيدنا آدم عليه السلام:

ورد أنه عليه السلام عاش ألف سنة إلا أربعين عامًا، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول من جحد آدم عليه السلام، إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو من ذراري إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلًا يزهر[(٣)]، فقال: أي رب، من هذا؟، قال: هذا ابنك داود، قال: أي رب، كم عمره؟، قال: ستون عامًا، قال: رب زد في عمره، قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عامًا، فكتب الله عز وجل عليه بذلك كتابًا، وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة لتقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عامًا، فقيل: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت! وأبرز الله عز وجل عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة)[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، ١٦/ ٥٣٢.
وصححه المحقق.

(٢) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة، ٥/ ١٥٥٦، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٥.
قال الحاكم: هذا حديث حسن الإسناد.

(٣) يزهر: صفا لونه وأضاء، وزهر الرجل: ابيَض وجهه.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٣.
قال أحمد شاكر: «وما نرى في هذا الحديث شيئًا من النكارة، أما أنه غريب، بمعنى أنه لم يروه غيره، فعسى، ولكن مجيء معناه من حديث أبي هريرة قد يذهب بغرابته».

ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم (٢٥) مرة، في (٩) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٣١-٣٧
الأعراف	١١-٢٥
طه	١١٥-١٢٣

وقال الألباني: «حسن صحيح».
وانظر: المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة ١/ ١٥٦.

فضائل آدم عليه السلام

كرم الله عز وجل سيدنا آدم عليه السلام تكريمًا عظيمًا، ويظهر هذا التكريم في النقاط الآتية:

١ . خلقه الله بيده.

فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: ٧٥].

٢ . نفخ فيه من روحه.

فقال تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

٣ . فضله على الملائكة، فأسجدهم له.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: ٢٩].

٤ . شرفه بالعلم.

فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

٥ . شرفه بتعليم الملائكة، فجعله معلمًا لهم.

فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣].

وروى البخاري ومسلمٌ عن أنس بن مالكٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء) [(١)].

يقول ابن كثير: «فهذه أربع تشريفاتٍ: خلقه له بيده الكريمة، ونفخه فيه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء. ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» [(٢)].

والتشريفة الخامسة وهي أنه سبحانه وتعالى جعله معلمًا للملائكة.

ومما ينبغي الإشارة إليه: أنه عليه السلام نبي مكلم من أنبياء الله تعالى، وذلك فيما رواه ابن حبان في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم أنبي هو؟ قال: (نعم نبي مكلم) [(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها)، رقم ٤٤٧٦، ٦/ ١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٢٢، ١/ ١٨٠.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٧٨.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٩٦

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٢٥٤٦، ٣٥/ ٤٣١، وابن حبان في صحيحه، رقم٦١٩٠، ١٤/ ٦٩.
وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

خلق آدم والحكمة منه

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

ويقول أيضًا: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

إن قصة خلق آدم أخذت في كتاب الله طابعًا مميزًا، اختلف عن بقية القصص القرآني؛ ذلك لأنها لم تتكلم عن نبي فحسب، بل تتكلم عن بدء الخليقة بأسرها، تتكلم عن أبي البشر آدم عليه السلام، الذي نحن جميعًا ذرية له، فناسب المقام أن يأتي الخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بكاف الخطاب المتصلة بصفة الربوبية لله تعالى، ذلك أن هذا النبي الكريم هو أكرم خلق الله على الله، والذي هو من ذرية آدم عليه السلام.

وفي ذلك يقول أبو حيان رحمه الله: «تنبيهٌ على شرفه واختصاصه بخطابه، وهزٌّ لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وهذا تنويعٌ في الخطاب، وخروجٌ من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها، إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعل أفضل أنبيائه أمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي داري تكليفه وجزائه»[(١)].

يقول الإمام محمد رشيد رضا: «وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية، ومثل لنا المعاني في صورٍ محسوسةٍ، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار، كما هي سنته في مخاطبة الخلق وبيان الحق؛ لأنها بحسب قانون التخاطب: إما استشارةٌ وذلك محالٌ على الله تعالى، وإما إخبارٌ منه سبحانه للملائكة واعتراضٌ منهم ومحاجةٌ وجدالٌ، وذلك لا يليق بالله تعالى أيضًا، ولا بملائكته، ولا يجامع ما جاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]»[(٢)].

(١) البحر المحيط، ١/ ٢٢٥.
(٢) تفسير المنار، ١/ ٢١٠.

أولًا: إعلام الملائكة بخلق آدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

يخبر الله عز وجل ملائكته الكرام بحدث في ملكوت الله عظيم ألا وهو: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ولعل هناك حكمة عظيمة في هذا الإخبار؛ ذلك أن الله سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وليس لملك ولا لمخلوق أن يسأل؛ ولكن الله عز وجل هو الذي باشر بالإخبار، فردت الملائكة ردًا في ظاهره اعتراض، وليس لها أن تعترض، وهي التي وصفها ربها فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، فكانت الإجابة الفصل من الله عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان الاستسلام والإذعان من الملائكة لله ربها سبحانه وتعالى، فقالت: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

الحكمة من إخبار الله للملائكة بخلق آدم:

تكلم المفسرون في الحكمة أقوالًا عديدة، تتآلف فيما بينها لتتناسب مع عظمة الله وعصمة الأنبياء، فيرى البيضاوي أنه: «تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك»(١).

أما الزمخشري فيقول: «ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة»(٢).

فنقول: إن الله أعلمها قبل الخلق حتى لا تعترض بعد خلقه فتهلك، وحتى يعلم خلقه المشاورة وهم محتاجون إليها، وحتى يستخرج ما عندهم فيجيبهم عليه فيعرفهم حكمته في الخلق، ومن ثم يؤدبهم بالأدب الذي يريد سبحانه.

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٦٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٢٤.

ردة فعل الملائكة من إخبار الله لهم بخلق آدم عليه السلام:

لما أخبر الله ملائكته بالخلق قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

«فظاهر الآية أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض؛ لكونهم مظنةً للإفساد فيها»[(١)].

وقيل: تعجبٌ من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير[(٢)].

وقيل: إنه ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وإنما هو سؤال استعلامٍ واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم ﴿مَن يُفْسِدُ﴾ في الأرض ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فإن كان المراد عبادتك، فنحن ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولا يصدر منا شيءٌ من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟

قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم[(٣)].

وتعجب الملائكة إما من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعًا، الاستخلاف، والعصيان.

وقيل: على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون: على جهة الاسترشاد والاستعلام، هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟[(٤)].

فاحتمل استفهام الملائكة عدة وجوه: إما الاستفهام المحض لعلمهم المسبق بطبيعة هذا الخليفة، أو التعجب من العصيان، أو التعجب من استخلاف العاصي، أو أنه أفاد الاستعلام والاسترشاد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهو على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ الآية، أم نتغير عن هذه الحال؟ أو من التمدح ووصف حالهم، أو الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٢٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢١٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١١٧.

أو غيره؟ أو من التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه، وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

هل تعلم الملائكة الغيب؟ من أين عرفوا أن الخليفة سيفسد في الأرض ويسفك الدماء حين تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ فيكون ذلك أيضًا من وجوه:

- إما من إخبار الله لهم.
- أو من جهة اللوح.
- أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم.
- أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.
- أو أنهم عرفوا طبيعة المادة وفيها الخير والشر[2].

وقال ثعلب وغيره: «إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض»[3].

وخلاصة القول: إن الملائكة لا تعلم الغيب، وإنما سبب علمها بإفساد بني آدم يرجع إلى ما يلي:

(١) المصدر السابق ١/ ١١٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٤، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٦.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٧.

الوجه الأول: أن الله تعالى أعلمهم بطبيعة ذرية آدم عليه السلام، وأنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وعن ابن عباس وابن مسعود: أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾، قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضًا.

الوجه الثاني: أنهم فهموا من لفظ (خليفة): أن في بني آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.

الوجه الثالث: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم، يقول ابن عباس: «كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبيلًا من الملائكة قتلهم وألحق فلهم بجزائر البحار ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة»[4].

ولعل أصح هذه الأقوال: ما ورد أن هناك حذفًا دل عليه ما بعده؛ تجنبًا للتكرار، فكأن الآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ من شأنه أن ﴿يُفۡسِدُ﴾ ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾،

(٤) المصدر السابق.

وإلا فلا يمكن أن يكون توقعًا أو قياسًا، أو غير ذلك مما ورد عند المفسرين. حتى ذهب بعضهم إلى وجود بشر قبل آدم.

ثانيًا: مراحل خلق آدم:

أخبر الحق سبحانه وتعالى عن خلق آدم عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكذلك ورد الحديث عن خلق آدم في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خلق آدم عليه السلام يمكن أن نقول بأن خلق آدم عليه السلام مر في ثلاثة أطوارٍ رئيسةٍ هي:

١. طور التخليق.
٢. طور التصوير.
٣. طور نفخ الروح[١].

الطور الأول: طور التخليق:

ويتضمن أربع مراحل رئيسة، هي:

المرحلة الأولى: التراب.

يعد التراب المرحلة الأولى والبداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي: آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

فهذه الآية صريحة في أن آدم عليه السلام خلق من تراب، فالهاء في قوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ تعود على آدم عليه السلام.

وقد أشار القرآن الكريم في آياتٍ أخرى منه إلى خلق آدم من ترابٍ: فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١].

المرحلة الثانية: من طينٍ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي يصير فيها التراب طينًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

والطين ناتج عن خلط التراب بالماء، والماء يمثل عنصرًا أساسيًا في كافة الكائنات الحية، وذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويلاحظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام، كان: طينًا لازبًا. يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ

---

(١) انظر: مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن ص١٦.

﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١].

واللازب: هو الثابت شديد الثبوت[(١)].

المرحلة الثالثة: خلقه من حمأ مسنون.

بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الكريم بالحمأ المسنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨].

فالحمأ: جمع حمأة، وهو الطين الأسود المتغير[(٢)]، والمسنون: قيل: إنه المصور من سنة الوجه، وهي صورته. وقيل: المسنون المنتن المتغير، من قولهم قد أسن الماء إذا تغير[(٣)]. والمعنى متقارب، فإن هذا الطين المنتن المتغير الأسود حين تماسك صوره الله تلك الصورة الإنسانية.

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصالٍ كالفخار.

والمراحل السابقة مجتمعة أدت إلى مرحلة الصلصال هذه.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٤٤٩.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٨، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٩٣٧، التسهيل، ابن جزي الكلبي ١/ ٤٥١.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧-١٥٨.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قرع بشيء[(٤)].

وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارًا؛ لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

هذا هو الطور الأول- طور التخليق- بمراحله الأربعة السابق ذكرها، وفي هذه المراحل رد على بعض الشبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم في إخباره عن خلق آدم بألفاظ مختلفة، فتعبر الآيات القرآنية الكريمة عن تكامل هذه المراحل دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض، حيث بدأت بالتراب الذي أضيف إليه الماء فصار طينًا، ترك الطين قليلًا فأصبح طينًا لازبًا، ثم تحول هذا الطين إلى حمأ مسنون، فلما يبس هذا الطين سمي صلصالًا.

الطور الثاني: طور التصوير.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]. ويلاحظ من خلال

(٤) انظر: جامع البيان ٢٢/ ١٩١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٩٣٧.

هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق(1)، فبعد أن خلقه الله من الطين، صوره وسواه وجعله تمثالًا مجسمًا على صورة الإنسان، وهذا قبل أن ينفخ فيه الروح.

الطور الثالث: طور نفخ الروح.

بعد أن سوى الله عز وجل الإنسان الأول وصوره، وهو آدم عليه السلام أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشرًا حيًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

والنفخ: إجراء الريح في الشيء. والروح: جسمٌ لطيفٌ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقة الإضافة (روحي) إضافة خلقٍ إلى خالق؛ فالروح خلقٌ من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثله: ﴿وَرُوحٞ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١](2).

وإنما سمى إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه(3).

[انظر: الإنسان: خلق الإنسان]

ثالثًا: تعليم آدم الأسماء كلها:

إن هذا التعليم بمثابة محطة مميزة في حياة آدم عليه السلام؛ إذ أكرمه الله بالسر الإلهي العظيم الذي أودعه فيه وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه(4).

﴿وَعَلَّمَ﴾ معناه: عرف. وتعليمه هنا: إلهام علمه ضرورةً. ويحتمل أن يكون بواسطة ملكٍ وهو: جبريل عليه السلام، وقرئ: ﴿وعلم﴾ غير مسمى الفاعل. والأول أظهر(5).

والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره

---

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٠٨.

(3) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.

(4) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ١/ ٥٧.

(5) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٧٩.

على أن ما مر من المقالة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضرٍ منه، وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بأن قيل إثر نفخ الروح فيه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ إياه ﴿خَلِيفَةً﴾ فقيل: ما قيل[1].

والأسماء واحدها اسم، وهو: ما به يعلم الشيء، والمراد به: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه بذكر الأسماء؛ لأن الاسم لابد له من مسمى، ثم عرضهم، أي: عرض المسميات، وفيه تغليب العقلاء.

الأسماء التي علمها الله عز وجل آدم عليه السلام:

أكثر المفسرون من سرد الأقوال المختلفة في هذه الأسماء ومن ذلك:

قيل: كل شيء حتى القصعة والقصيعة.

وقيل: خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ فقال: يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها[2].

وقيل: أسماء الملائكة وأسماء ذريته.

وقيل: علمه اللغات كلها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني: تلك الأشخاص[3].

قال ابن عباس: «هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[4].

وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقال الربيع بن أنسٍ: أسماء الملائكة. وقيل: أسماء ذريته، وقيل: صنعة كل شيءٍ، قال أهل التأويل: إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات، ثم تكلم كل واحدٍ من أولاده بلغةٍ، فتفرقوا في البلاد، واختص كل فرقةٍ منهم بلغةٍ[5].

وعن ابن عباس قال: «علم الله آدم أسماء الخلق، والقرى والمدن والجبال، والسباع، وأسماء الطير، والشجر، وأسماء ما كان وما يكون، وكل نسمة الله عز وجل بارئها إلى يوم القيامة، وعرض تلك الأسماء على الملائكة»[6].

وذكر البخاري عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)** وذكر

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٨٣.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٢٣
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٨٥، معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٨٢.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١/ ١٧٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٩.

تمام الحديث[1].

والأولى بتأويل الآية: أن تكون الأسماء التي علمها آدم أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة وإن كان غيره جائزًا؛ لاتساع الكلمة (الأسماء كلها)، إضافة إلى أنه دل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ولم يقل عرضها؛ لأن في جملة هذه المسميات أنواعًا من العقلاء: كالملائكة، والإنس[2].

وقال ابن عطاءٍ: «لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها، وهذا واضحٌ»[3].

ويحتمل أن يكون التعليم بواسطة ملكٍ وهو: جبريل عليه السلام، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته.

رابعًا: أول من تكلم اللغة العربية:

قيل: أول من نطق بالعربية جبريل، ويرد عليه بأن جبريل أول من نطق بالعربية من الملائكة.

وقيل: إن اسماعيل هو أول من نطق بها، ويرد على ذلك بأنه أول من نطق بها من ولد ابراهيم.

وقيل: يعرب بن قحطان.

والصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام، والقرآن يشهد له، فقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١].

واللغات كلها أسماءٌ فهي داخلةٌ تحته، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولًا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا والله أعلم، وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة، وألقاها على لسان نوحٍ بعد أن علمها الله آدم أو جبريل[4].

خامسًا: الحكمة من خلق آدم وذريته:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح؛ فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء»[5].

ويمكن استنباط الحكمة من ذلك: إن الله تعالى خلقه من التراب والطين لإظهار عظيم قدرته، «والمقصود من ذكر هذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب صفة الجنة والنار، رقم ٤٤٧٦، ٢/ ١٤٤٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١/ ٩٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٨٤.
(٥) الجواب الصحيح، ٤/ ٥٥.

الأشياء: التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعًا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة»[1].

إن الله خلق هذا الإنسان لأمر عظيم، خلقه ليكون مستخلفًا في الأرض، مالكًا لما فيها، ودوره في الأرض إذن وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور، وليس تابعًا للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون، وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان، فكرامة الإنسان أولًا، والنعمة التي يمتن الله بها على الناس هنا ليست مجرد الإنعام عليهم بما في الأرض جميعًا، ولكنها -إلى ذلك- سيادتهم على ما في الأرض جميعًا، هي نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم، فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم، فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه[2].

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

«وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتسخير له كل شيء في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه، فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض، والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته؛ كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم.

ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، ثم هم بفطرتهم البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق، يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق، وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له»[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٤٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم ١/ ٥٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٥٣-٥٤.

آدم والملائكة

أخبر الله عز وجل الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، فأجابت بقولها لله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[البقرة: ٣٠].

تعجب الملائكة من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، أو كان ذلك على طريق الاستعظام للاستخلاف، والعصيان معًا. أو على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ أو على جهة الاسترشاد والاستعلام؟ هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟[١] كما مر في إعلام الملائكة بخلق آدم من الكلام السابق.

فأجابهم الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من المصلحة في استخلافه مما هو خفي عنكم، وأعلم كيف تصلح الأرض، وكيف تعمر، ومن هو أصلح لعمارتها، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها[٢].

أولًا: تعليم آدم الملائكة أسماء الأشياء:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣].

عقد الرب سبحانه وتعالى امتحانًا للملائكة؛ لإظهار عجزهم، وإبطال زعمهم أنهم أحق بالخلافة من خليفته، بعد أن علم آدم أسماء الأشياء والأجناس المادية من نبات وجماد وإنسان وحيوان، مما تعمر به الدنيا، ثم عرض مجموعة المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء، إن كنتم صادقين في ادعائكم أنكم أحق بالخلافة من غيركم، فعجزوا، وقالوا: يا رب ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل صنع[٣].

يقول الإمام الطبري: «إن الله جل ثناؤه عرف ملائكته -الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض- أنهم من الجهل بمواقع تدبيره ومحل قضائه، قبل إطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلمهم فيعلموه، كما علم آدم أسماء ما عرض على الملائكة، ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم.

﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم﴾ يقول: فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء الذين عرضهم عليهم، فلم يعرفوا أسماءهم، وأيقنوا خطأ قيلهم:

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١١٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٦
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ١٢٦.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، قال لهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه»[1].

والأمر ﴿أَنبِئُونِي﴾: تعجيز؛ لأن المأمور يعلم أن الآمر عالمٌ بذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ إلخ تعريضًا بأنهم أحقاء بذلك، أو ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في عدم جدارة آدم بالخلافة، قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

للتفويض أو الإعلان للسامعين من أهل الملأ الأعلى بالبراءة من شائبة الاعتراض، وإذا انتفى الإنباء انتفى كونهم صادقين في إنكارهم خلافة آدم[2].

ثم قال المولى جل جلاله: أخبرهم يا آدم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، فلما أخبرهم بكل أسماء تلك الأشياء، أدركوا السر في خلافة آدم وذريته، وأنهم لا يصلحون للاشتغال بالماديات، والدنيا لا تقوم إلا بها، إذ هم خلقوا من النور، وآدم خلق من الطين، والمادة جزء منه.

وحينئذ قال تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ ما غاب في ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عنكم، وما حضر أيضًا، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثًا، وأعلم ما تظهرون وما تكتمون من نحو قولكم فيما روي عن ابن عباس: لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منا، فنحن أحق بالخلافة في الأرض[3].

ويقول ابن عباس في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ﴾ - مع علمي ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - ما تظهرون بألسنتكم، وما كتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى علي شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم، والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والذي كانوا يكتمونه: عن ابن عباس وابن مسعود: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والكفر، والتكبر عن طاعته، أو كتمان الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه[4].

قالوا -يعني الملائكة-: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك، وذلك لما ظهر عجزهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي: إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ أي: بخلقك وهو من

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٤٩٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤١٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧١، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٠٠، المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١٢٣.

أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي: في أمرك، القاضي العدل والمحكم للأمر؛ كيلا يتطرق إليه الفساد[1]، وفي هذا اعتراف من الملائكة بقصور علمهم واعتذار لله عز وجل.

ثانيًا: أيهما أفضل بنو آدم أم الملائكة؟

اختلف العلماء في أيهما أفضل الملائكة أم بنو آدم؟ على قولين: فذهب قومٌ إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأكثر أهل السنة على ذلك، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة[2].

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل، واحتج من فضل الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

بالهمز، من برأ الله الخلق، وقوله عليه السلام: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم)[3].

وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل.

وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خيرٌ منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة، وليس ها هنا شيء من ذلك[4].

ثالثًا: سجود الملائكة لآدم:

والسجود معناه في كلام العرب: التذلل والخضوع، وغايته وضع الوجه على الأرض، سجد إذا تطامن، وكل ما سجد فقد ذل، والإسجاد: إدامة النظر. وسجد إذا طأطأ رأسه[5].

ويكون السجود تعظيمًا وتقربًا إلى من سجد له، وهذا سجود عبادة ولا يكون إلا لله وحده في جميع الشرائع.

ويكون سجود تحية وتكريم، وهذا ما أمر الله به الملائكة لآدم فسجدوا له تكريمًا، وهو منهم عبادة لله سبحانه بطاعتهم له إذ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦.
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ٣٩٨.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٥/ ٤٨٥، والترمذي في سننه، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم ٣٥٣٥، ٥/ ٤٣٦. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٨٩.
(٥) المصدر السابق، ١/ ٢٩١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٨

أمرهم بالسجود.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ٣٤].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١١].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

ويقول أيضًا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٢- ٧٣].

إنه التكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء لقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله، ولقد سجد الملائكة امتثالًا للأمر العلوي الجليل[(١)].

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ٣٤].

«عطفٌ على جملة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] عطف القصة على القصة، وإعادة ﴿إِذْ﴾ بعد حرف العطف المغني عن إعادة ظرفه تنبيهٌ على أن الجملة مقصودةٌ بذاتها؛ لأنها متميزةٌ بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوبٍ يؤذن بالاستقلال والاهتمام، ولأجل هذه المراعاة لم يؤت بهذه القصة معطوفةً بفاء التفريع فيقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وإن كان مضمونها في الواقع متفرعًا على مضمون التي قبلها فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيته عليهم؛ إذ علم ما لم يعلموه... وإظهار لفظ الملائكة ولفظ آدم هنا دون الإتيان بضميريهما كما في قوله: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ [البقرة: ٣٣].

لتكون القصة المعطوفة معنونةً بمثل عنوان القصة المعطوف عليها، إشارةً إلى جدارة المعطوفة بأن تكون قصة مقصورة غير مندمجةٍ في القصة التي قبلها. وأسنده إلى ضمير العظمة ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وأتى به في الآية السابقة مسندًا إلى رب النبيء ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] للتفنن، ولأن القول هنا تضمن أمرًا بفعلٍ فيه غضاضةٌ على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر، وأما القول السابق بمجرد إعلامٍ من الله بمراده ليظهر رأيهم، ولقصد اقتران

---

(١) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ١/ ٥٧.

الاستشارة بمبدأ تكوين الذات الأولى من نوع الإنسان المحتاج إلى التشاور، فناسبه الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن المربوبين. وأضيف إلى ضمير أشرف المربوبين وهو النبيء صلى الله عليه وسلم كما تقدم في: (إعلام الله الملائكة بخلق آدم)»[1].

ويقول الإمام الطبري: «خطابٌ من الله جل ثناؤه لخاصٍ من الملائكة دون الجميع، وأن الله إنما خصهم بقيل ذلك امتحانًا منه لهم وابتلاءً؛ ليعرفهم قصور علمهم وفضل كثير ممن هو أضعف خلقًا منهم من خلقه عليهم، وأن كرامته لا تنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام، كما ظنه إبليس عدو الله»[2].

طبيعة سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

القول الراجح في المراد بالسجود: هو أن السجدة كانت لآدم عليه السلام تعظيمًا له وتحيةً له كالسلام منهم عليه، وهو وضع الجبهة على الأرض، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحيي المسلمون بعضهم بعضًا بالسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

كانت تحية الناس يومئذٍ سجود بعضهم لبعضٍ، لكنه محرم في شريعتنا.

ووقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟

ظاهر السياق: أولًا التعليم، ثم الأمر بالسجود، ثم إسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض[3].

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٤٢٠-٤٢١.
(٢) جامع البيان ١/ ٤٥٦.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١/ ٧٨.

آدم والجنة

إتمامًا لمجموع النعم التي أكرم الله بها آدم عليه السلام، خلقه الله بيديه، وعلمه الأسماء كلها، وجعله معلمًا للملائكة، وأسجد له الملائكة، أسكنه الجنة، وأباح له الثمرات كلها، عدا شجرة واحدة نهاه عنها، فهل التزم بأمر الله تعالى؟ وهل كان هذا السكن دائمًا في الجنة أم مؤقتًا؟ هذا ما سنراه في السطور القادمة إن شاء الله تعالى، وسنرى ما جرى معه في الجنة بإذن الله تعالى.

أولًا: السكن في الجنة:

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويقول أيضًا: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

تبين الآيات التكريم الإلهي للإنسان، وهو هنا المقام في الجنة في بدء الخليقة، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية إقامته في الأرض، وتكليفه القيام برسالة مهمة، هي تعمير الكون، وإظهار مزية الإنسان في مجاهدة الشيطان وأهوائه، وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقي من الإنكار؛ ليعلم أن المعصية من شأن البشر، وأنهم إذا كلفوا بشيء بالرغم من تكريمهم غاية الإكرام قد لا يمتثلون[(١)].

﴿ٱسْكُنْ﴾ معناه: لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، و﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير الذي في ﴿ٱسْكُنْ﴾، ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عطف عليه، والزوج امرأة الرجل[(٢)]، وهذا دليل على أن آدم عليه السلام وزوجه سكنا الجنة.

الإقامة في الجنة بين الديمومة والتأقيت:

إن التعبير بلفظ: ﴿ٱسْكُنْ﴾ يحمل في طياته الخروج، بل فيه تنبيه على الخروج؛ لأن السكنى لا تكون ملكًا، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامةٍ، ذلك أنه لو قال رجلٌ لغيره: أسكنتك داري لا تصير الدار ملكًا له، وله أن يخرجه منه إذا انقضت مدة الإسكان، فههنا لم يقل الله تعالى: وهبت منك الجنة، بل قال: أسكنتك الجنة، وإنما لم يقل ذلك؛ لأنه خلقه لخلافة الأرض، فكان إسكان الجنة كالتقدمة على ذلك[(٣)]، فهو معنًى عرفيٌّ، والواجب الأخذ بالمعنى العرفي إذا لم تثبت في اللفظ حقيقةٌ شرعية[(٤)].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٥١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

كما أن في حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن سكناه في الجنة لا يدوم؛ لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى[١]، وينبغي أن يعلم أن الله تعالى خلق آدم للأرض؛ بدليل الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولو لم يعص لخرج على غير تلك الحال[٢].

هل الجنة التي دخلها آدم هي جنة الخلد؟

الجمهور: أن هذه الجنة هي دار الثواب وأنها جنة الخلد، وهو الذي تشهد به ظواهر الآيات والأخبار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ: ﴿الْجَنَّةَ﴾ لا يفيدان العموم؛ لأن سكنى جميع الجنان محالٌ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها.

وعلق بعضهم: أن الكل ممكنٌ، والأدلة النقلية ضعيفةٌ ومتعارضةٌ، فوجب التوقف وترك القطع، ولا تعدو أنها ظواهر كثيرةٌ، لكنها تفيد غلبة الظن، وليس لهذه القضية تأثيرٌ في العقيدة، والله أعلم[٣].

السكن في الجنة بين التكليف والإباحة:

اختلفوا في فعل الأمر ﴿اسْكُنْ﴾ أمر تكليفٍ أو إباحةٍ، فعن قتادة أنه قال: إن الله تعالى ابتلى آدم بإسكان الجنة كما ابتلى الملائكة بالسجود؛ وذلك لأنه كلفه بأن يكون في الجنة يأكل منها حيث شاء ونهاه عن شجرةٍ واحدةٍ أن يأكل منها.

وقال آخرون: إن ذلك إباحةٌ؛ لأن الاستقرار في المواضع الطيبة النزهة وأكل الطيبات لا يدخل تحت التعبد، ولا يكون قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] أمرًا وتكليفًا، بل إباحةً.

والأصح أن ذلك الإسكان مشتملٌ على ما هو إباحةٌ، وعلى ما هو تكليفٌ؛ أما الإباحة: فهو أنه -عليه الصلاة والسلام- كان مأذونًا في الانتفاع بجميع نعم الجنة، وأما التكليف: فهو أن المنهي عنه كان حاضرًا، وهو كان ممنوعًا عن تناوله[٤].

ثانيًا: النهي عن أكل الشجرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويقول أيضًا: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

١/ ٢٩٩.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٨.

(٢) انظر: إيجاز البيان، أبو القاسم النيسابوري ١/ ٨٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٦،

مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٨١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٥١.

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

أباح الله عز وجل لآدم وحواء الجنة بكل ما فيها من الثمرات، فقال عز وجل: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

لكنه نهاهما عن شجرة واحدة، فقال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ولعل الله عز وجل أراد لآدم بهذا المنع أن يتميز عن غيره من المخلوقات المسوقة حيث تبرز الإرادة، إذ لا تظهر الإرادة في حالة الإباحة التامة، فلابد من المنع حتى تظهر هذه الإرادة، كما قال سيد قطب، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ معناه: لا تقرباها بأكل؛ لأن الإباحة فيه وقعت، وقال بعض الحذاق: إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظة تقتضي الأكل وما يدعو إليه وهو القرب[١].

وربما كانت هذه الشجرة ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض، فبغير محظور لا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، فالإرادة هي مفرق الطريق، والذين يستمتعون بلا إرادة، هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين[٢].

ما هي الشجرة التي نهى الله آدم عن قربانها؟

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨.

قيل في تعيينها أقوالٌ كثيرة، ليس فيها ما يعضده خبر؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، والصواب: أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة -إما: بعينها، أو جنسها-[٣]، فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها[٤]، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها، وذلك علم إن علمه عالم لم ينتفع علمه به، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم[٥].

ثالثًا: خروجه من الجنة:

لابد أن نتنبه جيدًا حتى لا يقال: إن معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة؛ لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فآدم عليه السلام مخلوق للخلافة في الأرض، ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد في الآخرة، ومن دخل جنة الخلد عاش في النعيم خالدًا[٦].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٥٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٢٠.
(٦) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٢٦٠.

[البقرة: ٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

بعد أن أسكن آدم وحواء الجنة أتاهما الشيطان فقال لهما: هل أدلكما على شجرة إن أكلتما منها خلدتما فلم تموتا، وملكتما ملكًا لا ينقضي فيبلى؟ فحلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب، فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما[١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. يعني: أوقعهما في الزلل وحملهما عليه.

وقرئ: ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ الشيطان أي: نحاهما، وتوجيه قوله: ﴿عَنْهَا﴾ على القراءة الأولى: عن الوصية، وعن الجنة على القراءة الأخرى[٢].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ وتتجاوز عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في العقوبة، فتاب الله عليهما، وأوحى إليهما: أن ﴿ٱهْبِطُوا﴾ من الجنة آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يكون إبليس لهما عدو، وهما لإبليس عدو، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالكم وإبليس إلى النفخة الأولى، قال الله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني: في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عند منتهى آجالكم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يوم القيامة[٣].

رابعًا: نتيجة المعصية:

لما عصى آدم ربه فأكل من الشجرة عاقبه الله بعدة عقوبات، ومنها ما يلي:

١. الإخراج من الجنة.

قيل: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ خطابٌ لآدم وحواء، والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨- ٣٩].

وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم[٤].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٨٨.
(٢) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ٤٩.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/ ٣٢.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٨.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لحكمة غالية اقتضتها القدرة الإلهية أن يسكن آدم وزوجه الجنة، مع أنه خلق للاستخلاف في الأرض، فلما عصى آدم ربه أخرجه من الجنة، فكان الأمر بالهبوط من الجنة إلى الأرض، وكان في ذلك انحطاط رتبة المأمور، ولذلك لم يؤنسه بالنداء، أو الإقبال عليه بالنداء بخلاف قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ والمخاطب بالأمر بالإخراج آدم وحواء، والمراد: هما وذريتهما، أو هؤلاء وإبليس، ويكون الخطاب بلفظ الجمع وإن وقع على التثنية نحو: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

ذكره ابن الأنباري، ورجحه الزمخشري، والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] الآية، وما هو إلا حكمٌ يعم الناس كلهم، وفي قول من أدخل إبليس معهما ضعفٌ؛ لأنه كان خرج قبلهما[(١)].

٢. نزع اللباس وكشف العورة.

ما ذكره جل وعلا في آية طه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقد دلت الآية السابقة على أن آدم وحواء كانا في سترٍ من الله يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنهما انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوءاتهما، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، أي: شرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعضٍ ليسترا به عوراتهما.

أما تعيين اللباس الذي كان عليهما، فهو من الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه، وغاية ما دل عليه القرآن: أنهما كان عليهما لباسٌ يسترهما الله به. فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما[(٢)].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ١١٣.

آدم وإبليس

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١١].

ذكر الله تعالى قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في سبع سور: البقرة، والأعراف والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص[1].

شاء الله عز وجل أن يبتلي إبليس بآدم ويبتلي آدم بإبليس، فلما خلق الله آدم جعل إبليس يطوف بهذا المخلوق، ويقول: لأمر ما خلقت، وبدأ يحرض الملائكة عليه، ويعلن أنه إن أُمِرَ بطاعة هذا المخلوق فلن يطيع، إعلان عن المعصية وإصرار عليها قبل أن يكلفه الله بالأمر.

أولًا: امتناع إبليس عن السجود لآدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١١-١٢].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾[طه: ١١٦].

ويقول أيضًا: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص: ٧٣-٧٦].

والإباء: امتناع باختيار، والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التشبع[2].

حقيقة إبليس:

عن الحسن قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»[3]. وقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[الكهف: ٥٠].

أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلِقَ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ١٥٣.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٩٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٠٦. وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٣١.

إبليس من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم)[(١)].

فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك؛ فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى على أنه من الجن، أي: أنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

عن ابن عباس: «كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازنًا من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت»[(٢)].

والراجح وما تميل له النفس أنه ليس من الملائكة للأدلة الآتية:

١. أن الله عز وجل وصف الملائكة كما في سورة التحريم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وإبليس هذا عصى الله عز وجل ولم يأتمر بأمره.

٢. أن الله عز وجل أخبر أنه خلق آدم عليه السلام من طين، وإبليس اعترف بنفسه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [ص: ٧٦].

٣. والملائكة كما هو معلوم خلقت من نور.

٤. جاء مصرحًا به في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

٥. أن الله عز وجل لم يجعل للملائكة ذرية، والملائكة أيضًا ليس فيهم ذكور ولا إناث بخلاف إبليس -عليه لعنة الله- فهو من الجن، ومنهم ذكور وإناث، فله ذرية ويتناسلون كما هو معلوم بدليل الآية[(٣)].

وهل كان قبل إبليس كافر أو لا؟

قيل: إن إبليس أول من كفر.

وقيل: كان قبله قوم كفار وهم الجن الذين كانوا في الأرض.

وهل كفر إبليس جهلًا أم عنادًا؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالمًا بالله تعالى قبل كفره، فمن قال: إنه كفر جهلًا قال: إنه سلب العلم عند كفره، ومن قال: كفر عنادًا قال: كفر ومعه علمه[(٤)].

ومما يدلل على أن إبليس مأمور بالسجود لآدم، أنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٦٩٩٢، ٤/ ٤٩٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٠٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٤، تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٥٥.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٥.

لأحد والتوسل به، علم أن الأصاغر أيضًا مأمورون به[1]، فإبليس مأمور بالسجود مع الملائكة، إما بطريقة العلو؛ لأنه فاق الملائكة وأطاع الله مختارًا وألزم نفسه الطاعة، وصار يزهو على الملائكة، وإما بالدنو؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة[2].

سبب عصيان إبليس وامتناعه عن السجود:

قال الحسن البصري: «قاس إبليس وهو أول من قاس».

وقال محمد بن سيرين: «أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقايس»[3].

لقد نظر إبليس في نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى في نفسه أنه أفضل من آدم، فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر الإلهي له ولسائر الملائكة بالسجود.

وهنا قاعدة مهمة في القياس: فالقياس إن كان مقابلًا للنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، ففيه الرزانة، والحلم، والأناة، والنمو. والنار فيها: الطيش، والخفة، والسرعة، والإحراق.

فإبليس ذكر الصلصال والحمأ، ولكنه لم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين[4].

ومن هنا نعلم أن إبليس استحق الطرد من رحمة الله لعصيانه أمر الله عز وجل؛ لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به، وترفعه في مخالفة الأمر الإلهي.

ثانيًا: وسوسة إبليس لآدم في الجنة:

يقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

ويقول أيضًا: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢٠-١٢١].

«الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي من ريح، والوسواس: حديث النفس

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٩٩.
(٣) أخرج الأثرين الطبري في تفسيره ١٢/ ٣٢٧.
(٤) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٤/ ٢١٤١.

والوسواس: هو الشيطان. وكل ما حدثك ووسوس إليك، فهو اسمٌ»[1].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

«الزلة هي سقوطٌ في المعنى؛ إذ فيها خروج فاعلها عن طريق الاستقامة، وبعده عنها، وقرأت: (فأزالهما)، ومعنى الإزالة: التنحية»[2]، و﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: حولهما وزحزحهما عن الجنة، أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة، و﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: إبليس الذي لم يسجد ولم يخضع، وقد وسوس لهما بما ذكر في سورتي الأعراف وطه حتى أوقعهما في الزلل وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من ذلك المكان أو النعيم الذي كانا فيه، فكان الذنب متصلًا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب[3].

ظهرت مهمة الشيطان وعداوته لآدم وذريته، والله تعالى يقول: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أوقعهما في الزلة، وهي العثرة أو الكبوة، وهو الميل والعدول[4]، كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان، وأبلغه أنه عدو لهما، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

فالعداوة معلنة ومسبقة، ولنفرض أنها غير معلنة، ألم يشهد آدم الموقف الذي عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد له؟ ألم يعرف تكبره عليه، قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ كل هذا كان ينبغي أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتي له بخير أبدًا، ولم يكتف الله عز وجل بهذه الدلالات، بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من ماذا أخرجهما؟ من العيش الرغيد، وواسع النعمة في الجنة، ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب[5].

فقال إبليس كاذبًا: إن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكًا، ويصبح خالدًا لا يموت. ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية، والشيطان لا يهمه أي معصية ارتكبت؛ وإنما يريدك عاصيًا على أي وجه، ولكن النفس عندما توسوس لك بالمعصية، تريد شيئًا بذاته، وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس؛ فالشيطان يريدك عاصيًا بأي ذنب، فإن امتنعت في ناحية أتاك من ناحية أخرى، فقد قال لآدم: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٥٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٦٠.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٣١-١٧.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٢٨.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٢٦٦.

﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾ ولكن هذه المحاولة لم تفلح، فقال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحًا لأكل إبليس من الشجرة، ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم الدين[(١)].

أما كيف تتم الوسوسة؟ فلا ندري؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه، ولكننا نعلم -بالخبر الصادق- أن إغواءه على الشر يقع في صورة من الصور، وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات، وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقاط الضعف الفطرية في الإنسان، وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير[(٢)].

وقد رويت أخبار في صفة استزلال إبليس عدو الله آدم وزوجته حتى أخرجهما من الجنة، وأولى ذلك بالحق ما كان لكتاب الله موافقًا، وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، أنه قد باشر خطابهما بنفسه، إما ظاهرًا لأعينهما، وإما مستجنًا في غيره، وقد استخدم إبليس في إيقاع آدم عليه السلام في شباكه شيئين:

أولهما: عرض الإغراءات الخطيرة، وهي الملك والخلود في الجنة.

ثانيهما: القسم بالحلف الكاذب[(٣)].

عداوة إبليس لآدم:

عن جابر بن عبد الله: «أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض هبط بالهند، وأن رأسه كان ينال السماء، وأن الأرض شكت إلى ربها عز وجل ثقل آدم عليه السلام، فوضع الجبار عز وجل يده على رأسه فانحط منه سبعون ذراعًا، فلما أهبط قال: رب هذا العبد الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعينني عليه لا أقوى عليه. فقال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكًا. قال: رب زدني. قال: أجازي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرًا إلا ما أزيد. قال: رب زدني. قال: باب التوبة له مفتوح ما دام الروح في الجسد. فقال إبليس: يا رب، هذا العبد الذي أكرمته إن لم تعينني عليه لا أقوى عليه. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك. قال: رب زدني. قال: تجري مجرى الدم وتتخذ في صدورهم بيوتًا. قال: رب زدني. قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[الإسراء: ٦٤]»[(٤)].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٧.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٣١
(٤) أخرجه ابن منده في التوحيد، ذكر خلق

إن عداوة إبليس آدم وذريته، حسده إياه، واستكباره عن طاعة الله في السجود له، فهي كفرٌ بالله[1].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٨].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٧٥ - ٨٣].

ويقول: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

لم يزل الشيطان دائبًا جادًا مشمرًا في عداوة بني آدم عليه السلام منذ كان أبوهم طينًا، فقال تعالى: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

فلما سأله الله عز وجل عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه فقال سبحانه له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

فأجاب الخبيث مفتخرًا بأصله طاعنًا على ربه تعالى في حكمته وعدله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فعامله الجبار بنقيض ما قصده وأذاقه وبال حسده، وأثمر له استكباره الذل الأبدي الذي لا عز بعده: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

وقال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].

فطلب الإنظار ليأخذ بزعمه من آدم وذريته بالثأر، ولا يعلم أنه بذلك إنما يزداد من غضب الجبار، وقد علم أنه لا سبيل له إلا على حزبه وتابعيه من الكفار، الذين هو إمامهم في الخروج عن طاعة الله

آدم عليه السلام، رقم ٨٢، ١/ ٢٢٥.
قال ابن منده: «هذا إسنادٌ صحيحٌ».
(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٣٧.

والاستكبار ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٧٩- ٨٠].

أجابه الله تعالى إلى طلبته ليمتحن عباده اختبارًا وابتلاءً: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢].

فقابل النعمة بالكفران، وأقسم ليستعملن مدته، وليستغرقن حياته في إغواء ذرية آدم الذين كان طرده وإبعاده بسببهم؛ إذ لم يسجد لأبيهم، ولا رأى أن ذلك باستكباره عن أمر ربه، بل قدس نفسه اللئيمة، وأسند الإغواء إلى ربه مخاصمةً ومحادةً ومشاقةً: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧].

ولم يقل اللعين: «من فوقهم» لعلمه أن الله تعالى من فوقهم، قال الله سبحانه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد علم الرجيم ذلك فقال آيسًا منهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

ثم لما سعى إلى آدم وحواء زوجه في الجنة ودلهما على تلك الشجرة التي نهاهم الله عز وجل عنها أن يقربوها، وأباح لهم ما سواها من الجنة، فاستدرجهم اللعين بخداعه، وغرهم بتلك اليمين الفاجرة: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

فنفذ قضاء الله تعالى وقدره بأكلهما منها: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذي لا يقدر أحدٌ على شيءٍ منه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فلم يعترضا على قضاء الله وقدره، ولم يحتجا بذلك على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولم يخاصما به كما قال اللعين مواجهًا ربه بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

بل اعترفا بقدرة الله عليهما، وأقرا بظلمهما لأنفسهما، وصرحًا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دارٍ أخرى، هي دار الامتحان والابتلاء، ونصب الحرب في هذه الدار؛ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٨-٣٩].

ثم كان من كيد الشيطان إلقاؤه الفتنة بين ابني آدم، وقتل أحدهما الآخر[1].

بداية العداوة بين الشيطان والإنسان:

ابتداؤها من الشيطان، وسببه تكريم الله بني آدم؛ لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم، فعاداه الله تعالى، والأولى منه لؤمٌ، والثانية من الله كرمٌ، أما الأول: فلأن الملك إذا أكرم شخصًا ولم ينقص من الآخر شيئًا، فعداوة من يعادي ذلك المكرم لا تكون إلا لؤمًا، وأما الثاني: فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه؛ وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك فيحسن التعذيب عليه فيعاديه إتمامًا للإكرام، ثم إن كثيرًا من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحدًا عند ملكٍ محترمًا بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس[2].

[انظر: الإنسان: الإنسان والشيطان]

توبة آدم

أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وعصيا الله عز وجل فأخرجا من الجنة، فانتابهما من الحسرة والألم ما الله أعلم به، ويبدأ العتاب الرباني: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢].

وهنا يبدأ آدم عليه السلام بالتضرع والرجوع إلى الله عز وجل. يقول الله تعالى حاكيًا حال آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فأكرمه الله عز وجل بقبول التوبة، يقول الله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[طه: ١٢٢].

ولقد أجمع الحجة من العلماء على توجيه التلقي إلى آدم دون الكلمات[3]، والتلقي هنا معناه: الأخذ والقبول، أي: يتقبله ويأخذه[4].

(١) انظر: معارج القبول، الحكمي ٢/ ٤٦٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٣.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٢٤.



أولًا: الكلمات التي تلقاها آدم من ربه:

اختلف أهل التأويل في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

فعن ابن عباسٍ: «قال آدم: أي رب، ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم، قال: فهو قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]»[(١)].

وعن ابن عباسٍ قال: «لما أصاب آدم الخطيئة فزع إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا، وظلمت نفسي، فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[(٢)].

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذارًا وتنصلًا، وكلمات الحق سبحانه قبولًا وتفضلًا، وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: أفِرَارًا منَا يا آدم؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وقوله: أمخرجي أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم[(٣)].

وقيل إنها: جاءت في القرآن مفسرة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومن المعلوم أن من هو دون آدم من الكفار والفساق، إذا تاب أحدهم إلى الله توبة نصوحًا تاب الله عليه، وإن لم يقسم عليه بأحد، ونبينا ما أمر أحدًا في توبته بمثل هذا الدعاء[(٤)].

نفذ قضاء الله تعالى وقدره بأكلهما منها: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذي لا يقدر أحدٌ على شيء منه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى، لم يعترضا على قضاء الله وقدره، ولم يحتجا بذلك على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولم يخاصما به.

بل اعترفا بقدرة الله عليهما، وأقرا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٤٣، والحاكم في المستدرك، ذكر آدم عليه السلام، رقم ٢٢٠٠، ٤/ ٥٩٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٨٩.

(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٨٢.

(٤) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي ٤٣٩.

بظلمهما لأنفسهما، وصرحا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دارٍ أخرى، هي دار الامتحان والابتلاء[١].

وإن هذه الكلمات تتضمن الإقرار والاستغفار، ومن ندم واستغفر وتاب، غُفِرَ له، وإن كان دون آدم عليه السلام، فحصل بها المقصود ولم يحتج لغيرها[٢].

فأما آدم فسأل التوبة فتيب عليه، وأما إبليس فسأل النظرة، فأُنظِر[٣].

ثانيًا: الخطيئة الموروثة لبني آدم:

فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة، فالخطيئة فردية والتوبة فردية، فليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده -كما تقول نظرية الكنيسة-.

فخطيئة آدم كانت خطيئةً شخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة.

يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد وعدم اليأس والقنوط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢][٤].

(١) انظر: معارج القبول، الحكمي ٢/ ٤٦١.
(٢) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي، ص ٥٠١.
(٣) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين اليمني ٣/ ٦٥٩.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠-٦١.



آدم وزوجه

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

يا بني آدم خلقكم: فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم، والعطف في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ نوعي جنس الإنس.

والثاني: أن يعطف على ﴿خَلَقَكُم﴾، والمعنى: خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ غيركم من الأمم الفائتة للحصر.

والذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها، فكان خلقه إياهم من نفس واحدة موجبًا للتقوى وداعيًا إليها؛ لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة[(١)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٦١

أولًا: خَلْق حواء:

في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيرًا)[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلعٍ، وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)[(٣)].

وعن ابن عباسٍ: «أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائمٌ، ولأم مكانه لحمًا»[(٤)].

وقيل: إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئًا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبدًا[(٥)].

ومنهم من قال: إنها خلقت من تراب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي:

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨، ٢/ ١٠٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم ٣٣٣١، ٤/ ١٣٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره، ١/ ٥١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٩٣.

من جنسها.

والقول الأول أقوى؛ بدليل الآيات[1]، وجمهور المفسرين: على أن المراد بالنفس الواحدة آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء[2].

واختلفوا في الوقت الذي خلقت فيه حواء:

ذهب بعضهم إلى أنها خلقت بعد أن أدخل آدم الجنة.

فذكر السُدِي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فبقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به، فألقى الله تعالى عليه النوم، ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر، ووضع مكانه لحمًا، وخلق حواء منه، فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة فسألها من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي، فقالت الملائكة: ما اسمها؟ قال: حواء. ولِمَ سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي[3]، أو أنها أم كل حي، أي: أم الأحياء، كما أن سياق الآيات يدل على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٧-٤٧٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٣٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٤٥١.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وذهب آخرون: أنها خلقت قبل دخول آدم الجنة، وأدخلا الجنة معًا[4].

إن من التكريم الإلهي للإنسان إسكان آدم وحواء في الجنة في بدء الخلق، فقد أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بسكنى الجنة، والتمتع فيها حيث شاءا، والأكل منها أكلا هنيئًا لا عناء فيه، أو واسعًا لا حد له. ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة، فكان الأكل منها ظلمًا لأنفسهما، وتجاوزًا لأمر الله ومخالفة نهيه، ولكن الشيطان عدوهما أزلهما عنها، أذهبهما وأبعدهما عن الجنة، وأخرجهما من ذلك النعيم، بعد أن أغواهما بالأكل من الشجرة، فحولهما من الجنة، قائلًا لهما: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١].

فتغلبت عليهما وساوس الشيطان، وخرجا من الجنة إلى الأرض، وشقاء الدنيا، وقد نشأت بعدها العداوة بين البشر والشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٥١.

وقال الله لهما: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، بعضكم عدو بعض، ولكم استقرار في الأرض وتمتع بنعمها وخيراتها إلى مدة معينة من الزمان. فألهم الله آدم كلمات، فعمل بها هو وزوجته، فقالاها، وتابا توبة خالصة، والكلمات هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فتقبل الله منهما التوبة؛ لأنه كثير القبول لتوبة عباده، وكرر الأمر بالهبوط من الجنة هو وزوجه للتأكيد[(١)].

[انظر: الإنسان: خلق حواء]

(١) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ١/ ٢٣-٢٦.

ذرية آدم

إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر، وأحياهم، وجعل لهم عقلًا وإدراكًا، وأخرج من ظهور بني آدم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، وهم في عالم الأرواح، وقد كرم الله بني آدم أن استخلفهم في الأرض؛ لإعمارها ولإقامة حدود الله، وأخذ عليهم الميثاق.

أولًا: نداءات الله لبني آدم:

من خلال استقراء آيات كتاب الله نجد أن الآيات القرآنية التي نادى الله بها البشر بصيغة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خمس آيات، هي:

١. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦].

هناك تلازم بين شرع الله اللباس؛ لستر العورات والزينة، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري[(٢)].

(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى»[1].

فاللباس: ستر العورات، والرياش: ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول: ضروريات، والثاني: مكملات. وفي الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة، وقيل: بل فيها دلالةٌ على الإنعام فقط، بل إن من جملة الإنعام ستر العورة، فبين أنه سبحانه وتعالى جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم[2].

٢. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

تنبيه لبني آدم بأن الشيطان عدو الإنسان، فيجب التنبه لمخاطره وتذكر عهد الله وميثاقه بأن نعبده وحده لا شريك له، ونزكي النفس بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة؛ لنحقق السعادة الأبدية في الآخرة، ونؤدي الرسالة في هذه الحياة على الوجه الأكمل[3].

لا يصرفنكم الشيطان عن الدين ولا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال إخراجهما، فكان سببًا في أن نزع عنهما.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ هو تعليلٌ للنهي، وتحذيرٌ من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون.

وقيل: إن عدوًا يراك ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده ونسله، قال مجاهدٌ: يعني الجن والشياطين، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[4]، وعطف ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ على الضمير في ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ المؤكد بـ﴿هُوَ﴾، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن[5].

وفي الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة وتحذير من زوال النعمة، كما نزل بآدم[6].

٣. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

هذا خطاب عام لجميع العالم وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها، والزينة هاهنا: الثياب الساترة، ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك، وكل ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٥٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٤٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٦.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٨.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٦.

وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعمله الخيلاء، ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ عند كل موضع سجود فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها، ويدخل معها مواطن الخير كلها[1].

٤. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: ٣٥].

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه، وهذا هو شرطه في الخلافة عنه سبحانه في أرضه التي خلقها وقدر فيها أقواتها، واستخلف فيها هذا الجنس، ومكنه فيها؛ ليؤدي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد، وإلا فإن عمله ردٌّ في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله، وهو في الآخرة وِزْرٌ، جزاؤه جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفًا ولا عدلًا.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأن التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش، وأفحش الفواحش الشرك بالله، واغتصاب سلطانه وادعاء خصائص ألوهيته، وتقودهم إلى الطيبات والطاعات وتنتهي بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير[2].

٥. قول الله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته[3]، ونداؤهم هنا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فيه من التبكيت ما فيه، فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم، بدءًا من أبيكم آدم عليه السلام[4].

وقوله: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ معناه: لا تطيعوه؛ ذلك أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب، بل الانقياد لأمره والطاعة له، فالطاعة عبادةٌ، وطاعة الشيطان في مخالفة أمر الله، أو ترك أمر الله.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته[5].

ثانيًا: تكريم بني آدم:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢].

أرأيت هذا الذي فضلته علي، وكرمته، يعني: آدم، ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: أجل موتي، ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنهم، ولأستولين عليهم بالإغواء والإضلال، وأصله من احتناك الجراد الزرع،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٣/ ١٢٨٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٩، فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣١١.
(٤) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ٣٧.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣١١.

وهو أن تأكله وتستأصله بأحناكها وتفسده، ثم يسمى الاستيلاء على الشيء وأخذ كله احتناك، أوهو مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد[1].

يقول سيد قطب: «لأستولين عليهم وأحتويهم، وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم. ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية، عن حالته التي يكون فيها متصلًا بالله، فيرتفع ويسمو، ويعتصم من الشر والغواية»[2].

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿كَرَّمْنَا﴾ جعلهم ذوي كرم، بمعنى: الشرف والمحاسن الجمة، كما تقول: ثوب كريم وفرس كريم؛ أي: جامع للمحاسن، وليس من كرم المال في شيء[3]، وما جاء عن أهل التفسير من تكريمهم وتفضيلهم بأشياء ذكروها، هو على سبيل التمثيل لا الحصر[4].

مظاهر تكريم الله لبني آدم:

١. اختص الله الإنسان بأن خلقه بيديه، ونفخه فيه من روحه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

وهذا يدل على علو مكانة الروح التي حلت في الإنسان، وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قال: قالت الملائكة: يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها، ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة، فقال: وعزتي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فكان[5].

٢. الصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ﴾[التين: ٤].

٣. تسخير الكون للإنسان دون ثمن يدفعه، مثل استخدامه لضياء الشمس ودفئها، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

٤. حملهم في البر والبحر، ورزقهم من كل غذاء نباتي أو حيواني، وتفضيلهم على كثير من خلقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١١٥، التسهيل، ابن جزي الكلبي ١/ ٤٥٠.
(٢) في ظلال القرآن الكريم، ٤/ ٢٢٣٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٩٣، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٠١.

﴿كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥. تحميله الأمانة، ونفي الجبر عنه، وإعطاؤه الحرية كاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٦. إعطاؤه حق المساواة لكل فرد مع الأخرين، فلا يتفاضل أحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٧. يأتي التكريم الأعظم في الآخرة بما أعده الله للطائعين من الكرامة في دار المقام، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ﴾[1].

ثالثًا: أخذ الميثاق على بني آدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والميثاق: العهد المؤكد باليمين، من الوثاقة وهي الشدة في العقد والربط[2]، في هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أخرج من أبناء آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، وهم في عالم الأرواح، أليس الله سبحانه وتعالى هو ربكم وخالقكم؟ فشهدوا جميعًا وقالوا: بلى أنت ربنا وخالقنا[3]. وخلق الناس على فطرة التوحيد مقرر في آية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦]، يقول الطبري: «خلقًا بعد ذلك، قال: فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾»[4].

واختلفوا في كيفية الإخراج وهيئة المخرج والمكان والزمان[5].

والميثاق: هو إقرار من الناس جميعًا

---

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين ٤/ ١١٣٥-١١٣٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٦، في ظلال القران الكريم، سيد قطب ١/ ٥١، ٥٢.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٥١٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٢٠.

(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢١٨.

-قبل أن يخلقوا وقبل أن يكونوا أناسًا- بالولاء لله، والاعتراف بربوبيته، وهو إقرار ضمن الإقرار العام للوجود كله بالانقياد لله، والولاء له، ويمكن أن يكون الميثاق الذي بايع به المسلمون رسول الله إذ دخلوا في الإسلام، فقد كانت بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة على السمع والطاعة في المكره والمنشط، أي: في الضراء والسراء[1].

وقد اختلف العلماء في كيفية أخذ الميثاق على رأيين:

أما السلف من المفسرين فقالوا: إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر، وأحياهم وجعل لهم عقلًا وإدراكًا، وألهمهم ذلك الحديث وتلك الإجابة، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقروا بذلك.

وأما الخلف فقالوا: هذا من قبيل التمثيل والتصوير، والمجاز والاستعارة فلا سؤال ولا جواب، وإنما أقام الله الأدلة الكونية على وحدانيته وربوبيته للكون كله، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾[2].

فالمراد من الآية أن الله تعالى جعل الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد حجة مستقلة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾ أي: لم ننبه إليه، وهو أولى الآراء بالصواب[3]، وسبب الإشهاد لمنع اعتذارهم يوم القيامة بغفلتهم عن التوحيد، أو بادعائهم التقليد، والله لا يقبل عذرهم أبدًا؛ لأن التقليد في الاعتقاد وأصول الدين لا يجوز.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الحديد: ٨].

أي شيء يحول بينكم وبين الإيمان بالله، وهذا رسول الله ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؟ فلقد دعاكم الله سبحانه وتعالى إلى الإيمان من قبل، وأخذ ميثاقكم وأنتم في ظهور آبائكم، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم ما زلتم على إيمانكم بالله الذي وثقه معكم وأنتم في ظهور آبائكم، فما لكم لا تؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول من إيمان، وهو إنما يدعوكم إلى هذا الإيمان الذي آمنتم به من قبل؟[4].

وظاهر الآية متناقض، ولو كانوا لا يؤمنون بالله كيف يقرون بالله وبالرسول؟ لكنه يخرج على وجهين:

أحدهما: أي: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؟ أي: بقدرة الله على بعثكم وإحيائكم بعد

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ١٠٤٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢١٨، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٥٨.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٥٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٤/ ٧٥٠-٧٥٤.

موتكم.

والثاني: أي عذر لكم في ترك الإيمان بالله تعالى والرسول دعاكم، وقد أتاكم من الآيات والحجج ما يدفع عنكم العذر، ويزيح عنكم الشبه؟[1].

وهذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والخطاب للكفار[2].

رابعًا: الاستخلاف في الأرض:

يقول الإمام الطبري: «الخليفة، مستخلف في الأرض، ومصير فيها خلفًا»[3].

والخلائف: جمع خليفة، وهو: آدم وذريته، والهاء للمبالغة والتأكيد، وهذا اسمٌ لمن يخلف الغير، ويقوم مقامه فيما أسند إليه، وآدم خلف الملائكة في اتخاذ الأرض مسكنًا[4].

وقال الحسن البصري: «خلفًا يخلف بعضهم بعضًا، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله»[5]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه في تنفيذ الأحكام، وقيل: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، وقال ابن كثير: والظاهر أنه لم يرد آدم عينًا؛ إذ لو كان ذلك، لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم أرادوا: أن من هذا الجنس من يفعل ذلك[6].

واختلف المفسرون واللغويون في سبب تسمية خليفة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الله لما خلق الأرض أسكنها الجن، ولما خلق السماء أسكنها الملائكة، ثم لما خلق آدم أزعج الجن إلى أطراف الأرض، فهو خليفة الجن في الأرض.

القول الثاني: أنه سمي خليفة؛ لأنه يخلفه غيره فيكون مكانه.

القول الثالث: أنه سمي خليفة؛ لأنه خليفة الله في الأرض لإقامة أحكامه وحدوده، وهو الذي رجحه البغوي، وتبعه الخازن والرازي والسمعاني، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وهو المتعين إن شاء الله[7].

ومعلومٌ أن أعلى الناس منصبًا عند الملك من كان قائمًا مقامه في الولاية والتصرف، وكان خليفةً له فهذا يدل على أن آدم عليه السلام كان أشرف الخلائق[8].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٥١٦.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٤٠٠-٤٠١.
(٣) انظر: جامع البيان ١/ ٤٤٨.
(٤) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ١٣٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٥١.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٨.
(٧) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ١٣٨.
(٨) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٤٣.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الآية يخاطب الله تعالى داود عليه السلام بأنه استخلفه حاكمًا بين الناس في الأرض، فله السلطة والحكم، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم والاستخلاف تعليمًا لغيره من الناس:

١. ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار؛ لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق، والعبرة من هذا الموضوع: الوصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ﴾ أي: بعد من تقدمك من الأنبياء عليهم السلام، وقيل: حاكمًا من قبلي لتحكم بين عبادي بالحق، وأوصاه بألا يتبع في الحكم هواه[١].

فكل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه؛ لذلك لم يستنبئ ملكًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام: ٩][٢].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٢٥٢.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٨.

موت آدم عليه السلام

عن الحسن، قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه، فقالوا: هذا أبي بن كعب، فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني، إني أشتهي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له منها، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطٌ، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون؟ قالوا: أبونا مريضٌ واشتهى من ثمار الجنة، قالوا لهم: ارجعوا قد قضى أبوكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك عني إنما أتيت من قبلك، خلي بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وألحدوا له، وصلوا عليه، ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن، ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم[1].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ٣٤٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

الدروس المستفادة من قصة آدم

١. الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب.
٢. استدل بعض العلماء بآية ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ على أن اللغات كلها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى خلق علمًا ضروريًا بتلك الألفاظ وتلك المعاني، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني.
٣. تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله، دال على فضل العلم؛ فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام، إلا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء، لا بالعلم.
٤. قصور علم المخلوقات أمام علم الخالق، وأن فعل الخالق لا يخلو من الحكمة والفائدة، وأن علم الملائكة محدود لا يتناول جميع الأشياء، والواجب على من سئل عن علم لم يعرفه أن يقول: الله أعلم، لا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء وفضلاء العلماء.
٥. التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ

أخرج من هذه الحالة المهينة نوعًا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة.

٦. أن الله تعالى أراد تمييز آدم عن جميع خلقه بأن يخلقه بيده الكريمة مباشرة، وهذا لا يكون إذا كان خلقه من العدم، فالملائكة والجن مخلوقون من العدم، ولا يقال فيهم: إنه خلقهم بيده.

٧. الإنسان وإن كرمه الله، لكنه ضعيف، عرضة للنسيان، كما نسي آدم أوامر الله ونواهيه، فأطاع إبليس عدوه، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

٨. إن التوبة والإنابة إلى الله سبيل الظفر برحمة الله الواسعة، فإن آدم الذي عصى ربه تاب وقبل الله توبته، فعلى العاصي أو المقصر المبادرة إلى التوبة والاستغفار دون قنوط ولا يأس من رحمة الله ورضوانه ومغفرته.

٩. الكبر والعناد والإصرار على الإفساد أسباب لاستحقاق السخط الإلهي، واللعنة والغضب والطرد من رحمة الله، فإن إبليس الذي أبى السجود، وأصر على موقفه، وعاند الله، وتحدى سلطانه بإغراء الإنسان وصرفه عن إطاعة الله، غضب الله عليه وطرده من الجنة إلى الأبد، وأوعده بنار جهنم.

١٠. قد يرتكب الإنسان معصية مخالفًا أمر الله في حال النسيان والسهو عن عهد الله بطاعته، والنسيان مرفوع عنا الحرج والإثم فيه. قال ابن زيد: «نسي آدم ما عهد الله إليه في ذلك اليوم، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس».

١١. أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتشريف وتكريم، لا سجود عبادة، وأبى إبليس السجود مع الملائكة تكبرًا واستعلاء وحسدًا.

١٢. الجنة ذات نعيم مطلق، فلا تعب ولا عناء في الحصول على الملذات والرغبات، بخلاف الدنيا التي تمتاز بالتعب والكد لتحصيل المطلوب.

١٣. كانت وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة سببًا في المخالفة والإخراج من الجنة والهبوط إلى الأرض، ونزع اللباس.

١٤. لا يجوز الحديث عن ذنوب الأنبياء إلا بالقدر المذكور في القرآن الكريم أو السنة النبوية الثابتة، فقد أخبر الله بوقوع بعض الأخطاء من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن أنفسهم، وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم قليلة نادرة، وكانت عن خطأ أو نسيان، أو تأويل.

١٥. من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء أجمعوا على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول: تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت، وقد قدر الله علي ذلك. والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته.

١٦. لقد اجتبى الله تعالى آدم وهداه بعد العصيان، فإن وقع هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب؛ لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، وإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه، لم يضر ما سلف منهم من الذنوب.

١٧. أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بالهبوط إلى دار الدنيا، والدنيا دار تكليف وتنافس وتزاحم، وسبيل التقويم والتميز: الالتزام بهداية الله.

١٨. لا عذر للكافر يوم القيامة بعد أن أتته الآيات والدلائل على إثبات وحدانية الله وقدرته ووجوب العمل بشرعه، فإذا ما تركها ولم ينظر فيها، ترك في العذاب في جهنم، وهكذا يعاقب كل من أعرض عن القرآن، وعن النظر في مصنوعات الله.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الإنسان، الشيطان، الملائكة، النبوة





عناصر الموضوع

مفهوم الآيات الكونية	٨٦
الألفاظ ذات الصلة	٨٨
حكمة القسم بالآيات الكونية	٨٩
استدلال القرآن بالآيات الكونية	٩٣
أساليب القرآن في الحث على التفكر	١٠٤
الآيات الكونية في المثل القرآني	١١٢
الإشارات الإعجازية لعلوم الكون في القرآن	١٢٠
ضوابط التفسير العلمي للآيات المتعلقة بالكون	١٣١



مفهوم الآيات الكونية

أولًا: المعنى اللغوي:

فأما لفظ الآية:

فتطلق في اللغة العربية على إطلاقين:

الأول: إن الآية هي: العلامة، وهذا هو المشهور في كلام العرب[(١)].

قال الراغب: «الآية هي: العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر، وهو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج، ثم وجد العلم علم أنه وجد الطريق، وكذا إذا علم شيئًا مصنوعًا علم أنه لا بد له من صانع»[(٢)].

الثاني: إن الآية تأتي بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم[(٣)].

وأما لفظ الكون:

فالكون لغة: الوجود المطلق العام، واسم لما يحدث دفعة، كحدوث النور عقب الظلام مباشرة، وقيل: الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عُرِفت الآية بعدة تعريفات، أهمها:

عرفها ابن عطية بقوله: «الآية: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة»[(٥)].

وعرفها البيضاوي بقوله: «الآية في الأصل: العلامة الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته»[(٦)].

وعرفها ابن عاشور بقوله: «الآية: أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٦١، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ١٢٢.

(٢) المفردات ص ١٠١.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٦٢.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٨٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٠٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٢، وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٤٥٦.

(٦) أنوار التنزيل ١/ ٧٤.



وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس»[1].

وقال الشنقيطي: «الآية تطلق في القرآن العظيم على إطلاقين:

الأول منهما: إطلاق الآية على الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة:٢٥٢].

وأما الثاني: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠].

أي: علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده جل وعلا»[2].

وأما الكون اصطلاحًا فهو: مجموع الموجودات الكائنة من مختلف صور المادة والطاقة والزمان والمكان وما تتشكل عليه من كافة الجمادات والأحياء[3].

ثالثًا: معنى الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي: الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك: السماوات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله عز وجل في الآفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات[4].

(١) التحرير والتنوير٦/ ٢٨٧.
(٢) أضواء البيان٣ / ٢٢٣.
(٣) ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تعريف الكون، استحضر في ٠٦/ ٠/ ٢٠١٥م.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلامة:

العلامة لغةً:

العلامة لغةً: بتخفيف اللام المفتوحة الأمارة وعلامة الشيء ما يعرف به[(١)].

العلامة اصطلاحًا:

ما يستدل به من آثار، سواء كان على طريق، أو أي شيء[(٢)].

الصلة بين الآية والعلامة:

أن الآية هي العلامة الثابتة من قولك: تأييت بالمكان إذا تحبست به وتثبت، والآية تشمل العلامة والدليل القاطع[(٣)].

٢ الأمارة:

الأمارة لغةً:

هي: العلامة[(٤)].

الأمارة اصطلاحًا:

التي يلزم من العلم بها الظن بوجود المدلول، كالغيم بالنسبة إلى المطر، فإنه يلزم من العلم به الظن بوجود المطر[(٥)]، وقد يطلق على الدليل القطعي أيضًا[(٦)].

الصلة بين الآية والأمارة:

إن الأمارة هي العلامة الظاهرة، ويدل على ذلك أصل الكلمة، وهو الظهور، ومنه قيل: أمر الشيء إذا كثر ومع الكثرة ظهور الشأن، ومن ثم قيل: الأمارة لظهور الشأن[(٧)].

---

(١) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري ٢ / ٢٦٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية٢/ ٦٢٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٧١.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ١٣٩، لسان العرب، ابن منظور ٤ / ٣٣.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٣٦.
(٦) انظر: معجم مقاليد العلوم، السيوطي، ص ٧٧، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ١٢١.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٢.



حكمة القسم بالآيات الكونية

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد أقسم بكثير من الآيات الكونية في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة:٧٥- ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق:١-٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ [البلد:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس:١-٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:١-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:١-٤].

وأسلوب القسم في القرآن الكريم طريق من طرق توكيد الكلام وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين[(١)].

ويمكن بيان الحكمة في القسم بالآيات الكونية فيما يأتي:

١. إن القسم بالآيات الكونية في القرآن الكريم له حكم عظيمة، ومقاصد كثيرة، وفي طياته مواطن للعظة والعبرة، ومجالات رحبة للتأمل والنظر، ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته، فيزداد بها يقينًا يسمو به إلى مراتب العارفين بربهم جل جلاله وعز شأنه.

٢. إن القسم في القرآن الكريم لا يكون

---

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣١٨.

إلا باسم معظم في ذاته أو لمنفعة فيه، أو للتنبيه على كوامن العبرة فيه، فقد أقسم الله تعالى بالنجم والشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والخيل، والتين والزيتون، وطور سنين، والبلد الأمين، وغير ذلك من مخلوقاته، لكونها إما معظمة عند الله تعالى أو لما فيها من دلائل القدرة، وآيات العظمة، أو مواطن العبرة[١].

٣. إن إقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبئ عن شرفها، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو توجب الحث على الشكر.

قال القرطبي: قد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل:٣]، ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه، كما قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ [الشمس:١]. وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ [الشمس:٥]. وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق:١][٢].

قال ابن القيم: «وقد تضمن هذا القسم الأقسام بالخالق والمخلوق فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها، وقد قيل إن مصدرية فيكون الأقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده، ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك منزلًا منزلة ذكر المحدث له لفظًا فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة»[٣].

٤. إن القسم بالآيات الكونية في القرآن الكريم توكيد، أو تعظيم، أو تنبيه على ما فيها من عظات وعبر، ونفع وضرر[٤].

فمن التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات:١-٦].

ومن التعظيم: قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

ومن التنبيه: قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣١٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٤١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٧ / ٩٨.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٨.

(٤) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣٢٠.

﴿شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة:٣٨-٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير:١٥-٢٠][(١)].

٥. أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه، وأراد أن ينبه عباده دائمًا بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها، ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى[(٢)].

قال الإمام ابن القيم: «ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الليل:١-٣].

وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا وجزاؤه في العقبى، فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله؛ إذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس:٣-٤].

وأقسم به وقت سريانه، وأقسم به وقت إدباره وأقسم به إذا عسعس، فقيل: معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٣-٣٤].

وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ذكره وأنثاه.

وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية؛ كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليلٌ على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوِ بين الليل والنهار،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢١.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٢٦١.

والذكر والأنثى»[1].

٦. إن القسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة، وإنما أقسم الله بمخلوقاته؛ لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها؛ ليعتبر الناس بها[2].

٧. إن الله سبحانه أقسم بكثير من مخلوقاته العظيمة، دلالة على عظم مبدعها، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته، ألا يترك عباده سدى عظات بالغة، وآيات ناطقة بوحدانية الله تعالى وعظيم قدرته على تصريفها، وإرسالها نعمة على قوم، ونقمة على آخرين، وجعل فيها الحياة للإنسان والحيوان والنبات، وصنفها وفق حكمته أصنافًا شتى، وجعل لكل صنف منها وظيفة كونية خاصة، فمنها ما يذرو النبات ويحركه؛ لينمو ويزدهر، ومنها ما يحمل السحب المثقلة بالماء، ومنها ما يجري بهذه السحب في يسر وخفة إلى حيث شاء الله جل جلاله، ومنها ما ينزل المطر من هذه السحب بقدر معلوم إلى أماكن محدودة. ومنها... ومنها[3].

٨. إن هذه الأقسام التي أقسم الله بها ما هي إلا دعوة للتأمل والنظر في كل آية من آيات الكون الدالة على خالقها سبحانه وحكمته وقدرته[4]، فمن ذلك أن الله تعالى «أقسم بالشمس: إما على التنبيه منها على الاعتبار المؤدي إلى معرفة الله تعالى، وإما على تقدير ورب الشمس، والضحى: ارتفاع ضوء الشمس وإشراقه، قاله مجاهد»[5].

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ص ٥٥.
(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣٠٣.
(٣) تفسير المراغي ٢٧/ ١٥٠.
(٤) دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣٢٥.
(٥) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٥٩٤.

استدلال القرآن بالآيات الكونية

أولًا: الوحدانية:

استدل القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٣-١٦٤].

فهذه الآيات تدل على أنه واحد عز وجل، فأما آية السماء فمن أعظم الآيات؛ لأنها سقف بغير عمد، والآية في الأرض عظيمة فيما يرى من سهلها وجبلها وبحارها، وما فيها من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد اللاتي لا يمكن أحد أن ينشئ مثلها، وكذلك في تصريف الرياح، وتصريفها أنها تأتي من كل أفق فتكون شمالًا مرة وجنوبًا مرة، ودبورًا مرة وصبًا مرة، وتأتي لواقح للسحاب.

فهذه الأشياء وجميع ما بث الله في الأرض دالة على أنه واحد، كما قال عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره؛ لأنه لا يأتي بمثل هذه الآيات إلا واحد[1].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء:٣٣].

وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ [الحديد:٦] أي: يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا»[2].

وكذلك قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٣٧، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٤٤.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية:٣-٦].

والمعنى: وفي خلق الله إياكم أيها الناس، وخلقه ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حُجَجًا وأدلةً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرون بها، ويعلمون صحتها[(١)].

وفي السماوات والأرض آيات ودلائل كثيرة، منها:

- يدل خلقها على خالق لها؛ لأنه لا يكون بناء بغير بانٍ.
- أنها أعظم الخلق.
- أنها محكمة على اتساق ونظام، وهذا يدل على أن صانعها واحد.
- أنها ممسكة مع عظمها وثقل جرمها بغير عمد.

والآيات والبراهين في خلق الإنسان كثيرة، منها:

- خلق الإنسان على ما هو به من وضع كل شيء في موضعه لما يصلح له، وذلك يقتضي أن الصانع عالم بموضع المصالحة.
- جعل الحواس الخمس على الهيئة التي تصلح لها، كل هذا في تدبير محكم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ ۝٤٤ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٦﴾ [النور:٤٤-٤٦].

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية، وذلك؛ لأنه لما استدل أولًا بأحوال السماء والأرض، وثانيًا بالآثار العلوية، استدل ثالثًا بأحوال الحيوانات»[(٣)].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥ وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٥-٢٧].

فجملة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]، من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث، ومن طرائق الموعظة لتطرية نشاط السامعين لهذه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٩.

(٢) انظر: النكت في القرآن الكريم، القيرواني ص ٤٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٤ / ٤٠٦.

الدلائل الموضحة المبينة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

ففي الآية إلزام للكافرين على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر، وأن لا يعبد معه غيره.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم، وإذا نُبِّهُوا عليه لم يتنبهوا أن الله هو الغني عن حمد الحامدين، المستحق للحمد، وإن لم يحمدوه[2].

قال الإمام الرازي: «الآية متعلقة بما قبلها من وجهين أحدهما: أنه تعالى لما استدل بخلق السماوات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له، وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله؛ لأن خالق السماوات والأرض يحتاج إليه كل ما في السماوات والأرض، وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره، لكنهم لا يعلمون هذا»[3].

وقوله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٧-٤٠].

قال الإمام الرازي: «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي، فإن دلالة المكان والزمان مناسبة؛ لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض؛ لأن كل عرض فهو في زمان، ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

ثم قال بعده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]- حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضًا، لكن المقصود أولًا هناك إثبات الوحدانية، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:٣٧]»[4].

والآيات الكونية التي استدل بها القرآن على وحدانية الله تعالى كثيرة، وإنما يكفي من ذلك التمثيل.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١ / ١١٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣ / ٥٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٥ / ١٢٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦ / ٢٧٥.

ثانيًا: أحقية الله للعبادة:

استدل القرآن الكريم على أحقية الله تعالى للعبادة بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فقد استدل القرآن الكريم على أحقية الله تعالى بالعبادة بآيات كونية، وهي أنه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾.

والمعنى: أن الذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

استدل القرآن بالآيات الكونية وهي خلق الجن والأنس على أحقية الله تعالى للعبادة، والمعنى: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي[2]، «أي: لينقادوا ويخضعوا لي، وانقيادهم وخضوعهم هو استمرارهم على مشيئته وحكمه، وهو معنى خضوع السماوات والأرضين وطواعيتها وانقيادها»[3].

وفي الآية بين تعالى أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

فلما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل، كان المعنى: إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها، فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك، فكل من ورد عرصة القيامة، سألته، هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو تمرد وعصى[4].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١/ ٣٦٢.

(٢) انظر: المصدر السابق٢٢/ ٤٤٤.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني٥/ ٢٦٤.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل١٢/ ٢٢٥.

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر:٦٢-٦٧].

«يقول تعالى ذكره: الله الذي له الألوهة من كل خلقه الذي لا تصلح العبادة إلا له، خالق كل شيء، لا ما لا يقدر على خلق شيء، وهو على كل شيء وكيل، يقول: وهو على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة»[1].

ويخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته، وقوله عز وجل: له مقاليد السماوات والأرض، قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي: له مقاليد السماوات والأرض أي خزائن السماوات والأرض، والمعنى على كلا القولين: أن أَزِمَّة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[2].

ثالثًا: قدرة الله:

ذكر الله تعالى بعض الآيات الكونية؛ كالمطر والسحاب والظلمات والبرق والرعد.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة:١٩-٢٠].

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، مما يدل على أن هذه الآيات دليل على قدرة الله تعالى.

كما استدل القرآن الكريم بآية تقليب الليل والنهار، وآية كل دآبة على كمال قدرته.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ [النور:٤٤-٤٥].

وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى آية كونية، وهي آية المطر للاستدلال على قدرته سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الروم:٥٠].

والمعنى: أي: انظروا نظر استبصار واستدلال، واستدلوا بذلك على أن من قدر على ذلك قادرٌ على إحياء الموتى[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/

وقوله عز وجل: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء:٩٨] بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خَلْقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا»(١).

رابعًا: البعث:

ذكر القرآن الكريم الآيات الكونية في معرض الاستدلال على البعث والحشر إلى الله تعالى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٥-٢٨].

فقد ذكر القرآن من الآيات الكونية السماوات والأرض والشجر والأقلام وجعلها دليلًا على أن الخلق والبعث ما هو إلا كنفس واحدة.

وذكر الإمام الرازي: «من الدلائل الدالة على إمكان الحشر: الاستدلال باقتداره على السماوات على اقتداره على الحشر، وذلك في آيات، منها في سورة سبحان: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

وقال في يس: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١].

وقال في الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

ومنها في سورة ق: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

٤٥.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٢.

رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞ تَبۡصِرَةٗ
وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۞ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞
وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ
وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۞ كَذَّبَتۡ
قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٞ
وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۞ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ
كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۞ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ
بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞﴾ [ق:٣-١٥].

فهذه الآيات الكونية المذكورة في هذه الآيات أقامها القرآن الكريم دليلًا على البعث والحشر، وعرض هذه الآيات الكونية العظيمة في أسلوب الاستفهام التقريري، الذي يقرر حقيقة البعث والنشور، وفيها إشارة إلى أن الذي خلق هذه الآيات الكونية العظيمة هو الذي يبعث الخلق ويحشرهم إليه.

خامسًا: صدق القرآن:

استدل القرآن الكريم على صدق القرآن الكريم بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ
لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَمۡ يَقُولُونَ
ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم
مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۞ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي
سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ
مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ
مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۞ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ ٱلَّذِيٓ
أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ
۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۞
ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ
۞﴾ [السجدة:١-٩].

فقد ذكر الله تعالى الآيات الكونية في خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وآية خلق الإنسان من طين، وغيرها من الآيات الكونية في معرض الاستدلال على صدق القرآن الكريم، ووجه الاستدلال بهذه الآيات الكونية: أنها سيقت في معرض الإثبات لصدق القرآن وأنه ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه ولا مرية، وأنه منزل من رب العالمين.

ثم قال تعالى مخبرًا عن المشركين ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق[1].

والمعنى: بل هو الحق والصدق من عند ربك أنزله إليك، لتنذر قومك بأس الله وسطوته أن تحل بهم على كفرهم به،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٠.

وإنه لم يأتهم نذير من قبلك، ليبين لهم سبيل الرشاد، وأن محمدًا لم يختلقه كما يزعمون[1].

وقد ذكر الله تعالى الآيات الكونية دليلًا على صدق القرآن.

قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ [التكوير: ١-١١].

فقد أخبر الله تعالى عن مصير الآيات الكونية في الآخرة، فقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: إذا كورت الشمس، وأمحي ضوؤها، وسقطت حين خراب العالم الذي يعيش فيه الحي في حياته الدنيا، ولا يبقى في عالمه الآخر الذي ينقلب إليه شيءٌ من هذه الأجرام.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: وإذا النجوم تناثرت وذهب لألاؤها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: وإذا الجبال قلعت عن الأرض، وسيرت في الهواء حين زلزلة الأرض، فتقطع أوصالها وتقذف في الفضاء، وتمر على الرؤوس مر السحاب.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: وإذا النوق العشار -وهي أكرم الأموال لديهم، وأعزها عندهم- أُهمِلَت، ولم يعن بشأنها؛ لاشتداد الخطب، وفداحة الهول.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: ماتت وهلكت، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجدب: حشرتهم السنة. أي: أهلكتهم، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: فجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحرًا واحدًا، وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارًا. فإن ما في باطن الأرض من النار يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، وحينئذ يصير الماء بخارًا، ولا يبقى إلا النار[2].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة[3].

وهذا الإخبار عن مصير الآيات الكونية في يوم القيامة كتوطئة للقسم بالآيات الكونية في الحياة الدنيا على صدق القرآن.

قال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ [التكوير: ١٥- ١٩].

ومعنى: الخنس والكنس في النجوم أنها تطلع جارية، وكذلك تخنس، أي: تغيب،

(١) تفسير المراغي ٢١/ ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ٥٤.

(٣) المصدر السابق ٣٠/ ٥٥.

وكذلك تكنس تدخل في كناسها، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها، فهما بمعنى واحد.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يقال: عسعس الليل، إذا أقبل، وعسعس، إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا امتد حتى يصير نهارًا بينًا.

وجواب القسم بالآيات الكونية المذكورة في الآيات هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام[(١)].

قال الإمام القرطبي: «﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ هي الكواكب الخمسة الدراري: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة، فيما ذكر أهل التفسير، والله أعلم، وهو مروي عن علي رضي الله عنه، وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان: أحدهما: لأنها تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني، الثاني: لأنها تقطع المجرة، قاله ابن عباس»[(٢)].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

ومواقع النجوم فيها أقوال:

الأول: المشارق والمغارب أو المغارب وحدها، فإن عندها سقوط النجوم.

الثاني: هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها.

الثالث: مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة.

الرابع: مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم.

وأما مواقع نجوم القرآن، فهي قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحي المؤمنين، أو معانيها وأحكامها التي وردت فيها[(٣)].

ومواقع النجوم آية كونية علمية تؤكد صدق القرآن، وقد ذكر الله تعالى أن هذا القسم الذي أقسم به قسم عظيم لو تفكرون في مدلوله فإنه عظيم الخطر بعيد الأثر.

وهذا القسم للإشادة بشأن القرآن، وأنه كثير المنافع وأنه محفوظ في لوح مصون لا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة[(٤)].

ومن الآيات الكونية التي يستدل بها على صدق القرآن، قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٣٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٦.
(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٦٢.

اختلف المفسرون في بيان معنى هذه الآية على أقوال كثيرة، وحاول كل مفسر أن يفسر الآية بما يتفق مع فهمه والواقع الذي يمكن أن تتنزل عليه الآية[1]، وأحسن مَنْ بَيَنَ معنى الآية بحيث تكون شاملة وعامة، وتتناول المعنى الذي يعتبر راجحًا هو الإمام الرازي حيث قال: «وفي تفسير قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] قولان:

الأول: أن المراد بآيات الآفاق: الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإضلال والظلمات... وقد أكثر الله منها في القرآن.

وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

يعني: نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد.

فإن قيل: هذا الوجه ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن، وسيطلعهم عليها بعد ذلك، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك. فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه.

قلنا: إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء، إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانًا فزمانًا، ومثاله: كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة، وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها، فكلما ازداد وقوفًا على تلك العجائب والغرائب، فصح بهذا الطريق قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة، وبآيات أنفسهم فتح مكة.

والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الأول؛ لأجل أن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يليق بهذا الوجه، ولا يليق بالأول، إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لائقٌ بالوجه الأول، كما قررناه.

فإن قيل: حمل الآية على هذا الوجه

---

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٦١.

بعيد؛ لأن أقصى ما في الباب أن محمدًا صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة، ثم استولى على مكة، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقًا، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم، وذلك لا يدل على كونهم محقين.

ولهذا السبب قلنا: إن حمل الآية على الوجه الأول أولى، ثم نقول: إن أردنا تصحيح هذا الوجه، قلنا: إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقًا في ادعاء النبوة، بل نستدل به من حيث إنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولي عليها، ويقهر أهلها، ويصير أصحابه قاهرين للأعداء، فهذا إخبارٌ عن الغيب، وقد وقع مُخْبَرُه مطابقًا لخبره، فيكون هذا إخبارًا صدقًا عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجزة، فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقًا»[1].

أي: أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لعباده بعضًا من آياته؛ ليتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق.وكيف يتبين لهم أنه الحق؟ ذلك أن حقائق الكون التي سيصلون إليها بعد مئات السنين، أو آلاف السنين بنشاطات الذهن، سيجدون القرآن قد أشار إليها، وحينئذ يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق؛ لأن الذي قال هو الله، والذي خلق هو الله[2].

وتدل الدلائل على أن العلماء الذين درسوا الآيات الكونية في القرآن فيما بعد، وطبقوها على ما وصل إليه العلم في زمانهم؛ في الفلك، أو الطب، أو الطبيعة، أو الكيمياء، أو الأحياء، وغيرها من العلوم، وجدوا تطابقًا وتوافقًا علميًا رائعًا، أكد لهم أن القرآن كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لذلك كان علماء الفلك وعلماء الطب أكثر الناس إيمانًا بعظمة الخالق المبدع، وأسبقهم إقرارًا بألوهيته؛ لما رأوه رأى العين من أن القرآن الكريم الذي نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، كان هو نهاية العلم الذي يصلون إليه، كلما جَدَ جديدٌ في بحثهم، وهذا هو العلم الذي جاء به النبي الأمي محمد، الذي لم يكن هو ولا قومه ولا عصره يعرف شيئًا من فلك، أو جيولوجيا، أو كيمياء، أو طب، أو غير ذلك[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٧٣

(٢) انظر: معجزة القرآن، الشعراوي ص ٤٢.

(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٥٤.

أساليب القرآن في الحث على التفكر

أولًا: الأمر الصريح:

من أساليب القرآن في الحث على التفكر في الكون الأمر الصريح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١].

قال الإمام أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السماوات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات»(١).

وهذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك(٢).

أي: انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السماوات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقًا مدبرًا سبحانه(٣).

قال الإمام الرازي: «والدلائل إما أن تكون من عالم السماوات أو من عالم الأرض، فالدلائل السماوية هي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد، والدلائل الأرضية هي: النظر في أحوال العناصر العلوية، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة، ثم ينقسم كل واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها. ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة، لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) جامع البيان ١٥/ ٢١٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٤٥.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٣.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها، وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بَيَنَ بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال»[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠].

«يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيَّارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: (كن) فيكون»[2].

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرًا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جَالَ نظر فكره في تكوينها بعد العدم، جولانًا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله، اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبًا عن بصره، جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة.

وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل، فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادرٌ على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادرٌ على إعادتها بعد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، مفاتيح الغيب١٧/ ٣٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٤٤.

عدمها[1].

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «وها هو القرآن يدعونا إلى التفكر في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية وتكونت عليها القارات والمحيطات، لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التي تراكمت عليها، وفي طياتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التي عاشت عليها، سواء كانت لحيوان أو نبات، وهذه البقايا المتحجرة هي ما نسميه اليوم بالحفريات، وهي في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيرًا من صفحات هذا السجل، ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية»[2].

كما أمر الله تعالى بالسير في الأرض لمعرفة الآيات الكونية التي حلت بالأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١١-١٣].

والمعنى: سيروا في الأرض لتعرفوا أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار[3].

ثانيًا: التعقيب على الآيات الكونية بما يقتضي استنهاض العقول وتوجيه الأفهام:

عقب القرآن الكريم على الآيات الكونية بما يقتضي استنهاض العقول وتوجيه الأفهام نحو النظر والبحث في الآيات الكونية التي ذكرها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس:٥-٦].

ويلاحظ أن الله ختم هذه الآيات الكونية بقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم[4].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.
(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٦٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٢١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٠٢.

وختم الآيات الكونية الثانية بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأدلة وحججًا وأعلامًا واضحة لقوم يتقون الله، فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٩-١٩٠].

وختم هذه الآيات المذكورة بما يستنهض العقول للتفكير فيها بقوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهي العقول، أي: لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته على وحدانيته.

فأعلم تعالى ذكره عباده، بأن الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز، دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٩].

وزاد سبحانه في ختم هذه الآيات على ما ختم به الآيات السابقات بقوله: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾.

يقول تعالى: قد بينا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾، مواقع الحجج ومواضع

(١) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٢٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.

العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

والمعنى: «إن في إنزال الله من السماء الماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من صنوف خلقه لآيات، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان لقوم يؤمنون»[2].

وقوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١١-١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

[النحل: ٦٥-٦٩].

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٧٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ١١/ ٥٨٢.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم:١٩-٢٤].

وفي ختم هذه الآيات الكونية دعوة للتفكير فيها.

قال الإمام ابن جرير في تفسير الآية: «إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لدلالات وحججًا وعظات، لقوم يتفكرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحدثه من غير شيء تبارك وتعالى وأن القدرة التي أبدع بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه وابتداع ما شاء ابتداعه بها»[(١)].

وقال الإمام ابن جرير في قوله تعالى: «﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية:٣-٦].

وختم الله تعالى هذه الآيات بما يستنهض العقول نحو اليقين، والمعنى: إن فى خلق الله إياكم أيها الناس، وخلقه ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حججًا وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرون بها، ويعلمون صحتها[(٣)].

قال الإمام الرازي: «إنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع أولها: يؤمنون، وثانيها: يوقنون، وثالثها: يعقلون، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين، بل أنتم من طلاب الحق واليقين، فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل»[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٣٠، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤.

(٢) جامع البيان١٥/ ١٤٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢٢/ ٥٩.

(٤) مفاتيح الغيب٢٧/ ٦٧١.

وفي الجملة إن الله تعالى ختم هذه الآيات الكونية بما يدعو إلى العلم واليقين، واستخدام العقول والتفكر في هذه الآيات الكونية بما يؤدي إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العبادة له سبحانه.

ثالثًا: النعي على تاركي التفكر في الآيات الكونية:

نعى القرآن الكريم على تاركي التفكر في الآيات الكونية ووصفهم بأنهم فارغو العقول لا يفكرون في ما حولهم، وشنع عليهم تركهم التفكر.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم:٨-١١].

وأمر بالنظر في ملكوت السماء والأرض وبالتفكر فيهما قائلًا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨](1).

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ أي: «أولم يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثًا، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك، أو: أو لم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهرًا وباطنًا، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بد لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، أي: ما خلقها باطلًا وعبثًا من غير حكمة ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٢٥٣.

مسمى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده»[1].

فقد نعاهم وشنع بذكر ووصفهم بأنهم مكذبون وكافرون بهذه الآيات ووبخهم وتهكم عليهم.

فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٢][2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

وفي الآية نعي لمن لا يتفكر في الآيات الكونية.

قال أبو جعفر الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السماوات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبرها»[3].

كما نعى الله من لم ينظر في الآيات الكونية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٦-٨].

والمعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، فسويناها سقفًا محفوظًا، وزيناها بالنجوم، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني: وما لها من صدوع وفتوق، قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ والرواسي الجبال ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: أي من كل زوج حسن المنظر وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ يقول: وتذكيرًا من الله عظمته وسلطانه، وتنبيهًا على وحدانيته ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢١ / ٣١.
(٣) جامع البيان ١٦ / ٢٨٥.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣١.

﴿مُنِيبٍ﴾ يقول: لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله، والعمل بطاعته [(١)].

الآيات الكونية في المثل القرآني

ضرب الله تعالى بالآيات الكونية مثلًا للعبرة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:١٧-٢٠].

فالآيات الكونية في الآية هي: النار والظلمات والصيب الذي هو المطر والرعد والبرق والصواعق، وهذا المثل ضربه الله تعالى للمنافقين في تجملهم بظاهر الإسلام وحقنهم دماءهم بما أظهروا، فمثل ما تجملوا به من الإسلام كمثل النار التي يستضيء بها المستوقد، وقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ معناه، إطلاع الله المؤمنين على كفرهم، فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر الله عز وجل من كفرهم، ويجوز أن يكون ذهب الله بنورهم في الآخرة، أي: عذبهم، فلانور لهم؛ لأن الله جل وعز قد جعل للمؤمنين نورًا في الآخرة، وسلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٣٣٢.



الكافرين ذلك النور، والدليل على ذلك قوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد:١٣][1].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارًا، وإظهار الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وهنا شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق[2].

وفي هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين: كل واحد منهما تشبيهٌ قائمٌ بذاته.

أولهما: إنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصبابًا، صحبه غمام بعد غمام، فيه ظلمة بعد ظلمة، وفيه رعد وبرق، وفيه الإنذار بالعذاب الشديد، فهم في خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت.

وفي هذا تصوير لنفس منافقة، فهي نفس تائهة فارغة، دائمًا لا تستقر على أمر، ولا تطمئن على قرار، فهم في اضطراب؛ لأنهم لا يؤمنون بشيء، والإيمان هو المطمئن دائمًا، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به؛ لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، والجحود الموروث، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر، وخوف من غير مخوف، ولذلك يقول بعض علماء النفس: إن النفاق منشؤه ضعف في النفوس[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

[البقرة:٢٦].

قال الإمام الرازي: «ولما كان كل بق وبعوضة داعيًا إلى معرفة الذات والصفات قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦].

ذلك؛ لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله، وبحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٩٣، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٩٣.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٧.
(٣) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٨٦.

الله، وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله، فكأنه تعالى يقول: مثل هذا الشيء كيف يستحيا منه»[1].

ومعنى الآية: إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، فهو لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها.

كما ضرب المثل بالذباب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

وغير ذلك من أمثال الكتاب العزيز[2].

كما ضرب الله تعالى مثلًا بالكلب لمن ترك العمل بكتاب الله وآياته، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧][3].

يقال: لهث الكلب يلهث لهثًا ولهاثًا إذا دلع لسانه، قال مجاهد: هذا مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به، والمعنى: أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب، فإنه إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثًا، وإن ترك وربض كان لاهثًا، وهذا التمثيل لم يقع لكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أحسن ما يكون وأبشعه[4].

قال الإمام الرازي: «واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٣٢٨.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٧٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٧١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٩١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٨.

والدين وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»[1].

وضرب الله مثلًا للحق وأهله والباطل وحزبه بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧].

قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الماء والذهب والفضة والحديد والرصاص والصفر والنحاس، قوله: ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾أي: يبقى ولا يذهب، جعل هذا مثلًا للحق والباطل في القلوب، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع ويهلك، والحق كالماء وكهذه الأشياء يمكث ويبقى في القلوب[2].

هذا مَثَلٌ ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلًا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلى منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باقٍ بقاءً ظاهرًا، يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكتنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يُرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب[3].

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾أي: مطرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرًا من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علمًا كثيرًا، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل.

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٠٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٨٨.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٢٣.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعًا، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه، كذلك يضرب الله الحق والباطل، أي: إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة، ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلًا من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[1].

وضرب الله عز وجل مثلًا للإيمان به بالشجرة الطيبة، وضرب مثلًا للكفر به بالشجرة الخبيثة، والشجرة من الآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٦].

فجعل مثل المؤمن في نطقه بتوحيده والإيمان بنبيه واتباع شريعته، كالشجرة الطيبة، فجعل نفع الإقامة على توحيده كنفع الشجرة الطيبة التي لا ينقطع نفعها وثمرها، وجاء في التفسير أن الشجرة الطيبة النخلة، والدليل على أن هذا المثل يراد به توحيد الله، والإيمان بنبيه وشريعته قوله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧][2].

قال الإمام ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٤.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٦٠.

قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء»(١).

وضرب الله مثلًا لحالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية بقوله تعالى: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال الإمام الماوردي: «قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: معناه الله هادي السماوات والأرض، قاله ابن عباس وأنس.

الثاني: الله مدبر السماوات والأرض، قاله مجاهد.

الثالث: الله ضياء السماوات والأرض، قاله أُبيٌّ.

الرابع: منور السماوات والأرض، فعلى هذا فيما نورهما به ثلاثة أقاويل:

أحدها: الله نور السماوات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء.

الثاني: أنه نور السماوات بالهيبة ونور الأرض بالقدرة.

الثالث: نورهما بشمسها وقمرها ونجومها، قاله الحسن، وأبو العالية.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: مثل نور الله، قاله ابن عباس.

الثاني: مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن شجرة.

الثالث: مثل نور المؤمن، قاله أُبيٌّ.

الرابع: مثل نور القرآن، قاله سفيان.

فمن قال: مثل نور المؤمن، يعني في قلب نفسه، ومن قال: مثل نور محمد، يعني في قلب المؤمن، ومن قال: نور القرآن، يعني في قلب محمد، ومن قال: نور الله، فيه قولان:

أحدهما: في قلب محمد.

الثاني: في قلب المؤمن.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن المشكاة كُوَّة لا منفذ لها والمصباح السراج، قاله كعب الأحبار.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٢.
والآثار أخرجها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٨، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٤١.

الثاني: المشكاة القنديل والمصباح الفتيلة، قاله مجاهد.

الثالث: المشكاة موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب، والمصباح الضوء قاله ابن عباس.

الرابع: المشكاة الحديد الذي به القنديل وهي التي تسمى السلسلة والمصباح هو القنديل، وهذا مروي عن مجاهد أيضًا.

الخامس: أن المشكاة صدر المؤمن والمصباح القرآن الذي فيه والزجاجة قلبه، قاله أُبيٌّ.

والمشكاة لفظ حبشي معرب.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني أن نار المصباح في زجاجة القنديل؛ لأنه فيها أضوأ، وهو قول الأكثرين.

الثاني: أن المصباح القرآن والإيمان، والزجاجة قلب المؤمن، قاله أُبيٌّ.

﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أما الكوكب ففيه قولان:

أحدهما: أنه الزهرة خاصة، قاله الضحاك.

الثاني: أنه أحد الكواكب المضيئة من غير تعيين، وهو قول الأكثرين.

وأما ﴿دُرِّىٌّ﴾ فتأويلها أنه مضيء يشبه الدر لضيائه ونقائه»[1].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «لا خلاف بين المحققين الذين يتزلون التفسير منازله، ويضعون التأويل مواضعه من غير إفراط ولا تفريط، أن هذا مثل ضربه الله لنوره، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلًا تنبيهًا لخلقه إلا ببعض خلقه؛ لأن الخلق بقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده، وأنور المصابيح في الدنيا مصباح يوقد من دهن الزيتون، ولا سيما إذا كانت مفردة قد تباعد عنها الشجر فخلصت من الكل، وأخذتها الشمس من كل جانب، فذلك أصفى لنورها، وأطيب لزيتها، وأنضر لأغصانها، وذلك معنى بركة هذه الشجرة التي فهمها الناس»[2].

وضرب الله مثلًا للذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، بآية كونية هي العنكبوت في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، اتخذت بيتًا لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئا عند حاجتها إليه بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠١.

(٢) أحكام القرآن ٣/ ٤٠٤.



﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم[1].

وذلك أن بيت العنكبوت لا بيت أضعف منه، فيما يتخذه الهوام في البيوت، ولا أقل وقاية منه من حر أو برد، والمعنى: أن أولياءهم لا ينقصونهم، ولا يرزقونهم ولا يدفعون عنهم ضررًا، كما أن بيت العنكبوت غير موق للعنكبوت[2].

كما ضرب الله تعالى مثلًا كونيًا بالجبل في خشوعه لو أنزل عليه القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر:٢١].

قال الإمام ابن جرير: «يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾»[3].

أي: أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صلابته ورزانته، حذرًا من أن لا يؤدي حق الله عز وجل في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون[4].

والآيات الكونية التي ضرب الله تعالى بها المثل كثيرة، وفيما سبق كفاية وغنية.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٨.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٠١.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٦٦.

الإشارات الإعجازية لعلوم الكون في القرآن

تضمن القرآن الكريم إشارات إعجازية لعلوم الكون في علم الفيزياء وعلم الجيولوجيا، وفي علم الكيمياء، وفي علم الأحياء، ويمكن بيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإشارات الإعجازية في الفيزياء:

إن مصطلح الفيزياء مشتق من كلمة إغريقية معناها الأشياء الطبيعية، وعلم الفيزياء أو علم الطبيعة هو: العلم المختص بدراسة المادة والطاقة، وأسباب سلوكها المشاهد وكيفية إنتاج الطاقة، وكيفية التحكم فيها، وكيف يؤثر بعضهما في الآخر على مدى الزمان والمكان[1].

والآيات التي تضمنت إشارات لعلم الفيزياء كثيرة منها:

١. قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥] تشير الآية إلى سرعة الضوء.

ففي سنة ١٦٧٦م قدم الفلكي «أولاس رومر» الدليل على أن سرعة الضوء غير لحظية كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، واستمرت بعده القياسات ثلاثة قرون إلى أن اعتمدت في باريس سنة ١٩٨٣ أثناء انعقاد المؤتمر الدولي للمعايير حيث قدرت سرعة الضوء في الفراغ بـ: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم/ ثانية، هذا ما توصل إليه العلماء في أواخر القرن العشرين، كما ذكرت أيضًا الموسوعة البريطانية.

والقرآن الكريم قد أعطى معادلة دقيقة تؤكد صحة ما وصل إليه المؤتمر الدولي للمعايير في باريس عام ١٩٨٣م.

وصاحب هذا الاكتشاف هو أحد العلماء المسلمين المتخصصين في الفيزياء وهو الدكتور محمد دودح مستشار لدى هيئة الإعجاز العلمي، حيث استنبط من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥] أن الأمر المقصود به في الآية هو الأمر الكوني الفيزيائي في حياتنا الدنيا، وقد قال بهذا أيضًا من قبله بعض المفسرين: فعن قتادة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ﴾ من أيامكم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يقول: مقدار مسيره في ذلك اليوم ألف سنة مما تعدون من أيامكم من أيام الدنيا خمسمائة سنة نزوله، وخمسمائة صعوده فذلك ألف سنة، وعن الضحاك: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: تعرج الملائكة إلى السماء، ثم تنزل في

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، ١٧/ ٦٧٣.

يوم من أيامكم هذه، وهو مسيرة ألف سنة، وعن عكرمة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من أيام الدنيا، وعن ابن عباس في قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، مسيرة ما بين السماء إلى الأرض خمسمائة عام(١).

وأما قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فقد ذكر البغوي والخازن وغيرهم أن: السنة مبنية على سير القمر ومعنى ذلك أن العرب كانت تعتمد في حساب الزمن على الحساب القمري، كما كانوا يعبرون عن المسافة بالزمن؛ كأن يقولوا: مسافة ثلاثة أيام، والقرآن نزل بلغة العرب فقال: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢).

والمعادلة القرآنية = المعادلة العلمية

في يوم كان مقداره (زمن يوم أرضي)

الزمن ألف سنة مما تعدون (بالحساب القمري) = ١٢٠٠٠ دورة قمرية المسافة.

الأمر الكوني = ألف سنة مما تعدون

١٢٠٠٠ دورة قمرية / زمن يوم أرضي

السرعة = المسافة / الزمن.

وجه الإعجاز في الآية القرآنية:

هو أنها اعتبرت الحد الأقصى للسرعة الكونية في الفراغ تعادل دوران القمر حول مداره اثنتي عشرة ألف دورة، ومن ثم استنبط الدكتور محمد دودح المعادلة التي تعطي الرقم الصحيح لحساب سرعة الأمر الإلهي، وقد توصل الدكتور محمد دودح إلى أن الرقم القرآني ينطبق تمامًا مع الرقم الذي أعلنه المؤتمر الدولي للمعايير في باريس سنة ١٩٨٣م وهو ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم/ ثانية(٣).

٢. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

تشير الآية إلى أصل تكوين السماء والأرض، وهي من موضوعات علم الفيزياء.

فقد بين القرآن أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا، وأن الأرض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الأرضية، وكان عليها الماء، ومنه كانت الأحياء التي خلقها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٦٧. وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٥، البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٤٣١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي١/ ١١٦، لباب التأويل، الخازن١/ ٤٥. وانظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٢٠١.

(٣) انظر: بحث الإعجاز الفيزيائي في القرآن الكريم، د. محمد دودح.

﴿فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٢].

والنص الكريم صريح في أن السماوات والأرض كانت كونًا واحدًا، وفصل الله تعالى جزءًا منه وهو الأرض، وكانت فيها هذه الحياة التي يحياها الحيوان والطير في السماء، والسمك في الماء، والزرع في الفيحاء.

وإذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتدأ خلقه بالسديم، وهو يشبه الدخان، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك، وقبل أن يعلموا.

فقال الله تعالى في خلق السماوات والأرض: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩-١٢][1].

ويبين سبحانه أن السماء والأرض كانت دخانًا، وهو السديم الذي يقوله العلماء وقد اجتهد علماء الفلك والطبيعة في وضع نظريات متعددة لكيفية حدوث هذا الانفصال، ومنها نظرية الانفجار العظيم، ولا داعي للخوض في تلك النظريات.

واستطاع علماء الجيولوجيا بوسائلهم المتخصصة أن يعطوا تاريخًا مطلقًا لبدء وجود الأرض بكيانها المستقل عن بقية الأجرام السماوية، وقدروا أنه كان منذ حوالي أربعة آلاف وخمسمائة مليون عام من أعوامنا المعروفة[2].

٣. قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يشير إلى أن الضغط الجوي يقل بالارتفاع عن سطح الأرض.

فقد عكف العلماء على دراسة الهواء وغازاته، ثم حاولوا قياس ارتفاعه ومعرفة مقدار تخلخله واستعانوا أخيرًا بأحدث وسائلهم -الصواريخ- لمعرفة الحقيقة كاملة، ولكن الحقيقة لم تتكشف بكامل صورتها حتى الآن أمام أعينهم، حتى بعد هذه الجهود المتتالية إنهم حاولوا تذليل

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص٣٧١.

(٢) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص٣٠.

الجو وتعبيد مسالكه، فوقفت دونهم صعاب تغلبوا عليها بالعلم، ومن بين الصعاب مسألتان أشار إليهما كتاب الله الأعظم[(١)]:

الأولى: صعود الإنسان في السماء.

الثانية: ما يحدث للإنسان في أثناء هذا الصعود.

ويَصْحَب الصعود في الجو أربع ظواهر:

- قلة الضغط.
- قلة الأوكسجين.
- برودة الجو وتقلب درجة الحرارة.
- انعدام الوزن إذا تغلغل الإنسان في الفضاء.

فكلما ارتفع الإنسان قل الضغط فتخلخل الهواء وهذا يسبب للإنسان ضيقًا في التنفس يمتد كلما زاد الارتفاع، وقد يؤدي نقص الضغط إلى تمدد الغازات في معدة الطيار وأمعائه فيسبب له تقلصات عنيفة.

وهناك أيضًا حدوث انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز إلى أعلى فيضغط على القلب والرئتين مما يسبب الإغماء للطيار أحيانًا، وكذلك يكون الطيار معرضًا لنوبات حادة من السعال؛ لأن الهواء في الارتفاع الشاهق تنقصه الكثافة الكافية لتنظيف قناة التنفس من المواد المهيجة لها، وينتج عن قلة الضغط ظاهرة أخرى، فكلما ارتفع الإنسان إلى أعلى نقص الضغط الجوي، على حين يظل الضغط الداخل للجسم كما هو، فيختل التوازن بين الضغطين:

- الضغط الداخلي للجسم الذي يظل دون تغير.
- الضغط الخارجي للهواء الذي يأخذ في التناقص تدريجيًا.

فإذا وصل الإنسان إلى ارتفاع عظيم لم يصبح في الإمكان حفظ التوازن بين هذين الضغطين، فينبثق الدم من فتحات الأنف والفم وتنفجر طبلة الأذن إلى الخارج، ويصحب ذلك اختناق ثم وفاة أكيدة[(٢)].

٤. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٢].

تقرر هذه الآية الكريمة أن السماوات وما فيها من أجرام حافظة لكيانها ومتماسكة فيما بينها ولا خلل يعتورها ومحفوظة من أن تقع على الأرض، هي كل ما علانا، وهي تبدأ بالغلاف الهوائي الذي يحمى أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء التي لا تستقيم معها الحياة بأي حال، مثل: الشهب، والنيازك، والأشعة الكونية، وفوق الأرض الغلاف الهوائي الذي تحتفظ به الأرض بقوة الجاذبية، ولا سبيل إلى فقده في خضم

(١) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص ١٨٠.

(٢) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص ١٨.

الفضاء المتناهي، وفوق الغلاف الهوائي أجرام السماء على أبعاد مختلفة وتدور دوراتها المنتظمة في أفلاكها منذ أن خلقها الله تعالى.

وقانون الجاذبية توجد في الكون نظم لها قوانين لا تتبدل ولا تتغير منذ الأزل، ومن أول هذه القوانين قانون الجاذبية الذي يعمل على تجميع شتات الأجزاء المادية المتقاربة في أبعاد دقيقه محددة، ولولا قوة هذا القانون لسقطت الكائنات في هاوية الفضاء، ويتركز ثقل الأرض في مركز تكورها، أي: أن الأرض تجذب الأجسام التي عليها نحوه، وقد اكتشف هذا القانون نيوتن العالم الإنجليزي الذي لاحظ يومًا أن تفاحة سقطت من شجرتها على الأرض، فأخذ يفكر في سبب سقوطها إلى أن وصل إلى قانون الجاذبية الذي يثبت أن كل جسم مادي يجذب غيره من الأجسام المادية بقوة تزيد أو تنقص حسب الكتلة والمسافة بينهما، وهذا هو القانون الذي يربط الأجرام السماوية ويحفظ تماسكها وانتظامها في مداراتها[(١)].

٥. قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

وتشير الآية إلى أن المسافات بين النجوم عظيمة، وهي مما يدرسه علم الفيزياء.

يقسم المولى تبارك وتعالى بمواقع النجوم؛ لأن القسم بمواقعها يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدودًا لا يتصورها الخيال، فمثلًا: نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهي: الشمس تبعد عنا بمقدار (٥٠٠) ثانية ضوئية، بينما النجم الذي يليها في القرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريبًا، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة، علمًا بأن سرعة الضوء تساوى(٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية، ثم إن هناك مدلولًا علميًا آخر عن مواقع النجوم، وهي أن موقع الشمس موقع بالغ الدقة في وضعه لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضى؛ لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالى لاحترقت الأرض من شدة حرارتها، ولو تأخرت عن موضعها لبردت الأرض وتجمدت فيها البحار والمحيطات وتصير غير صالحة لحياة البشر عليها[(٢)].

والآيات التي تشير إلى علم الفيزياء كثيرة، وإنما يكفي في ذلك ما يؤدي الغرض.

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٧٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٦٢.

ثانيًا: الإشارات الإعجازية في الجيولوجيا:

الجيولوجيا هو: علم طبقات الأرض، وتكوينها والقوى التي تغيرها، وتحاول الجيولوجيا أن توضح كيف تشكلت الأرض وكيف تتغير، ويقوم العلماء الذين يسمون (الجيولوجيون)، بدراسة الصخور والترب والجبال والأنهار والمحيطات والكهوف، بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى من الأرض[1].

وهناك آيات في كتاب الله تعالى تشير إلى علم الجيولوجيا منها ما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤].

فالآية تشير إلى طبقات القشرة الأرضية، فمن عجائب قدرة الله أن في الأرض قِطَعٌ يجاور بعضها بعضًا، وهي مختلفة التربة؛ بعضها قاحل، وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن في ذلك دلائل واضحة على قدرة الله تعالى لمن له عقل يفكر به[2].

٢. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ:٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر:١٩].

فالآية تشير إلى دراسة الجبال وهي من صميم علم الجيولوجيا، فالجبال أوتاد، وهي رواسي، وهي ضمان لثبات القشرة الأرضية ومنعها من أن تضطرب ويختل توازنها[3].

٣. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦].

والآية تشير إلى كيفية البناء لهذه المجرات، وكيف تتشكل وكيف تزين السماء كما تزين اللآلئ العقد، وتأمل أيضًا ماذا يقول البيان الإلهي مخاطبًا هؤلاء العلماء وغيرهم من غير المؤمنين: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦] حتى الفراغ بين المجرات والذي ظنه العلماء أنه خالٍ

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية ٨/ ٨٨٦.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ١٤٤، القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ١٤.

(٣) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ٧٢.

تمامًا، اتضح حديثًا أنه ممتلئ تمامًا بالمادة المظلمة، وهذا يثبت أن السماء خالية من أية فروج أو شقوق أو فراغ(١).

ثالثًا: الإشارات الإعجازية في الكيمياء:

الكيمياء هي: علم يدرس المواد الطبيعية والاصطناعية لتحديد تراكيبها ومكوناتها والتغيرات التي تحدث عندما تتحد مع بعضها لتشكل مواد أخرى(٢).

وهناك آيات تشير إلى علم الكيمياء منها:

١. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء:٣٠] فالآية من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات(٣).

ويقرر العلم الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي نباتًا كان أو حيوانًا، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه، وتقول الآيات الكريمة في قصة خلق آدم أبي البشر عليه السلام أنه خلق من طين، والطين هو خليط من الماء والتراب، أي: أن الماء عنصر أساسي في تكوين أي شيء حي(٤).

٢. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

اشتملت الآية الكريمة على إشارات إلى علم الكيمياء وكثير من النواحي الطبية التي اكتشفها الطب الحديث والتي تعتبر من معجزات القرآن العلمية، لقد أثبتت جميع المعامل الطبي العالمية أن عسل النحل يشتمل على مواد تعالج الكثير من الأمراض، كما أن له مفعولًا كبيرًا في شفاء الكثير من الأمراض؛ لأنه يقتل الكثير من

(١) انظر بحث: البناء الكوني عبارة قرآنية يرددها علماء الغرب، بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة منشور على الموقع، استحضر في: ٢١/ ٠١/ ٢٠١٥م.

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٠/ ٣٧٨.

(٣) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص ١٧٧.

(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٨٥.

الميكروبات، ثم هو يحتوي على نسبة عظيمة من الفيتامينات والجلوكوز على أنه ضد التسمم الناشئ من أمراض التسمم البولي، والاضطرابات المعدية، والمعوية، وأكبر منشط للكبد، وأن التحليل العلمي للآية الكريمة يقتضي منا أن نتحدث عن مشتملات العسل على الترتيب الآتي:

أولًا: الخمائر.

ثانيًا: الأملاح المعدنية الموجودة في العسل.

ثالثًا: العسل قلوي.

رابعًا: الفيتامينات الموجودة في العسل.

وبتقدم علم الكيمياء أمكن تحليل العسل ومعرفة تركيبه الكيماوي بدقة كبيرة، فالعسل يتكون أساسًا من سكري العنب والفواكه، وعدد كبير من الأملاح المعدنية، والخمائر والفيتامينات، والمركبات النباتية الفعالة ونسبة من الماء.

وجميع السكريات التي تدخل الجسم معقدة التركيب ولا يمكن للجسم أن يستفيد منها إلا بعد تحليلها.. أما عسل النحل فإن الجسم سيفيد منه سريعًا[1].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم:٢٥].

أثبت التحليل العلمي للرطب أنه يحتوي على مادة تخفف ضغط الدم عند السيدات الحوامل، وتؤثر تأثير كبيرًا في مساعدة السيدات الحوامل على سهولة الولادة، وقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف بحثًا علميًا عن الرطب وتأثيره على الحامل أثبت فيه أن التمر يقوي انقباضات عضلات الرحم وخصوصًا في الشهور الأخيرة من الحمل، ويقول الدكتور شرف أنه استرشد في بحثه هذا بالآية القرآنية الكريمة من سورة مريم ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

ويقول أيضًا: إن الرطب له تأثيره الخاص على حركة الأمعاء، على أن الرطب يعادل اللحم في قيمته الغذائية ويتفوق عليه بما يعطيه من سعرات حرارية ومواد معدنية وسكرية، بالإضافة إلى أنه غني بالكلسيوم والفسفور والحديد ويحتوي على غالبية الفيتامينات الهامة، كما أنه يفيد في وقاية الجسم، وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر والأمراض الجلدية والأنيميا ولين العظام[2].

(١) انظر: حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، محمد المهدي محمود ص٢٩.

(٢) انظر: حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، محمد المهدي محمود ص ٣٥.

رابعًا: الإشارات الإعجازية في الأحياء:

علم الأحياء هو: علم طبيعي يعنى بدراسة الحياة والكائنات الحية والنباتات، بما في ذلك هياكلها ووظائفها ونموها وتطورها وتوزيعها وتصنيفها، والأحياء الحديثة هي ميدانٌ واسعٌ يتألف من العديد من الفروع والتخصصات الفرعية، لكنها تتضمن بعض المفاهيم العامة الموحدة التي تربط بين فروعها المختلفة وتسير عليها جميع الدراسات والبحوث، ينظر إلى الخلية في علم الأحياء عمومًا باعتبارها وحدة الحياة الأساسية، والجين باعتباره وحدة التوريث الأساسية، والتطور باعتباره المحرك الذي يوجد الأنواع الجديدة(١).

١. من الآيات التي تشير إلى هذا العلم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج: ٥].

وفي هذه الآيات الكريمات بين سبحانه وتعالى كيف ابتدأ خلق الإنسان من طين، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل إلى القبر، ثم كيف خلق الأحياء في الأرض من نبات وحيوان، واهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وأن كل ذلك دليل على قدرة المنشئ علام الغيوب، بديع السماوات والأرض، وأنه على ما يشاء قدير.

٢. وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾ [الطارق: ٥-٨].

ظهر من الدراسات الطبية الحديثة أن الصلب هو منطقة العمود الفقري للرجل وأن الترائب هي عظام الصدر للمرأة، كما أظهرت للتحاليل الكيمائية أن الماء الدافق هو سائل الرجل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات الحية في النطفة، وقد سمي دافقًا؛ لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحده دون الأنثى التي لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلي وترطيبه(٢).

٣. وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ

(١) انظر: علم الأحياء من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، استحضر في: ٢١/ ٠١/ ٢٠١٥م.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٩٤.

﴿وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان:١٠].

وقد دل علم الأحياء على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى، سواء في الحيوان والنبات، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات، ويتم التلقيح إما بالريح أو الطير، وسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وخلق الأزواج ظاهرة مطردة في الأحياء كلها، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما.. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٦].

فنعم الخالق العظيم الذي خلق الأزواج من كل شيء.. من أنفسنا كبشر، ومن الحيوان والطير والنبات.. ومن الأشياء التي تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب ومن الذرات التي لا نراها بالعين المجردة.. وإنها لوحدة تشي بوحدة اليد المبدعة، التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله، وقد أصبح معلومًا أن الهواء مكون من التزاوج بين الأكسجين وأكسيد الكربون، وأن الماء مكون من التزاوج من الهيدروجين والأكسجين.. وأن دم الإنسان يكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض.. وأن الذرة أصغر ما عرف من أجزاء المادة مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي: سالب وموجب، يتزاوجان ويتحدان.. كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية، تتألف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة[(١)].

٤. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

النبات طعام البشر وطعام الأنعام، فالنبات طعام للبشر بصورة مباشرة، وبصورة غير مباشرة حينما يأكل ما أحل الله له من حيوان البر وحيوان البحر.

جعل الله في النبات جمالًا وبهجة يشعر بها البشر، وجعلها الله زخرفًا وزينة، قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

(١) انظر: مملكة النبات، حامد قنيبي ص ١١٦.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق:٧].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس:٢٤][(١)].

فالآيات السابقة بيان لقدرة الله وعظمته في الإبانة عن منشأ النبات وتعدده، والارتباط الوثيق بين الحيوان والنبات؛ فالكائن الحي لا يتغذى إلا من أصله الذي تكون منه؛ ولذا أمر الإنسان أن يتدبر قصة طعامه، الذي هو ألصق شيء به، وسيجد أنه من الطين والماء.

إن الله صب الماء من السماء صبًا، ثم شق الأرض بجذر النبات، شقه شقًا فأنبت فيها حبًا وعنبًا وقضبًا.

وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة، وفي أي درجة كان من درجات المعرفة والتجربة، والله الذي لا شريك له هو الذي صب الماء، وهو الذي قدر أن يكون الماء العامل الأول في خلق كل نبات، ولنا عود لهذا الموضوع بعد قليل.

ثم تأتي المرحلة التالية لصب الماء، وهي شق الأرض شقًا بجذر النبات؛ لتتكون الجذور الممتدة خلال التربة، أو أن يشق النبت تربة الأرض شقًا بقدرة الله الخالق، وينمو على وجهها، ويمتد في الهواء فوقها، وربما شقت النبتة الصفراء الملتوية الهشة الأرض الصلبة الجافة، أو الصخرة العاتية نافذة إلى أعلى مكونة الساق والأوراق.

إذن على الإنسان أن ينظر إلى طعامه الذي به قوامه، كيف تفضل الله به عليه؛ فصار في أشد الحاجة إليه، وكيف حول الله له بعض عناصر الأرض طعامًا هنيئًا في شكل جميل ولون جذاب، وطعم مستساغ حلو المذاق.

وجعل الله هذا الأصل الواحد أزواجًا وأشكالًا، من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول وغيرها من البقول، أو هو فاكهة لذيذة كالعنب والنخيل، وغير هذا كثير مما يؤكل قضبًا؛ كالقثاء والتفاح، وهذه الحدائق الفيح الملتفة الأغصان، وهذه السهول الخضر.. كلها متاع للإنسان والأنعام[(٢)].

(١) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ١٥٦.

(٢) انظر: مملكة النبات، حامد قنيبي ص ١٠٩.

ضوابط التفسير العلمي للآيات المتعلقة بالكون

قبل بيان ضوابط التفسير العلمي للآيات الكونية يستحسن بيان معنى التفسير العلمي، فهو كما عرفه الدكتور فهد الرومي بأنه: «اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن»[(١)].

وعرفه الشيخ عبد المجيد الزنداني بأنه: «الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية»[(٢)].

وقد انقسم المفسرون في حكم التفسير العلمي للآيات الكونية إلى ثلاثة أقوال:

١. المؤيدون للتفسير العلمي.
٢. المعارضون.
٣. المعتدلون.

وهذا الرأي الثالث هو الرأي المختار.

فلا رفض مطلق ولا قبول مطلق بل وسط بين طرفين وجمع بين حقيقتين حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

وقد وضع العلماء القائلون بالتفسير العلمي ضوابطًا للتفسير العلمي وهي:

١. ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز، وذلك حتى لا يكون التفسير أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير.
٢. أن تذكر تلك العلوم؛ لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.
٣. أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية، ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله للناس.
٤. أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني؛ ذلك أن تفسير النص القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان[(٣)].

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي ٢/ ٥٤٩.

(٢) انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني وآخرون ص٣٣.

(٣) انظر: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي

٥. أن يلاحظ في امتزاج التفسير بتلك العلوم ما يلائم العصر ويلائم الوسائط؛ لأن تلك الأبحاث العلمية والأدبية قد تكون مفيدة إذا شرح بها القرآن في عصور الثقافة أو لجمهور من المثقفين بعلوم الكون والمادة.

٦. ينبغي «ألا نقطع برأي في تفاصيل ما يعرض له القرآن من الكونيات إلا إن كان لنا عليه دليل وبرهان لا شك فيه ولا نكران وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ونكل علمها إلى العالم الخبير قائلين ما قالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم ما لم يكونوا يحتسبون: ﴿ قَالُوا۟ سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ ﴾ [البقرة:٢:٣٢]»[1].

٧. ألا تفسر آية كونية في القرآن إلا من طريقين:

الطريق الأول: المتخصصون في الدراسات الطبيعية (الكونية).

الطريق الثاني: المتخصصون في الدراسات التفسيرية.

وذلك من خلال هيئة علمية يجتمع فيها الفريقان بحيث يضع الطبيعيون الحقائق العلمية التي توصل إليها العلم الحديث، ومن ثم يضع المفسرون التفسير الذي يتوافق مع القرآن الكريم، مع اعتبار الضوابط الأخرى المذكورة سابقًا، إلا إذا كان العالم بالعلوم الكونية ممن يجمع بين علوم القرآن وعلوم الكون فيمكنه تفسير الآيات إذا كان أهلًا لذلك.

٨. ألا تفسر الآيات الكونية إلا بيقينيات العلم والحقائق الثابتة دون النظريات والفروض[2] التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن؛ لأنها عرضة للتصحيح والتعديل إن لم تكن للإبطال في أي وقت[3].

٩. ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية، فلا بد من أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.

١٠. البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.

١١. أن لا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قبل

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٥٧ ص ٢٩٧.

(٢) انظر: التفسير العلمي للآيات الكونية، بكر زكي عوض ص ٣٦.

(٣) انظر: خلاصة بحث التفسير العلمي للقرآن بين المجيزين والمانعين، محمد الأمين ولد الشيخ، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وما عارضها رُفِض.

وقد اهتم علماء المسلمين بهذا الجانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، وأن جهودًا كبيرة قد بذلت في هذا المجال، ولعل من أبرز ما تمخضت عنه هذه الجهود: إنشاء هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في إطار رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تلك الهيئة التي حددت أهداف نشاطها فيما يلي:

أولًا: وضع القواعد والمناهج، وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

ثانيًا: إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

ثالثًا: صبغ العلوم الكونية بالصبغة الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.

رابعًا: الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكاليف.

خامسًا: إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم: أفرادًا ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كلٌّ في مجاله.

سادسًا: نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة، واللغات الحية في العالم، وكان من إصدارتها من الكتب في هذا المجال ما يأتي:

١. علم الأجنة في ضوء الكتاب والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني، وآخرين (مطبوع).
٢. المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم للشيخ عبد المجيد الزنداني (مطبوع).
٣. تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني (مطبوع).
٤. من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل. د. عبد المنعم الحفني.
٥. إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين.
٦. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الارتفاعات العالية والإحساس بالألم للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين.
٧. الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم. د. صادق الهلالي ود. حسين الليبيدي.
٨. من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن

الكريم في عالم النبات. د. قطب فرغلي ود. السيد زيدان.

٩. من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين، إلى غير ذلك من الكتب، والأشرطة المرئية[١].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الرياح، السحاب، السماء، الشمس، الظل، القمر، الليل، النهار

(١) انظر: من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات، قطب فرغلي والسيد زيدان ص ٤٦-٤٧، عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم/ محمد السيد جبريل ص ٦٤.







عناصر الموضوع

مفهوم الابتلاء	١٣٦
الابتلاء في الاستعمال القرآني	١٣٧
الألفاظ ذات الصلة	١٣٨
الفرق بين الابتلاء والعقوبة	١٤٠
الابتلاء سنة إلهية	١٤٣
أنواع الابتلاء	١٤٥
الابتلاء في الدعوة إلى الله	١٥٠
الحكمة من الابتلاء	١٥٣
المعينات على اجتياز الابتلاء	١٥٦



مفهوم الابتلاء

أولًا: المعنى اللغوي:

«الباء واللام والواو والياء، أصلان: أحدهما: إخلاق الشيء، والثاني: نوع من الاختبار، ويحمل عليه الإخبار أيضًا، قال ابن الأعرابي: يقال ابتليته فأبلاني، أي: استخبرته فأخبرني»(١).

«وأبلى في الحرب بلاء حسنًا إذا أظهر بأسه حتى بلاه الناس وخبروه»(٢).

قال ابن منظور: «بلوت الرجل بلوًا وبلاءً، وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جربه واختبره، وابتلاه الله: امتحنه... وبلي بالشيء بلاءً وابتلي، والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا»(٣).

فالبلاء والابتلاء، والفتنة، والامتحان، والاختبار خمسة ألفاظ مختلفة تشترك في الدلالة على معنى واحد هو الاختبار.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ولذا قال الشوكاني: الابتلاء: «الامتحان والاختبار، أي: ابتلاه بما أمره به»(٤).

وقال الزحيلي: «الابتلاء هو الاختبار، أي: معرفة حال المختبر بتكليفه بأمور يشق عليه فعلها أو تركها؛ ليجازيه عليها»(٥).

وقال الكفوي: «الابتلاء: التكليف في الأمر الشاق، ويكون في الخير والشر معًا، ولكنهم عادة ما يقولون: في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاءً»(٦).

وقال المناوي: «البلاء كالبلية: الامتحان، وسمي الغم بلاء؛ لأنه يبلي الجسد»(٧).

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٩٢.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٧٧.
(٣) لسان العرب ١٤/ ٨٣.
(٤) فتح القدير ١/ ١٥٠.
(٥) التفسير المنير ١/ ٣٠٢.
(٦) الكليات ١/ ٢٩.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٨٢.

الابتلاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بلو) في القرآن (٣٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[القلم:١٧]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الأنعام:١٦٥]
فعل الأمر	١	﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[النساء:٦]
اسم	٦	﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[الصافات:١٠٦]
اسم فاعل	٢	﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾[المؤمنون:٣٠]

ولم يختلف معنى (الابتلاء) في القرآن الكريم عن معناه اللغوي الذي يدور حول الاختبار والامتحان.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٥-١٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفتنة:

الفتنة لغةً:

قال ابن فارس: «الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار. من ذلك الفتنة. يقال: فتنت أفتن فتنا. وفتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته»[(١)].

الفتنة اصطلاحًا:

«أصل الفتنة الامتحان والاختبار، واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»[(٢)].

الصلة بين الابتلاء والفتنة:

مما سبق يتضح لنا الصلة بين الابتلاء والفتنة؛ فالكلمتان تكادان أن تكونا مترادفتين، فأصلهما اللغوي واحد وهو الامتحان والاختبار، إلا أن الفتنة أعم من الابتلاء.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[(٣)]، وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[(٤)].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه ينزل بالإنسان[(٥)].

الصلة بين الابتلاء والمصيبة:

المصيبة هي أداة من أدوات الابتلاء.

٣ الاختبار:

الاختبار لغةً:

قال الجوهري: «خبره -بالكسر-: إذا بلوته واختبرته»[(٦)]، «وقد اختبره وتخبره. يقال: من

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٤٧٢.
(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١١/ ١٧٦.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢١٥.
(٦) الصحاح ٢/ ٦٤٢.



أين خبرت هذا الأمر؟ أي: من أين علمت»[١].

الاختبار اصطلاحًا:

ويمكن تعريف الاختبار بأنه: أي محك أو عملية يمكن استخدامها بهدف تحديد حقائق معينة أو تحديد معايير الصواب أو الدقة أو الصحة سواء في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لفرض معلق لم يتم التثبت منه بعد.

الصلة بين الابتلاء والاختبار:

الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك[٢]، والاختبار أصل من أصول الابتلاء ومحك من محكاته، فالابتلاء والاختبار قد يكونان بالخير وقد يكونان في الشر.

٤ التمحيص:

التمحيص لغةً:

الميم والحاء والصاد: أصل واحد صحيح يدل على تخليص شيء وتنقيته. ومحصه تمحيصًا: خلصه من كل عيب، محص الله العبد من الذنب: طهره منه ونقاه، ومحصت الذهب بالنار: خلصته من الشوب[٣]، والتمحيص: الابتلاء والاختبار[٤].

التمحيص اصطلاحًا:

قال مجاهد: «هو بمعنى: الابتلاء، وحقيقة معنى التمحيص: التطهير من الذنوب، تقول العرب: محص عنا ذنوبنا، أي: طهرنا من الذنوب»[٥].

التمحيص: التنقية والتخليص من العيوب[٦].

الصلة بين الابتلاء والتمحيص:

الابتلاء يقتضي امتحان واختبار ينتهي بنتائج سلبية أو إيجابية، والتمحيص تطهيرٌ، أي: إن نتيجته إيجابية دائمًا.

(١) تاج العروس، الزبيدي ١١/ ١٢٥.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢١٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٠.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٥٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٦٢.
(٦) التحرير والتنوير ٤/ ١٠٤.

الفرق بين الابتلاء والعقوبة

قد يختلط الأمر في التفريق بين العقوبة والابتلاء؛ والناظر إلى آيات الذكر الحكيم يقف على الفرق بينهما؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال الواحدي: «فمن صبر على هذه الأشياء استحق الثواب ومن لم يصبر لم يستحق»[(١)].

فقد جعل للنجاح في الابتلاء علامة، ألا وهي الصبر والإيمان والاستقامة على المنهج السليم، واشتداد البلاء دليل على شدة الإيمان وقوته، لذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاءً؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة)[(٢)].

أما العقوبة فسبب وقوعها الذنوب والمعاصي والانحراف عن المنهج، وكلما زادت الذنوب والمعاصي، وكبر حجم الانحراف، اشتدت العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقد يظن العبد أن ابتلاء الله له بالإنعام والإكرام علامةٌ على حب الله له ورضاه عنه، بينما يظن التضييق في الرزق إشارة إلى غضب الله وعدم رضاه عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال السمعاني: «أي: أنا كريم عليه حيث أعطاني هذه النعم»[(٣)].

وهذا مفهوم خاطئ؛ فالرضا والغضب منوطان بتصرف الإنسان حال الابتلاء.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

واجتياز الابتلاء بنجاح هو طريق للإمامة والتمكين، بينما الفشل فيه فعقوبته الحرمان

(١) الوجيز، ص ١٤٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٧٨.
قال محقق المسند: «إسناده حسن».
(٣) تفسير القرآن ٦/ ٢٢١.

من ذلك.

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فإبراهيم عليه السلام جعل للناس إمامًا؛ لأنه نجح في كل ما ابتلي به وامتحن، بينما الذين يفشلون في ذلك يحرمون هذه الإمامة، ولا ينالون ذلك العهد.

قال الزحيلي: «فجازاه الله تعالى أحسن الجزاء، وقال له: إني جاعلك للناس رسولًا وإمامًا تؤمهم في دينهم، ويأتمون بك في هذه الخصال»[(١)].

والبلاء والابتلاء كلاهما امتحان واختبار، ويكونان بالسراء والضراء، ويقعان شرعًا وقدرًا، فالتكاليف الشرعية فعلًا كانت أو تركًا، وكذلك مقادير الخير والشر، كل ذلك مما يمتحن به العبد، وإن كان استعمال الابتلاء في الشر والضر والأمور الشاقة أغلب.

قال الخازن: «الابتلاء يكون في الخير وفي الشر، وإذا أطلق كان في الشر غالبًا، فإذا أريد به الخير قيد به»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «لما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء، كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر؛ لأنه أكثر إعناتًا للنفس»[(٣)].

معالم العقوبة:

المعلم الأول: لا عقوبة من الله عز وجل إلا بذنب.

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

المعلم الثاني: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث الصورة:

القسم الأول: عقوبة ظاهرة حسية، وهي ما كانت في قالب ضراء.

القسم الثاني: عقوبة خفية معنوية، وهي ما كانت في قالب سراء في الحال، وإن كان مآلها الضراء لا محالة باعتبار العاقبة، فكما أن العقوبة الظاهرة تكون بالضراء، فقد تكون بقالب سراء، ومن ذلك عقوبة المعرض عن ربه بإقبال الدنيا عليه؛ استدراجًا له وعقوبته بوحشة في قلبه حين يذنب، وعقوبته بإتباع السيئة بسيئة أخرى.

المعلم الثالث: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث المقاصد:

القسم الأول: عقوبة مخففة، وتسمى الكفارة، وهي العقوبة الناتجة عن محبة الله للعبد وإحسانه إليه من حيث العاقبة، وذلك كالعقوبات التي تكون كفارة للمؤمن كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:

(١) التفسير المنير ١/ ٣٠٣.
(٢) لباب التأويل ٢/ ٤١٨.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٣.

١٢٣].

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والمقصود بالمصيبة هنا هي المصائب الجارية مجرى العقوبة والجزاء على الذنب لا مطلق المصيبة، ومن العقوبة المخففة: العقوبة التي يراد منها التنبيه والتذكير لعل المسيء يتوب، وهذه عامة للمسلم بإطلاق ولغير المسلم في الحياة الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

القسم الثاني: العقوبة المغلظة، وهذه تكون ناتجة عن غضب الله تعالى على عبده ومقته وبغضه له، وهذه تكون لإتلاف العبد ومحقه وقطع دابره وهذه للكفار والمنافقين والمشركين[(١)].

وخلاصة الفرق بين الابتلاء والعقوبة كما جاء في فقه الابتلاء:

١. من حيث زمن الوقوع، فإن الابتلاء يكون في الدنيا، وأما العقاب فإنه يكون في الدنيا والبرزخ والآخرة.

٢. من حيث السبب والباعث، فإن الابتلاء يكون لاختبار حال الإنسان، كما في قوله سبحانه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢].

٣. أو يكون تكفير السيئات، أما العقاب فلا يكون إلا جزاء على الذنب.

٤. **الابتلاء عام للمكلفين من الجن والإنس**، فهو يقع على الأنبياء والصالحين، كما في الحديث: **(أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)**. أما العقاب فإنه خاص؛ إذ يقع على أهل الذنوب والمعاصي فقط[(٢)].

وقد يقع العقاب على الإنس والجن، والصالحين والعصاة، كما حصل في غزة أحد، وغزوة حنين.

(١) انظر: فقه الابتلاء وأقدار الله المؤلمة، البدراني ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠.

الابتلاء سنة إلهية

الابتلاء سنة إلهية لا بد منها، والله عز وجل يكشف الحقائق عبر هذه الابتلاءات.

فالابتلاء يكون من الله وحده لعباده المؤمنين، تمحيصًا لإيمانهم، واختبارًا لقدرتهم على الثبات على هذا الدين الحنيف.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:٢-٣].

قال المراغي: «ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ»[(١)].

وهذه السنة الإلهية لا ينجو منها أحد، بل ربما زاد بعض البشر على بعض في البلاء، إذ يرتبط الابتلاء بقيم متعددة؛ كالصبر واليقين والثبات والتفاؤل والتوكل والثقة بالله، لذلك يلحق الإنسان من البلاء بقدر تحمله وتغلل تلك القيم في قلبه.

وهو ما يوحي به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة**)[(٢)].

والابتلاء يكون لاختبار صدق الإيمان، أو للتمييز بين من يثبت، ومن لا يثبت على إيمانه، وقد يكون لزيادة الإيمان.

أولًا: اختبار صدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢].

فلابد من اختبار صدق الإيمان، فليس كل من ادعى الإيمان بلسان، آمن قلبه، فهناك المنافقون الذين يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام.

قال الشنقيطي: «إن الناس لا يتركون دون فتنة، أي: ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا: آمنا فتنوا، أي: امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء»[(٣)].

(١) تفسير المراغي ٢٠/ ١١٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٧٨.
قال محقق المسند: اسناده حسن.

(٣) أضواء البيان ٦/ ١٥٥.

ثانيًا: ابتلاء الثبات على الإيمان:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١].

زلزالٌ لبيان الثبات، أو عدمه.

قال الرازي: «﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي: أزعجوا وحركوا، فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقًّا»[1].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

زلزلوا ليظهر من يثبت، ومن ينقلب على عقبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن عاشور: «استئناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحق»[2].

وهذا كله ابتلاءٌ لاختبار الثبات على الإيمان.

ثالثًا: ابتلاء زيادة الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٦].

وهو بلاء ليس لأي أحد، ومثاله: ابتلاء إبراهيم لمنصب الخلة بذبح ولده.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

قال القاسمي: «إن هذا لهو البلاء المبين، أي: الاختيار البين الذي يتميز ويتفاضل فيه المخلص من غيره. إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحانًا لإبراهيم في صدق الخلة لله، وتضحية أعز عزيز لديه، وأحب محبوب عنده، لأمر ربه تعالى»[3].

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/ ١٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٨٩.

(٣) انظر: محاسن التأويل ٨/ ٢١٩.

أنواع الابتلاء

يبتلي الله العبد بنوعين من الابتلاء: أولاهما: الابتلاء بالخير والشر، وثانيهما: الابتلاء بالأمر والنهي؛ وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: الابتلاء بالخير والشر:

الابتلاء يكون بالخير والشر، بالسراء والضراء، بالسعادة والشقاء، بالراحة والرفاهية والكد والتعب، فيبتلى الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، ولا يكون بالضراء فقط، فلابد أن يكون صابرًا على الضراء، شاكرًا على السراء.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقال أيضًا: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].

الابتلاء بالخير أشد وأثقل من الابتلاء بالشر؛ فالابتلاء بالشر معلوم ومشهور، أما الآخر فلا يظنه كثير من الناس ابتلاء، فهم لا يعلمون أن ما أنعم الله به عليهم من بركة في المال أو الأولاد أو الصحة، وما إلى ذلك من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، إنما هو اختبار وامتحان من الله، فالمنعم جل وعلا يستودع هذه النعم عند أصحابها ليرى كيف يتصرفون فيها، أيتكبرون ويفسدون في الأرض، مثل ما فعل فرعون، أم يبخلون ويمنعون ما أمر الله به، مثل ما فعل قارون، أم يسخرون علمهم الذي أنعم الله به عليهم في الرياء والاستعلاء على الخلق، ولا يتقون الله فيه، مثل ما فعل بلعام بن باعوراء.

يمتحن الله عبده بالمصائب، أو بالخيرات من مال وجمال وقوة وسلطان؛ فإن كان امتحانه بالشر فعليه أن يقابل ذلك بالصبر، وإذا كان ابتلاؤه بالخير فعليه أن يقابل هذا بالشكر. فلقد أقسم سبحانه أنه سيبلو عباده بالمكاره والمصائب؛ ليظهر صبرهم واحتسابهم ورضاهم بما قدره عليهم.

فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وهناك نماذج قرآنية لذلك الابتلاء، منها:

١ . إبراهيم عليه السلام:

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصنامًا تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء:٦٨-٦٩].

وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلي في ولده و فلذة كبده فأمر بذبحه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٦].

فلقد ابتلى الله إبراهيم ابتلاءً شديدًا، أمره بأن يذبح ولده الحبيب، «وكان ذلك الولد عزيزًا على أبيه؛ لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم لأمر ربه»[1].

وقد كان هذا الابتلاء ابتلاءً بالشر والمكروه.

قال القرطبي: «قال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه، قال: وهذا من البلاء المكروه»[2].

٢ . قارون:

وفي هذا النموذج كان الابتلاء بالخير؛ فقد آتى الله قارون المال الكثير امتحانًا وابتلاءً، ولكنه فشل في ذلك الاختبار، فكان من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

لقد نصحه قومه بأن يستعمل المال - الذي ابتلاه الله به - في ما يرضي الله.

قال الزحيلي: «استعمل ما وهبك الله

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٢١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٦.

من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة»[1].

ولكنه فشل في الاختبار، فكانت النتيجة قول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

٣. بنو إسرائيل:

جاء الاختبار الأكبر لبني إسرائيل، وذلك عندما قال لهم موسى: يا قوم، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تراجعوا ولا ترتدوا على أعقابكم فتصبحوا من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١].

فأرسلوا أناسًا منهم ليستطلعوا الأمر، فوجدوا فيها قومًا أقوياء جبارين، فخافوا أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقالوا لموسى: لن ندخل يا موسى حتى يخرجوا منها، فلتذهب أنت مع ربك فقاتلا إننا هنا قاعدون.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

فكان عقابهم أنهم يتيهون في الأرض أربعين سنةً؛ جزاءً وفاقًا[2]؛ فلقد كان ابتلاء بني إسرائيل واختبارهم بأن أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم فشلوا في ذلك الابتلاء والاختبار فكانت العقوبة أن تاهوا أربعين سنة.

٤. أيوب عليه السلام:

لقد ابتلي أيوب عليه السلام بالمكروه ابتلاءً عظيمًا بماله، وأولاده، وجسده، وقد صبر وحمد الله ونجح في الابتلاء، وقد كان ابتلاؤه لرفع درجته عند الله.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

إن قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب.

(١) التفسير المنير ٢٠/ ١٦٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ٨٨.

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبًا معه وتوقيرًا؛ فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع العصور. بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال. وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم، أو أنه وهب له أبناءً وأحفادًا.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء، وإن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار، والإشارة ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها؛ فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان[(١)].

[انظر: الفتنة: الفتن والمحن بالشر والخير]

ثانيًا: الابتلاء بالأمر والنهي:

الابتلاء بالأمر والنهي أمر عظيم؛ إذ به تعرف الأحكام حلالها وحرامها، وقد بدأت كتب الفقه بها.

يقول السرخسي: «فأحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي؛ لأن معظم الابتلاء بهما وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام»[(٢)].

لقد بين الله للناس أن خلقهم وخلق السماوات والارض وخلق الموت والحياة وكل الأمور التي قدرها لهم لابتلائهم أيهم أحسن عملًا.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

يقول الطبري: «ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع»[(٣)].

والابتلاء بالأمر والنهي يسمى الابتلاء التشريعي، حيث يتعلق بأفعال المكلفين من حيث الحلال والحرام، والالتزام بما أمر الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٢.
(٢) أصول السرخسي ١/ ١١.
(٣) جامع البيان ٢٣/ ٥٠٥.

من عدمه؛ وذلك مثل ابتلاء الله لإبراهيم عليه السلام بالإمامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلائه بذبح ابنه، ولما استجاب لأمر ربه، وتهيأ لتنفيذ الذبح، سمى الله ذلك التكليف البلاء المبين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٦].

ومن الابتلاء بالتكليف ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال الطبري: «كان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك»[(١)].

قال ابن كثير: «واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة»[(٢)].

وقال أيضًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

قال القشيري: «يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود، وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف»[(٣)].

ومنه ما يكون ابتلاءات ابتلى المؤمنون بها أو الرسل لا عقوبة لهم، ولكن ليتم التشريع بها، مثل: ابتلاء عائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك، وابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم في زوجته وانقطاع الوحي عنه، فجاء لنا من رحم هذا الابتلاء آيات وتشريعات وأحكام وعبر، ما لا يأتي إلا من مثل هذا الابتلاء.

(١) جامع البيان ١٣/ ١٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٣.
(٣) لطائف الإشارات ١/ ٥٨٠.

الابتلاء في الدعوة إلى الله

لابد للناس عامة وللمؤمنين خاصة، ولحملة الدعوة على وجه أخص، إذا أرادوا أن ينجحوا في دعوتهم من الصبر على الابتلاءات والمتاعب، والتي تتمثل في أذى الناس بالقول والفعل، فليس هناك شيء أشد على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحب الخير للناس من أن يمحض لهم النصح فيتهموه بما ليس فيه، وأن يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة فيردوه بالقوة، ويعظهم بالحسنى، فيستقبلوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويدلهم على الخير فيقذفوه بالشر.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فكثيرًا ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبها، وإلى الأبدان فيعذبها، وإلى الحريات فيسلبها، بل يتعدى الأمر إلى الأنفس فيقتلها، وقد أقسم الله تعالى في القرآن على وقوعه على الداعين إلى الله حيث خاطبهم بذلك ليوطنوا أنفسهم على الصبر الجميل.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ويكون ابتلاء الدعاة إلى الله بصورٍ عدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولًا: الاستهزاء والسخرية:

إن أسلوب الاستهزاء والسخرية بالدعاة والنيل منهم، وتحطيمهم أسلوب قديم، سلكه جميع الطواغيت مع الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١].

وأسلوب السخرية والاستهزاء بالدعاة إلى الله، لم يتوقف لحظة من اللحظات في الصراع القائم بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان عبر التاريخ.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في إنكار نبوته، وإيراد الشبهات في ذلك، بين بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزوًا، فلم يقتصروا على ترك الإيمان به، بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار»(١).

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٧٤.

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

قال الجزائري: «وتفيد الآية أن الاستهزاء والسخرية بالرسل والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف؛ ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك، وفي الآية بيان عاقبة التكذيب والاستهزاء، وهو هلاك المكذبين المستهزئين»[(١)].

ثانيًا: الاتهام بالكذب:

من صور الحملات الإعلامية المسعورة التي يشنها الأعداء ضد الرسل والدعاة، اتهامهم بالكذب والافتراء والاختلاق، والتشنيع عليهم؛ لتشويه صورتهم، وإثارة الشكوك حولهم، حتى يفقد الناس ثقتهم بهم، بعدم الإيمان بهم أو اتباعهم، أو الدعوة إلى ما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص: ٤].

فقد كذبوه ورموه بالسحر؛ وقالوا: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته[(٢)].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: ٥].

قال الألوسي: «لم يقتصر قولهم في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: هل هذا بشر مثلكم، وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر، بل قالوا عن القرآن: إنه تخاليط أحلام»[(٣)].

ثالثًا: التعذيب بالضرب والجلد:

حتى يرهب أعداء الله وأولياء الشيطان أولياء الرحمن -كما يتوهمون وتسول لهم أنفسهم - يزمجرون ويزبدون، ويهددون بالويل والثبور، وعظائم الأمور لكل من تسول له نفسه مخالفتهم، والسير على طريق غير طريقهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء: ١١٦].

«أي: المرجومين بالحجارة، وهو توعد بالقتل»[(٤)].

وقال أيضًا: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: ٩١].

ولقد ناقش إبراهيم عليه السلام أباه آزر نقاشًا موضوعيًا علميًا يدعوه فيه إلى عبادة الله وتوحيده، ويقدم له الحجة تلو الحجة، والدليل مع الدليل بأسلوب رفيق مع الأدب الجم والاحترام للأبوة، فيرد عليه الأب:

(١) أيسر التفاسير ٢/ ٤٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧١٤.
(٣) روح المعاني، ٩/ ١٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٤١٣.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦].

رابعًا: التهديد بالقتل والتنكيل:

حين يعجز الطواغيت عن منع الدعاة من الاستمرار في دعوتهم للناس، وعن صدهم عن دينهم وعن دعوتهم، بالرغم من كل الإغراءات التي يقدمونها لهم ولأتباعهم، لا يبقى أمامهم سوى التصفية الجسدية، والتنكيل بالمخلصين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

وهكذا عندما يعجز الطواغيت عن المعارضة بالحجة يلجؤون إلى قتل خصمهم، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالعقوبة[(١)]، وفي سورة طه يقف الطاغية فرعون يهدد السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون.

قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

قال الرازي: «فيه اعتدادٌ باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به»[(٢)].

(١) انظر: مدارك التنزيل ٣/ ٢٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٧٧.

الحكمة من الابتلاء

للابتلاء فوائد عظيمة وحكم جليلة، يمن بها الله على من أحب من عباده، ومن هذه الحكم: تكفير السيئات ورفع الدرجات، والتمحيص والتنقية والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة.

أولًا: تكفير السيئات ورفع الدرجات:

قد ينزل البلاء على العباد رفعًا للدرجات، أو وضعًا للآصار و تكفيرًا للخطايا والسيئات؛ فمن ما يكون لرفع درجات العباد، و يراد لهم الخير به ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **(من يرد الله به خيرًا يصب منه)**[(١)].

أي: يبتليه بالمصائب والمحن ليرفع درجاته و يزيد في حسناته على ما يكون من صبره و احتسابه.

ومن ذلك أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: **(إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه)**[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في المرض رقم ٥٦٤٥، ٧/ ١١٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٣٣٨، ٣٧/ ٢٩.

ومما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: **(ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)**[(٣)].

قال الإمام المناوي رحمه الله شارحًا هذا الحديث في فيض القدير: **(ما من مصيبة)** أي: نازلة، وأصلها الرمي بالسهم ثم استعيرت لما ذكر **(إلا كفر الله بها عنه)** ذنوبه أي: محي خطيئاته بمقابلتها[(٤)].

قال الإمام الغزالي رحمه الله: قال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياه[(٥)].

ويعاقب المؤمن بالبلاء على بعض الذنوب فتكون في حقه كفارة وعقوبة مخففة ظاهرها القسوة وباطنها الرحمة، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(ما يصيب المسلم من هم، ولا حزن، ولا وصب، ولا نصب، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)**[(٦)].

قال الألباني: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠، ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.

(٤) انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠١.

(٥) فيض القدير ٤/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض،

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده أو في ماله أو في ولده حتى يلقى الله سبحانه وما عليه خطيئة)[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

قال الزحيلي: «والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة»[2].

والمؤمن ينظر إلى الابتلاء أنه نعمة ورحمة من الله على عباده، يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد المرة؛ لينقيهم، ويطهرهم، ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، وكذلك ينظر إليه أنه دليل رضى ومحبة من الله لعباده؛ فإن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، لا لحبه لابتلاء عبده بل لما في هذا الابتلاء من عواقب حميدة قد يجهلها العبد نفسه، فدخول الجنة في الغالب يسبقه الابتلاء.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الرازي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة والله أعلم»[3].

فكلما صلب إيمان المرء وقوي يقينه؛ اشتد بلاؤه، فمن رضي؛ فله الرضى من الله عز وجل.

ثانيًا: التمحيص:

المحص: التخليص والتنقية والاختبار والابتلاء، ومنه محص الشيء، يمحصه محصًا، أي: يخلصه مما يشوبه[4]؛ «فالتمحيص ههنا كالتزكية والتطهير»[5].

سنة التمحيص نتيجة طبيعية لسنة الابتلاء؛ فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فتخور قواه، وتنحل عراه، وينكص على عقبيه، ولهذا جعل الله تعالى التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠/ ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب كفارة المريض، رقم ٤٩٤، ص ١٧٤.

(٢) التفسير المنير ٢٥/ ٧٦.

(٣) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٦.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٩٠.

(٥) المفردات، الراغب ص ٦٧١.

﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

«أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعلى ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى، وهي سنة التمكين، إذ يمكن الله عز وجل للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له وتطلعهم إليه في زمن الشدة، مستيقنين من نزول النصر بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعًا من صبر وتقوى وإعداد[2].

وهناك الكثير من الآيات الدالة على الاختبار والتمحيص، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال أيضًا: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

فالمؤمن يبتلى في هذا الباب بأن يكون الحرام بين يديه سهل ميسور تناله يده ليعلم الله هل يخافه أم لا؟

[انظر: الفتنة: الحكمة من الفتنة وسبل النجاة منها]

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٦.
(٢) انظر: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في السيرة الصحيحة، محمد محزون ص ٣٩.

المعينات على اجتياز الابتلاء

لا بد للعبد أن يكون له زادٌ عظيمٌ يستعين به في مواجهة الابتلاءات والمحن؛ حتى يتمكن من النجاح، والاستفادة من ذلك الابتلاء، ومن أهم المعينات على ذلك:

أولًا: الاستعانة بالله:

إن الاستعانة بالله تعالى من أجل العبادات وأفضلها، والتي أمر الله بها عباده للحصول على عطائه وكرمه، قال الله تعالى ذاكرًا عبده موسى عندما نصح قومه بالاستعانة بالله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فأمرهم بالاستعانة بالله عندما ابتلاهم بعدوان فرعون وملئه تسلية لهم وتسكينًا.

قال الزمخشري: «قال موسى لقومه استعينوا بالله قال لهم ذلك- حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا- يسكنهم ويسليهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم»[(١)].

وقال الماتريدي: «استعينوا بالله بالنصر لكم والظفر، واصبروا على أذاهم والبلاء»[(٢)].

ولقد قرأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته مهاجرًا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٩].

مستعينًا به على ابتلائه بكيد المشركين؛ فأخرجه الله من بين أيديهم سالمًا محفوظًا.

ولقد نجح يعقوب في ابتلائه بفقده فلذة كبده وقرة عينه يوسف عليه السلام، حيث استعان بالله على ذلك، وتجلى ذلك في قوله: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

قال الزمخشري: «﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة، أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمل الصبر على ذلك»[(٤)].

ثانيًا: التقوى:

إن من أكثر المعينات على الابتلاء، أن يتحلى المبتلي بالتقوى.

(١) الكشاف ٢/ ١٤٣.
(٢) تأويلات أهل السنة ٤/ ٥٤١.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٠

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٥].

قال القرطبي: «قال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة. يجعل له مخرجًا من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجًا مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة»(١).

وقال سيد قطب: «مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقرير عام، وحقيقة دائمة»(٢).

لقد أكد الله هذه الحقيقة في ثلاث آيات متتالية لترسخ في النفوس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

قال السعدي: «أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها»(٣).

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه صهيب: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له)(٤).

عندما ابتلى الله المؤمنين بقتال المشركين كافة أمرهم بملازمة التقوى التي تعينهم على اجتياز ذلك الابتلاء، ووعدهم جراء ذلك بأن يضمن لهم النجاح في الابتلاء والنصر في المعركة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة: ٣٦].

قال الرازي: «تأويله أنه ضامن لهم النصر»(٥).

وقال السعدي: «بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين»(٦).

ثالثًا: الصبر:

الصبر خلق عظيم يعين على دفع البلاء واجتياز الابتلاء بإذن الله تعالى، «فما على العبد إلا أن يستعين بربه أن يعينه، ويجبر مصيبته.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٩.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أمر المؤمن كله خير، رقم ٧٦١٠، ٨/ ٢٢٧.
(٥) مفاتيح الغيب ١٦/ ٤٤.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٦.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن كانت معية الله معه فهو حقيق أن يتحمل ويصبر على الأذى»[1]، ومن كانت معية الله معه يعينه على اجتياز الابتلاء؛ بل وينصره ولا يخذله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال الواحدي: «أي: إني معكم أنصركم ولا أخذلكم»[2].

وروى مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يصيب المؤمن من مصيبة، حتى الشوكة، إلا قص بها من خطاياه، أو كفر بها من خطاياه)[3].

يجتمع للمؤمن عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه، لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها[4].

رابعًا: الاحتساب:

الاحتساب هو طلب الأجر من الله تعالى بالصبر على البلاء مطمئنة نفس المحتسب غير كارهة لما نزل بها من البلاء[5]، وهو من المعينات للعبد على تحمل الابتلاء، ويكون على ثلاثة أنواع:

١. احتساب الأجر من الله تعالى عند الصبر على المكاره.

وخاصة فقد الأبناء إذا كانوا كبارًا، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٢. احتساب الأجر من الله تعالى عند عمل الطاعات.

كما في صوم رمضان إيمانًا واحتسابًا، وكذا في سائر الطاعات، وقد وردت آيات كثيرة بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي

---

(١) عقيدة المسلم، سعيد القحطاني، ٢/ ٩٢٠.
(٢) الوجيز ص ١٣٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم ٦٦٥٨، ٨/ ١٥.
(٤) انظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن آل سعدي، ص٩٧.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٦٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٢٦٧.

﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: (من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[(١)].

٣. احتساب الله ناصرًا ومعينًا للعبد عند تعرضه لأنواع الابتلاء من منع عطاء أو خوف وقوع ضرر.

ومعنى الاحتساب في هذا النوع الاكتفاء بالمولى عز وجل ناصرًا ومعينًا، والرضا بما قسمه للعبد إن قليلًا أو كثيرًا[(٢)].

ومثاله: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

يتعرض الإنسان لأنواع من الابتلاءات والأمور التي تكرهها نفوسهم، ولا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، إلا من جهة احتساب الأجر بالنسبة للمؤمنين.

فالمسلم يمرض وكذا الكافر، ويموت أحباؤه وأقرباؤه، وكذا الكافر؛ لكن ثمة فرقًا مهمًا بينهما؛ ألا وهو ما يرجوه المؤمن من الأجر إن هو صبر واحتسب ورضي.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

قال الزمخشري: «فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة»[(٣)].

خامسًا: الإيمان بالقدر:

ذكر العلماء منافع كثيرة للإيمان بالقدر، وعلى رأسها: الصبر على أقدار الله تعالى وابتلائه، «فالإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضًا دائم الافتقار إلى ربه، يستمد منه العون على الثبات، ويطلب منه المزيد»[(٤)].

والمؤمن يعلم علم اليقين أن الله تعالى لا يفعل إلا الذي يصلح عباده ولو جهل الإنسان مورده ومصدره؛ فإنه في الإصلاح قطعًا وأنه خير له.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صام رمضان إيمانا واحتسابًا، رقم ١٩٠١، ٣/ ٢٦.
(٢) انظر: نضرة النعيم ٢/ ٥٦.
(٣) الكشاف ١/ ٥٦١.
(٤) أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود، ص١٤٧.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال أيضًا: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

فالمؤمن يؤمن بذلك كله ويسلم الأمر إلى الله.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١١﴾ [التغابن: ١١].

قال الواحدي: «قال علقمة: ومن يؤمن بالله في المصيبة، أي: يعلم أنها من الله يهد قلبه للاسترجاع والتسليم لأمر الله»[(١)].

الإيمان بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما يصيبه فيصبر على المصائب، ففي المصائب الشرعية يجب الاستغفار، وفي المصائب الكونية يجب الصبر[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الاستهزاء، الثبات، الضر، الفتنة، المرض، النعم

ا

(١) تفسير القرآن ٥/ ٤٥٢.

(٢) شرح الرسالة التدمرية، محمد بن عبد الرحمن الخميس، ص٤٥٢.



إبراهيم عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بإبراهيم عليه السلام	١٦٢
ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم	١٦٤
مكانة إبراهيم عليه السلام	١٦٥
صفاته وأخلاقه عليه السلام	١٧٣
دعوته عليه السلام	١٨٤
محاجته عليه السلام لقومه وللملك	١٩٣
إبراهيم عليه السلام والبيت الحرام	١٩٦
إبراهيم وذريته عليهم السلام	٢٠١
الدروس المستفادة من قصة إبراهيم	٢٠٧



التعريف بإبراهيم عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ورد ذكر نسب نبي الله إبراهيم عليه السلام في موضعين من كتابه -جل وعلا-، وفي كل موضع كان ذكره باعتبار خاص، وذلك كما يلي:

الموضع الأول: جاء على سبيل التشريف وذلك في سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٤].

وفي هاتين الآيتين ذكر اصطفاء الله للأنبياء المذكورين على العالمين بالنبوة، وأخبر أنهم يرجعون لأصل واحد، فآل عمران من إبراهيم، وإبراهيم من نوح، ونوح من آدم، فآدم أبو البشر الأول، وهو الذي خلقه الله بيده، وأسجد له الملائكة، ونوح هو أبو البشر الثاني، وهو أطول الأنبياء عمرًا، قضاه في تبليغ دين الله، وإبراهيم أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وصاحب الهجرات العديدة لله، في سبيل إعمار الأرض بعبادة الله وتوحيده كما سيأتي، فهم ذرية طيبة بعضها من بعض عليهم السلام.

الموضع الثاني: جاء في سورة الأنعام، وهو على سبيل ذكر النسب من حيث الأصل وفرعه، وأن إبراهيم هو ابن آزر الذي هو تارخ كما هو عند جمهور المفسرين وعلماء الأنساب، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

هذا ما ورد في القرآن، أما ما ورد في كتب التاريخ والأنساب، فقد جاء ذاكرًا للآباء بين آزر ونوح زيادة على ما جاء في القرآن على النحو التالي:

هو إبراهيم نبي الله عليه السلام ابن آزر واسمه تارخ بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، لا يختلف جمهور أهل النسب، ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء[١].

---

(١) انظر: البداية والنهاية،ابن كثير، ١/ ١٦٠، تاج العروس، الزبيدي، ٣١/ ٢٨٠.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ذكر الإمام الطبري في تاريخه أماكن كثيرة ذكرها أهل العلم من أن مولد سيدنا إبراهيم عليه السلام كان فيها، غير أنها في مجملها تبين أن ميلاده كان في أرض العراق، وقد كان النمرود هو حاكمها، وكان اسمه زرهي بن طهما سفان [1]، وقد ظهر ملكه وملك قومه بالمشرق قبل ملك فارس، وبلغ فيما ذكره أهل التاريخ مشارق الأرض ومغاربها، ونسب الطبري في أثر عن بعض الصحابة، ولم يسمهم، أن النمرود بن كنعان هو أول ملوك الأرض شرقها وغربها، وأن الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبختنصر: مؤمنان وكافران[2].

والنمرود هو الذي جاء ذكره في القرآن في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ١/ ٢٣٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٣٤.

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم (٦٩) مرة، في (٢٥) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	١٢٥-١٢٧، ٢٥٨، ٢٦٠
الأنعام	٧٤-٨٠
هود	٦٩-٧٥
مريم	٤١-٥٠
الحج	٢٦-٢٩
العنكبوت	١٦-١٨، ٣١-٣٢
الزخرف	٢٦-٢٨
الذاريات	٢٤-٣٧
الممتحنة	٤

مكانة إبراهيم عليه السلام

منزلة نبي الله إبراهيم عليه السلام بين الأنبياء:

أما عن منزلته بين الأنبياء، فهو أحد أولي العزم من الرسل، وهم حسب الترتيب في الفضل: محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضلهم، وأعلاهم منزلة، ويأتي بعده إبراهيم عليه السلام، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوح، والله أعلم[(١)]، وقد اجتهد أحد الشعراء فجمعهم في بيت شعر قال فيه[(٢)]:

أولو العزم نوح والخليل بن آزر
وموسى وعيسى والحبيب محمد

وقد ذكرهم الله مجتمعين في كتابه مرتين.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعًا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون[(٣)].

١ . مرتبة الخلة.

والخلة هي أعلى منزلة بلغها عبد عند الله تبارك وتعالى، ولم يثبت في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قد حازها إلا اثنان:

الأول: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بما رواه عنه جندب رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: **(إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا؛ لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا)**[(٤)].

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس، ص٦٤، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ص١٧٩.
(٢) الكليات، الكفوي، ص٦٥١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد،

الثاني: إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد أصبح ذكر هذه المنزلة مصروفًا عند ورودها في الكلام له عليه السلام، وكأنها صارت علمًا عليه؛ فيقال إبراهيم الخليل، أو خليل الله إبراهيم، أو الخليل، فلا يعلم أنه يراد غيره عليه السلام وهذا لأنه مذكور في القرآن من قول الله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا؛ لأنه وفى بما أمر به، وصبر على ما ابتلي به»(١).

٢. الملة الخالدة.

شرع لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذكرًا نقوله في الصباح والمساء، نقر فيه باتباعنا لما أمرنا الله به في كتابه، فنحن نقول: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين)(٢) كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو امتثالًا منه ومنا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وذلك أنه باتباع ملته ينال شرف الانتساب إليه، وخاب وخسر من دنس دينه بالشرك، أو التحريف والتضليل والتزييف، فلا يمكن أن يكون من أتباعه، فملته هي الملة المائلة عن طريق الشرك، المستقيمة على طريق التوحيد، الحنيفية السمحة، أحب الأديان إلى الله، التي التزمت ما جاءها من عند مولاها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)(٣).

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

آمنوا بكل ما جاءهم من عند الله، متبعين لا مبتدعين، يتأولون القرآن والسنة بأفعالهم لا بأهوائهم، وذلك بتطبيقه في حياتهم واقعًا عمليًا.

٣. جعل النار عليه بردًا وسلامًا عليه الصلاة والسلام.

إن عداوة المبطلين والمعاندين لأهل الحق سنة ماضية، وطريقة متبعة، ضاربة

باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ١/ ٣٧٧، رقم ٥٣٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٢٤/ ٧٧. وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦.

بجذورها في أعماق التاريخ، منذ أن أرسل الله الرسل عليهم السلام لأهل الشرك في الأرض، فحين يعجز أهل الباطل عن الدفاع عن باطلهم، ولا يقبلون الاستسلام والانقياد للحق.

ويسعون في إظهار باطلهم في صورة يخدعون بها أهل الحق؛ ليوهموهم أن الباطل حق، والحق باطل، بزخرفة القول، والإغراءات المادية، وأساليب الترغيب والترهيب؛ فإنهم يلجؤون إلى الأساليب القمعية في أشنع صورها، ولا يدخرون عذابًا إلا واستعملوه في التنكيل بمخالفيهم.

وقد كان إبراهيم عليه السلام ممن بلغت عداوة قومه له مداها، والرغبة في الانتقام منه منتهاها، حين حطم آلهة قومه الجوفاء من كل مضمون للألوهية باطنًا، والعارية من كل موجب للربوبية ظاهرًا، فدعاهم، واستهداهم، وخاطبهم بكل ألوان الخطاب المقنعة، وأقام عليهم الحجج الدامغة، ولكنهم زين لهم سوء عملهم؛ فافتعل تلك المشكلة المثقلة، التي أوقفتهم حائرين ضالين، أعماهم حبهم لآلهتهم عن اكتشاف انتفاء قدرتها، وامتهان قدرها؛ فهالهم قهرها؛ فطارت لذلك عقولهم، وانخلعت له قلوبهم؛ فعموا وصموا، وتساءلوا عمن قام بهذه الفعلة النكراء، فتذكروا ما كان من إبراهيم عليه السلام من التوعد والوعيد لها؛ فانقلبت لديهم الموازين، وجعلوا التعدي على آلهتهم فعلًا لا يفعله إلا أعظم الظالمين، فجعلوا شركهم عدلًا، وتوحيد إبراهيم عليه السلام ظلمًا.

فقرروا الانتقام؛ فاستنفروا كل قوتهم، وجمعوا جماعتهم؛ ليوقعوا عليه نقمتهم؛ فقابلهم الله تبارك وتعالى بأن عطل ناموسًا من نواميس الكون وقوانينه، ردًا على قلب الموازين الذي فعلوه؛ فجعل النار التي من سنتها أن يكون أثرها إتلافًا وإحراقًا، أن تصير نعيمًا وسلامًا وإشراقًا، فقد كانت هذه الحادثة صفحة مشرقة من صفحات التاريخ، نتلو خبرها في كتاب الله عز وجل إلى قيام الساعة، وذلك حين نصر الله عز وجل نبيه ووليه إبراهيم عليه السلام، على أعدائه الطغام.

وخبر هذه الحادثة جاء في قوله جل
جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ
وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا
هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا
أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ
ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٧١].

فقد جاءوه يرعدون ويزبدون، ويهددون ويتوعدون؛ فقابلهم بكل ثبات، وسخر منهم في موطن لا يسخر فيه من عدوه إلا العظماء، وذلك أنهم سألوه لا على سبيل الاستجواب، وإنما من باب إثارة الذعر والإرهاب؛ فقابلهم بثبات الواثق من نصر الله سبحانه وتعالى له عليهم، وأحال التهمة لكبير آلهتهم، ودعاهم -استهزاءً بهم- لسؤال صنمهم؛ علهم يجدون عنده ما يهدأ به روعهم، ويذهب بعلمه غيظهم؛ فأخزاهم الله عز وجل، ورد كيدهم في نحرهم، ورفع مكانة إبراهيم عليه السلام، وحط قدرهم، ونجاه من كيدهم، هو ومن آمن به، وأبدلهم أرضًا خيرًا من أرضهم، ونزلًا خيرًا من نزلهم، ومكانة ورفعة خيرًا من نسبهم؛ فجعل منهم الأنبياء صلوات وسلام عليهم من ربهم.

٤ . إجابة دعواته:

إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة وسوف نذكر نموذجًا واحدًا منه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

[إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

ففي هذا المقطع من سورة إبراهيم يتبين

من دعائه عليه السلام أهم ما يجب أن يحرص المسلم على سلامته مع توفيقه فيه، أولًا وآخرًا، ولنستعرض ما جاء من ذلك في دعائه عليه السلام:

* الأمن في الأوطان.

وما كان إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء؛ ليسأل ربه هذا السؤال مقدمًا حب الوطن على توحيد الله، فما سأله إلا وهو مؤمن بربه موحد له، فهو يعلم أنه لا أمن بلا إيمان، وهو صاحب المقولة التي جاءت عنه في كتاب الله.

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨١-٨٣].

فهو قد سأل الله هذا الدعاء بمقتضى إيمانه بالله، والقيام بما افترضه عليه.

وقد ورد ذكر دعاء له في سورة البقرة يوضح فيه إبراهيم عليه السلام ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ ليظهر ما تقرر في نفسه أن الذي يستحق هذا الأمن إنما هم الموحدون، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعطى إبراهيم ما سأله إياه لمؤمنهم وكافرهم؛ لأنه أرحم بخلقه من إبراهيم- وليس أحد أوفى بعهده منه سبحانه وتعالى، فقد تكفل لهم بالأرزاق، فجاء قوله جل جلاله في تمام الآية: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

* الثبات على التوحيد الذي هو سبب كل خير.

ونعمة الإسلام هي النعمة العظمى التي تصبح بها كل هبة نعمة، وبدونها كل عطية نقمة، وإبراهيم عليه السلام يعلم أنه لا معصوم من الضلال إلا من عصمه الله، فعلى رفعة قدره، وعلو منزلته عند الله، إلا أنه لم يأمن على نفسه من الشرك، وهذا أمر لابد وأن يتنبه له كل مسلم، وعليه كان دعاء إبراهيم عليه السلام ووصيته هو ويعقوب عليهما السلام لبنيهما عند الموت.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

فالتوحيد هو أمان الأمة، وحصن الناس أفرادًا وجماعات من عقاب الله تبارك

وتعالى، عن معاذ بن جبلٍ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن لا يعذبهم)[1].

وما يجب أن يحرص عليه المسلمون هو النجاة من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وذلك بألا يلبسوا إيمانهم بظلم الشرك، أو أن يقدموا محبة أي شيء -مهما كان- على محبة الله، بل يلزمهم توحيده؛ ليتحقق لهم الأمن، والذي يعد المطلب الأساس والأهم لجميع المخلوقات، فكلها تسعى لتحقيقه، ولم ولن يتسنى لها ذلك إلا بالاستجابة إلى أمر الله، والسير بمقتضى النواميس التي وضعها الله لها، وهذا أمر قد أدركته الجمادات، ولم يدركه أكثر الناس الذين وهبهم الله العقل، لكنهم عطلوه وأهملوه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

❁ أن يجمعه مع أتباعه، ويغفر لمن عصاه.

يعلم إبراهيم أن رحمة الله لا حد لها، وأن عفوه عظيم، وعلى ذلك سأل ربه أن يرفع من درجة أتباعه؛ ليجمعهم به، وأن يغفر لمن عصاه ويهديه، وذلك أن الله أخبره أنه سيرزقهم في الدنيا؛ فطمع أن يشملهم برحمته في الآخرة، فقال عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولكن الله أرحم بعباده من إبراهيم عليه السلام فهو لا يعذب إلا من تمرد عليه[2]؛ فاستجاب الله جل جلاله له بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

❁ الدعاء للذرية.

بعد أن استجاب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه، وذهب بهاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى بلاد الحجاز، وهي غير مأهولة، وما كان ذلك إلا لأنه علم أن الله سبحانه وتعالى قد قدر لهم أن يحيوا هذا المكان الذي هو أشرف بقعة على وجه الأرض؛ فلم يرض عليه السلام أن تكون مهجورة، خالية من طاعة الله، وجعل هذا هو علة مجيئه بهم؛ فأشفق عليهم من الوحشة التي سيعانون منها، فغريزة الإنسان أن يعيش اجتماعيًا، غير معزول.

فقال كما أخبر المولى جل وعلا عنه:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله، ٩/ ١١٤، رقم ٧٣٧٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢٦.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فالحال التي هم عليها في هذا المكان تستدعي الصبر، فهم مفارقون لراعيهم، وليس عندهم طعام ولا شراب ولا أنيس، فأراد من الله أن يجمع لهم بين عبادتي الشكر والصبر، وهو بذلك يحيل الأمر إلى عالمه، ويفوض الأمر إلى صاحبه، غير مفتئت على الله، مظهرًا لله إيمانه العميق بأن الله يعلم ما يدعوه فيه.

فيقول فيما يحكيه القرآن عنه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

فهو يعلم حال أهل إبراهيم عليهم السلام حيث هم، ثم يقر معلنًا إثبات الحمد لربه على نعمه التي أسبغها عليه، ومن جملتها ما رزقه به من الذرية، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

اعترافًا بالفضل لربه، واستزادة من الكرم بحمده، وثناءً على الله بلطفه به، إذ إنه سمع دعاءه فأجاب.

وهي إجابة باقية إلى يومنا هذا، فإنك تجد كل مسلم، وهو يهوي قلبه إلى ذلك المكان، معمور بحب آل إبراهيم، وآل محمد عليهم الصلاة والسلام.

- **الدعاء بالتثبيت على العبادة، له ولذريته.**

فضل الصلاة عظيم، وشأنها خطير، وهذا ما ظهر من دعاء إبراهيم ربه بأن يثبته وذريته عليها ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[إبراهيم: ٤١].

وكذلك الدعاء الذي هو أقوى ما يتسلح به الإنسان، إن كان أهلًا لأن يجيب الله دعوته؛ لذلك جاء في دعائه في ختام الآية: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ وليس هنالك ما هو أجدر بأن يحرص عليه المسلم من ثباته وذريته على دين الله جل وعلا.

- **الدعاء بالمغفرة له ولوالديه.**

ولا يزال على أمل وطمع فيما فيه كل الرجاء، ألا وهو رحمة الله تبارك وتعالى؛ فيدعو معولًا على ذلك بالمغفرة له ولوالديه، فلم ييأس من ذلك ما دام الله لم يعلمه بالمنع منه، فبقي على رجائه فيه، إلى أن ثبت له أن والديه من المبعدين عن رحمة الله تعالى وتقدس، وعلى ذلك جاء قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

٥ . ثناء الناس عليه:

أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين عامة أن يذكروا نبيه إبراهيم وآل بيته، عليهم الصلاة والسلام، في كل صلاة بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من

الصلاة عليهم والتسليم والتبريك[(١)].

كما جاء عن أبي سعيد الخدري، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك، فكيف نصلي؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[(٢)].

وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

وهو يثني عليه عند ورود ذكره في القرآن، والأمم التي جاءت بعده تشهد بفضله وتعترف بنبوته، وتنتسب إليه، حتى أنزل الله أن هذا شرف لا يناله إلا من اتبعه عليه السلام، ردًا على اليهود والنصارى الذين زعموا أنه على دينهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

وما كان ذلك إلا فضلًا من الله عليه؛ وذلك لما قام به من أمر الله، في ذلك البلاء العظيم الذي سيأتي الحديث عنه لاحقًا بإذن الله تعالى.

(١) انظر: الأم، الشافعي، ١/ ١١٧، المجموع، النووي، ٣/ ٤٦٥، المغني، ابن قدامة المقدسي، ١/ ٥٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إن تبدوا شيئًا أو تخفوه)،٦/ ١٢٠،رقم ٤٧٩٧.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته وأخلاقه مع الله:

عند الحديث عن الصفات التي يتخلق بها الناس، والأخلاق التي يتحلون بها، تنصرف الأذهان إلى الصفات والأخلاق الكائنة بين الإنسان وبين الناس، ويغفلون عن صفات العبد وأخلاقه مع ربه وخالقه، والأصل في الإنسان أن ينظر إلى حسن خلقه مع الله جل جلاله أولًا وقبل كل شيء؛ لأن من حسن خلقه مع الله، قطعًا سيكون حسن الخلق مع عباد الله، أما من لم يكن حسن الخلق مع الله؛ فالغالب عليه أن يكون سيء الخلق مع مخلوقات الله.

إذ إن الإنسان بطبعه ظلوم جهول، يميل إلى الطغيان بسبب ظلمه، ولا يعرف حدوده وحقوقه بسبب جهله، وهو إن لم يكن منضبطًا بضوابط الإيمان، ولم يظهر منه الظلم، وتعدي الحدود والاعتداء على الحقوق؛ فذلك غالبًا ما يكون لعجزه، وفي المجمل، فمن كان متصفًا بالفسق، أو الكفر، أو واقعًا في أعظم الظلم؛ فإنه -وإن تحلى بكل مكارم الأخلاق فيما بينه وبين الناس- يبقى سيء الخلق.

وأما عن سيدنا خليل الله عليه السلام، فقد جمع بين حميد الصفات، وكريم الأخلاق مع الله جل وعلا، وجميل الصفات، ونبيل الأخلاق مع عباد الله، وقد ذكر الله من حميد صفاته، وكريم أخلاقه مع ربه في القرآن ما يلي:

١ . الاستسلام والانقياد لأمر الله.

وقد ظهرت هذه الصفة منه في مواقف كثيرة نذكر منها:

- **إخلاص العبادة لله، والخضوع له بالطاعة.**

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١][1].

- **إعلان براءته من أبيه وقومه والآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله.**

وقد كان إعلان البراءة من الآلهة أولًا حين قال الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وحين علم أنهم لن يكون منهم الإيمان بالله؛ تبرأ منهم جميعًا، كما جاء في قول الله تعالى عنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ لذلك جعل الله منه أسوة حسنة للمسلمين[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.

❁ إسكانه زوجه وولده في مكة، ولم يكن فيها زرع، ولم يكن فيها سبب الزرع وهو الماء، وما ينتج عن وجود الزرع، وهو وجود الإنسان.

ويخبرنا الله عن شأن هذا الموقف، وأنه كان استجابة من إبراهيم عليه السلام لأمر الله في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

❁ إقدامه على ذبح ولده البكر إسماعيل عليهما السلام.

وجاء خبر هذه الحادثة في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧][1].

٢. أواه.

وقد وصفه الله بهذه الصفة في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

والأواه هو كثير التأوه؛ لكمال رأفته وشفقته ورحمته بنفسه وبغيره[2].

٣. منيب.

وهذا الوصف جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

والمنيب هو «الرجاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه»[3].

٤. قانت.

ذكر الله تعالى من صفات إبراهيم (القنوت) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والقنوت: هو طول القيام في الصلاة، وليس هذا عندهم، بل هو في دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وجاء عن جابرٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الصلاة طول القنوت)[4].

وما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام يؤكد أن هذا الدين الذي جاء به هو عين الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢١٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، ١/ ٥٢٠، رقم ٥٢٠.

سئلت عائشة رضي الله عنها، كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: **(ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعةً يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا)**[(١)].

٥. حنيف.

جاءت في سياق الرد على أهل الكتابين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

والحنيف: «هو المستقيم من كل شيء»[(٢)]، وهو المخلص دينه لله وحده، والحنيفية هي ملة الإسلام[(٣)].

٦. شاكر.

وهذه الصفة أيضًا من جملة ما جاء في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

والشاكر هو المعترف بفضل الله تعالى وإنعامه عليه، والقائم بما أنيط بهذا الإنعام من واجبات، وأدى ما عليه فيها من حقوق[(٤)].

٧. صديق.

ومن الصفات التي وصف بها إبراهيم عليه السلام (الصديقية).

قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وروى أحمد بسنده عن أم كلثوم بنت عقبة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا أعده كاذبًا، الرجل يصلح بين الناس، يقول: القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول: في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها)**[(٥)].

والحق أن ذلك لم يكن إلا في مقام الكذب فيه أبلغ في تحصيل الخير من الصدق، وأقوى في دمغ الباطل بالحق، وهو مع ذلك لم يكن قوله كذبًا من كل وجه.

وقد بَيَّنَ النبي صلى الله عليه وسلم المواطن التي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله:**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٠٤.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٧.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٨/ ٢٥٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٢٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨١، رقم ٤٩٢١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٠٤.

إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدةٌ في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك)[1].

وتفصيل هذا له مساحة واسعة في كتب التفسير[2].

٨. وفيٌّ.

وهي صفة كان إبراهيم أهلًا لها؛ حيث بلغ في طاعته لربه، وتبليغ رسالته، رتبة الكمال، وما قام به من ذبح ابنه الذي نجاه ربه، وجاء نعته بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

وهذا الوفاء هو الوفاء بعهده مع الله جل جلاله، من الإيمان والطاعة.

٩. أمة.

وصف القرآن الكريم براهيم بأنه كان إمامًا في الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا[3].

واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به في الخير[4].

ثانيًا: صفاته وأخلاقه في نفسه ومع الناس:

لقد اتصف نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام بصفات وأخلاقيات كثيرة، وذلك مع نفسه، ومع الناس من حوله، ما أهله ليجعل الله سبحانه وتعالى منه أسوة لهم يقتدون به، ويسيرون على ما سار عليه من صفات وأخلاق، وسنشير إلى ذلك في النقاط التالية:

١. الإمامة.

وصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والإمامة هي إمامة الدين، وجعلها الله عز وجل له في زمانه ولمن بعده من الناس، ولم يكن ربنا سبحانه وتعالى قد جعلها لأحد قبله من الأنبياء، ومازال متبوعًا إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٣، الوجيز، الواحدي ص٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٠١.



يومنا هذا بعبادة الحج ومناسكه.

٢. الحكمة.

لما حسد اليهود رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ فضحهم الله سبحانه وتعالى، وأخزاهم بأن جعل الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما آتاه الله إبراهيم من الكتاب المنزل، وما أوحى إليه من الحكمة الملهمة.

يقول تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

فهو يثبت الحكمة لنبيه إبراهيم عليه السلام، وأن مثلها قد أوتي محمد صلى الله عليه وسلم.

والحكمة: هي فعل الشيء الأحسن، على الوجه الأقوم، في الوقت الأنسب.

٣. الحلم.

وتظهر هذه الصفة في إبراهيم من خلال دوامه على الاستغفار لوالده مع إعلان والده العداوة له، فإن عداوة والده له لم تمنعه من الاستغفار له، ورجاء الهداية له، لكن عندما أعلمه الله أن أباه لن يؤمن، وأنه عدوٌ لله؛ تبرأ منه، ووالى من هو أولى بالولاية، وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكذلك حينما جادل عن قوم لوط رغبة في تأخير العذاب عنهم أيضًا وصفه الله جل جلاله بهذه الصفة.

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٤- ٧٥].

٤. بر الوالدين.

حيث إن أبر البر بالوالدين أن يكون الولد سببًا في دخولهما الجنة، وهذا ما حرص عليه إبراهيم عليه السلام؛ حيث لاقى ما لاقاه من أذى والده، وعداوته له ولربه، إلا أنه كان يستغفر له ولأمه.

يقول تعالى حكاية عنه أنه كان يقول في دعائه: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٥. الرشد.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه.

كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[الأنعام: ٨٣][1].

٦. الكرم.

بين الله سبحانه وتعالى اتصاف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفة بما أورده في كتابه عنه في وصف استقباله للضيف.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧][2].

وقد أظهرت الآية صفة الكرم من خلال النقاط التالية:

- وصف الله ضيفه بأنهم مكرمون، وكان ذلك بألوان من الإكرام تظهر في أقوال وأفعال إبراهيم عليه السلام معهم.
- استقباله لهم، حين قالوا له «سلامًا» بالنصب على الحالية؛ فأجابهم بقوله: «سلامٌ» بالرفع على الابتداء؛ فيكون قولهم جملة فعلية تدل على حدوث السلام، حال مجيئهم له هذه المرة، أما قوله فهو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستمرار للسلام في كل وقت.
- فعله حين راغ، يظهر منه أنه لم يشعرهم بعزمه على التأخر، أو صنع الطعام؛ الأمر الذي قد يتحرج بسببه الضيف.
- الإسراع في إحضار الضيافة؛ لأن الله عطف المجيء على الروغان بالفاء، ولم يعطف بحرف آخر من حروف العطف؛ لأن هذا الحرف يفيد عدم تراخي المعطوف عن المعطوف عليه، والذي يعبر عنه بالترتيب والتعقيب، مما يشعر بأن طعام الضيفان قد أعد مسبقًا.
- كان ما جاءهم به من الطعام عجل سمين، فلم يكن عجلًا ضعيفًا، وكان يكفيه أن لو جاءهم بكبش أن يكون كريمًا معهم.
- تقريب الطعام إليهم، ما يشعر أنه فعله بدون تكلف ولا تكليف، وهذا أكمل إكرامًا من الذي يضع الطعام في مكان، ثم يطلب من الضيوف أن ينتقلوا إليه.
- دعوتهم إلى الأكل بقوله «ألا»، وهو حرف يفيد العرض بلطف.

٧. صاحب القلب السليم.

هو وصف لم يوصف به أحد في القرآن الكريم إلا إبراهيم عليه السلام، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

فهو صاحب القلب السليم.

وقد ظهرت سلامة قلب إبراهيم عليه السلام من خلال عدة مواقف، جمعها الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٥.
(٢) انظر: الرسالة التبوكية، ابن القيم، ص٦٣.

سبحانه وتعالى بعد ذكره لهذه الصفة في سورة الصافات، نذكر أهمها فيما يلي:

- إنكار الشرك بالله.

وبدا ذلك في قول الله جل جلاله : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٦].

وذلك أن الشرك هو أعظم الظلم، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (١).

- الدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

وقد تمثل ذلك في قول الله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧] فهي دعوة إلى توحيد الله جل جلاله، ففي سؤاله هذا تذكير بربوبية الله لجميع المخلوقات، فالعالمين جمع عالم وهي تعني: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، وفيه تذكير بأن الله جل جلاله متصف بكامل الصفات؛ لأن السؤال عن الظن سؤال عن الاعتقاد حول ما يعتقدونه من صفات الله عز وجل، وفيه تنبيه على أنه لا يستحق العبادة إلا الله جل جلاله (٢).

- أمره بالمعروف وإنكاره للمنكر، بالقلب وباللسان وباليد.

فإنكاره بالقلب ظهر في قول الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

حيث جاء في تفسيرها أنه يشق عليه رؤية ما يفعلونه من أعمال الشرك؛ لشدة إنكاره لها، وهذا أمر لا شك أنه يؤلم كل مؤمن موحد بالله تبارك وتعالى، وأما إنكاره باللسان ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

حيث بين لقومه سفاهة فعلهم، وكذلك أنكر باليد ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] حين قام بتحطيم الآلهة (٣).

- ثباته على دين الله مهما كانت التحديات.

ويظهر ذلك من خلال قول الله عز وجل عنه: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٤ ٩٨].

حيث جاءوه مسرعين مستنفرين على هيئة مفزعة مريعة، فما عبئ بثورتهم، ولم يرهبه هجومهم، واستهزأ بهم، وسخر من آلهتهم بأسلوب مفحم، كما جاء في موضع آخر من كتاب الله ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١/ ٨، الداء والدواء، ابن القيم، ص١٢٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٩٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٠٥، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ١١٨.

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وكرر إنكاره عليهم بقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦][(١)].

✿ هجرته من البلد التي لا يعبد فيها الله، وبراءته من أهلٍ لا يعبدون الله.

وذلك حين أعلن عن هجرته، وهذا ما برز في قول الله جل جلاله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

فالموحد لله جل جلاله لا رابطة بينه وبين أي شيء إلا رابطة ترضي الله عز وجل، فإن لم يجد في قومه، أو في وطنه، أو أي أمر من أمور الدنيا ما يعينه على طاعة ربه، أو وجد فيه ما يصده عن دين الله؛ فهو يهجره ويتركه، ويبحث له عن مكان آخر يعبد ربه فيه.

يقول الله تبارك وتعالى في حق أقوام ضلوا، وعصوا ربهم بسبب استضعافهم في البلد التي كانوا فيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧][(٢)].

وإن كان الأهل هم من يصدونه عن دينه؛ تبرأ منهم.

يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

✿ تقديم حب الله على كل حبٍ سواه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

من المسلم به أن ولدًا يولد لرجل بعد انتظار عشرات السنين، وبعد دعاء الله عز وجل بأن يرزقه الله إياه، ويكون ولدًا بارًا بأبيه؛ فلن يكون في الوجود أعز على قلب أبيه منه، فما بالكم فيمن هذا حاله ويأتيه الأمر بذبح ولده؟! كيف هي درجة الابتلاء بمثل هذا الأمر؟!

ومع ذلك استجاب لربه، راضيًا مطمئنًا؛ تضحية بأعز مخلوق، من أجل إرضاء الله، أين أصحاب المعاصي -مهما بلغت درجة تعلق قلوبهم بها-، أو شدة حاجتهم إليها، هل يمكن أن تقارن درجة تضحيتهم بترك هذه المعاصي، بهذا الابتلاء الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ٤٤٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١١٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٣/ ٧١.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٥-١٠٧].

إن الذي يمر بابتلاء من الله عز وجل ويكون شأنه مع هذا الابتلاء مرضيًا لمولاه جل جلاله لا يمكن أن تكون عاقبته مؤلمة، فابتلاء الله سبحانه وتعالى لعبده ربما يكون مصحوبًا بألم متفاوت الدرجات بحسب صلاح العبد.

سأل سعد بن أبي وقاص النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ**)(١).

لكن هذا الألم إذا ما قورن مع لذة العاقبة التي سيكافئه الله عز وجل بها؛ فإنه لا وزن له(٢).

❁ **تربية ولده على الاستجابة لأمر الله وإعانته على طاعة الله مهما كلف الأمر.**

وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يعلم أن ابنه سيستسلم لأمر الله، ويكون عونًا لأبيه عليه، ولو حصل له من العلم ما يخالف ذلك؛ لما عرض الأمر عليه يشاوره فيه.

وذلك ما جاء في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. قرئت بالفتحتين في قوله: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ على سبيل عرض الأمر على ولده واستشارته؛ لثقته بأن رد إسماعيل -الذي رباه على الامتثال لأمر ربه- سيأتي مرضيًا عند الله عز وجل؛ وهو بذلك يتقرب لله عز وجل بعبادتين ظهرتا في هذا الموقف:

الأولى: تربيته لولده تربية أثمرت سرعة الامتثال والطاعة، مهما كلف الأمر.

والثانية: عبادة تنفيذ الأمر.

وفي القراءة الثانية بالضم والكسر على الحث والتحضيض لإسماعيل صلى الله عليه وسلم على الامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، وهي بمعنى: فانظر ماذا تري ربك من الامتثال، والصبر على أمر الله جل جلاله، في موطن لم تسبق إلى مثله، وهنا أيضًا تظهر عبادتان الأولى: حث ولده على التضحية بحياته؛ إرضاءً لربه برضى نفس،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠١، رقم ٢٣٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣.

وصححه الألباني.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص١٤٣، محاسن التأويل، القاسمي، ١/ ٤٦٢.

وثبات وصبر، والثانية: تنفيذه للأمر[1].

❁ **الامتثال لأمر الله وتنفيذه على الهيئة التي أمر الله بها.**

وقد ظهر ذلك الامتثال بتمامه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣].

أمر بالذبح؛ فامتثل بالذبح، ولم يلجأ إلى طريقة أخرى مثل قطع رأسه مرة واحدة، أو دفعه من فوق جبل، أو دفنه حيًّا، -حال غيبوبة؛ ليهون عليه الأمر-، ولم يأت بطريقة أشد قسوة مثل التقطيع أو التحريق مبالغة في التقرب لله، بل امتثل الأمر كما هو، مبتعدًا بذلك عن التفريط والإفراط.

وفي هذا وقفة مع أهل البدع، والمناهج المحدثة في عبادة الله:

ففريق منهم يفرطون في شأن العبادات -بحسب شهواتهم ومصالحهم-، لا وفق ما تقتضيه قواعد الشريعة ومقاصدها.

وفريق آخر يزيدون من التشديد في العبادات على قصد المبالغة في التعبد لله عز وجل -بحسب أهوائهم وأذواقهم-.

والوسطية: هي الإتيان بالعبادات والطاعات على الوجه الذي أمر الله به.

فينظر إن كان في إتيانها على الوجه الذي أمر الله به ما يتعارض مع مقاصد الشريعة، بحيث يترتب عليه مشقة غير محتملة وحرج على الناس، أو يترتب عليه ضرر وخطر على حياة العبد؛ فإن الأمر يخفف على وجه مأذون فيه، وفق قواعد الشريعة وأصولها.

وإن لم يترتب عليها شيء مما سبق؛ فلا يبالغ في العبادة، ولا يشدد فيها، إنما يأتي بها العبد على الوجه المأمور، من غير زيادة ولا نقصان، زعمًا أن في الإتيان به على هذه الكيفية مزيد تقرب لله عز وجل؛ فإن أعظم التقرب لله جل جلاله هو امتثال الأمر كما أمرنا به تبارك وتعالى[2].

❁ **عدم إضمار الغل والغش والحقد والحسد لعباد الله، سليم من التعالي والتكبر على عباد الله، وهكذا هي صفات المحسنين.**

يقول الله عز وجل في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا)**[3].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٥، التسهيل، ابن جزي، ٢/ ١٩٦.

(٢) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص١٢٢، أثر الإيمان في تحصين الأمة، عبد الله الجربوع، ١/ ٤١٢، حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، ١/ ٣٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب،

ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ما يفضي إلى إعراض الناس عن الحق؛ مبينًا لنا خطر هذه الأخلاق على أمة متماسكة، أنها إذا فشت فيها؛ فإنها ستذهب بدينها الذي هو سبب عزتها، وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم: (دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم)[1].

- سالم من التعظيم لنفسه والعجب؛ لأنه يرجو لنفسه أن يكون من جملة عباد الله.

وقد من الله بتحقيق رجائه فقال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١].

يرجو هذا الرجاء، وقد جعله الله إمامًا يعدل أمة؛ فهو سليم من الحرص على الدنيا، سليم من كل مرض وعيب، سليم من كل داء وعطب مما ذكره الله في كتابه، أو جاء ذم صاحبه في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ)[2].

باب قوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن)، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٦.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد والورع، باب رقم ٥٦، ٤/ ٦٦٤، رقم ٢٥١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة النار، باب صفات أهل الجنة وأهل النار، ٨/ ١٦٠، رقم ٧٣١٢.

دعوته عليه السلام

أولًا: معالم دعوته:

جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحدٌ)**[1].

وفيه تفسير لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فجاءت دعوته على هذا السنن، دعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ونبذ الشرك وشريعة الشيطان، وقد برزت معالمها على النحو التالي:

١ . إعلان التوحيد.

وقد أعلن ذلك في مواقف عديدة، وبعبارات متنوعة، ذكرها القرآن في مواضع متفرقة، نذكر منها ما جاء في سورة العنكبوت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦].

حيث إنه أمرهم بعبادة الله وحده، محذرًا إياهم من عقابه.

٢ . إنكار الشرك.

فقد أنكر عليه السلام أن يكون حق الألوهية لغير الله، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فوصف هذا الفعل بالضلال، لو فعله أي أحد كائنًا من كان، فهو يخاطب أباه وقومه.

٣ . البراءة من الشرك وأهله.

تبرأ من قومه ومن أفعالهم بعد أن رأى إصرارهم على ما هم عليه من عبادتها.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

٤ . إعلان العداء لهم ولآلهتهم.

عندما تيقن من خبر الله له أنهم لن يتركوا عبادتهم للأصنام، أعلن العداوة بينه وبين معبوداتهم.

يقول الله مخبرًا عنه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]،٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٣.

٥. الهجرة من البلد الذي يعادي دين الله.

وذلك حينما أوقدوا له النار؛ بسبب ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، ونبذ الشرك بالله تبارك وتعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩].

ثانيًا: أساليب دعوته:

التنويع في أساليب الدعوة أمر هدى الله إليه رسله وأنبياءه؛ فإن لكل مقام مقالًا، ولكل حادثة حديثًا، والأسلوب الذي يحسن استعماله في موطن؛ لا يصلح أن يستعمل في موطن آخر، وهذا من الحكمة التي آتاها الله إبراهيم عليه السلام؛ فقد استعمل مع قومه أساليب نظرية في دعوتهم، وأخرى عملية، سنعرض لها على النحو التالي:

١. الأساليب النظرية.

- الحوار.

يقص علينا القرآن الكريم ما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه من حوار حول عبادة غير الله.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

حوار عذب هادئ رصين، ملؤه الحنان والعطف والشفقة، سمته الأدب والبر والتقدير، وهذا من جهة إبراهيم[1].

وفي المقابل الفظاظة والجفاء والغلظة من جهة والده، وتظهر السمات سالفة الذكر في أسلوب إبراهيم عليه السلام من خلال ما يلي:

نادى والده مستعملًا في ندائه تاء الاحترام (أبت) بدلًا من استعمال ياء الإضافة.

لم ينعت أباه بالجهل، بل أشعره بأنه يعترف بما لديه من علم، لكنه أخبره أنه قد أتاه الله علمًا زائدًا على الذي عنده.

طلب منه أن يتبعه؛ معللًا ذلك بأنه قد عرف طريق الحق، ولم يذكر له أنه على طريق عوجاء.

ذكر له الداعي الذي دعاه لهذا الحوار-

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١١.

الأمر الذي قد يراه أبوه جرأة منه عليه-، وهو الخوف والإشفاق على أبيه من عذاب الله تعالى.

قوله له بعد التهديد والوعيد الذي قابله به: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

• التعريض والإشارة.

وذلك في يوم اجتماع لقومه يعظمون فيه النجوم، خرج معهم وأظهر أنه سيفعل مثل فعلهم، وما كان ذلك عن إيمان، وإنما مجاراة لهم؛ ليبين لهم ضعف عقولهم، إذ لم يتفكروا ولم يتبصروا، فالمعبود الذي يستحق العبادة لا ينبغي له أن يتغيب عن عبيده، ولما كانت النجوم تظهر وتختفي؛ كان هذا دليلًا على نقصها وعجزها[1].

يقول الله سبحانه وتعالى عن هذا الأسلوب وكيف وظفه إبراهيم عليه السلام:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ
عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ
قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى
رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا
رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ
فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وكان من حكمته أن قد بدأ بالأصغر؛ ليبين أنه إن لم يستمر في الظهور؛ فلا يستحق أن يعبد، ثم ثنى بما هو أكبر، وهو القمر، فلربما كان هو الأبقى الذي يستحق العبادة؛ لأنه أقدر على الظهور، فلما غاب؛ بين لهم أنه جدير بالكفر بعبادته، ثم التفت إلى الشمس وقد كانت منافعها أكثر، لكنها جرت على سنة سابقيها من الاختفاء؛ فكانت لها نفس النتيجة، وهي عدم استحقاق العبادة.

• الدعوة إلى التبصر والتدبر.

كان إبراهيم أمة كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه، فقد استنفد كل الأساليب والوسائل في دعوة أبيه وقومه، وذكر الله جل جلاله أمثلة عليها.

ومن هذه الأمثلة قوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ
﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ
إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٨.

[الشعراء: ٦٩-٨٢].

دعاهم إلى النظر والتأمل في طبيعة آلهتهم، فهل لديها ما يوجب لها العبادة من مقومات الألوهية، فهل هي تسمع دعاءهم؟ وهل يمكنها جلب المنافع لهم؟ أم هل يمكنها دفع المضار؟ فأجابوه: بأن هذا فعلٌ عهدوا عليه آباءهم، فهم متبعون لهم على هذه الطريقة؛ فأخبرهم بأن هذا لا يبرر فعلهم، وهو فوق ذلك يعلن العداء لكل معبود عبده قومه وآباؤهم، إلا أن يكون المعبود هو الله؛ لأنه وحده الذي بيده الرزق، وهو الذي بيده الشفاء من الأمراض، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يغفر الذنوب جميعًا يوم القيامة، ففيه الرجاء لفعل هذا؛ فهو حقيق بالعبادة[1].

- المحاجة والمجادلة.

ويظهر هذا الأسلوب في موقفين ذكرهما القرآن:

الموقف الأول: حين خوفه قومه من آلهتهم أن تصيبه بسوء:

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا المشهد: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

الموقف الثاني: مع النمرود:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

- الاستهزاء والتهكم.

وقد ذكر الله له ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: عند دعوتهم له؛ ليشهد عيدهم الديني:

ويصف المولى هذا المشهد قائلًا: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٨٨-٩٢].

ولنا وقفة مع هذه الآيات الثلاث، حيث إن المفسرين اختلفوا في سبب قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ على أقوال كثيرة؛

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٩٢.

ليخرجوها مخرج الصدق، وهو بلا شك مقصد حسن.

لكنه يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدةٌ في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك)[1].

وذهب بعض العلماء إلى رد الحديث، وتضعيفه، وهو مروي في الصحيحين.

إن الناظر في اختلاف المفسرين في هذه المسألة يجدها على أقوال[2]، وإن كانت محمولة على الاعتذار لنبي الله إبراهيم عليه السلام، إلا أنها تضعف عن النهوض للتوفيق بين ما يرونه وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم في إبراهيم عليه السلام.

والذي يؤكد أن الكذب هنا هو المراد حقيقة، وذلك في حديث الشفاعة الذي جاء فيه قول إبراهيم عليه السلام حين يأتيه الناس؛ ليشفع لهم: (فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذباتٍ)[3].

ولكنه كذب لا يذم فاعله؛ كغيره من الأنواع التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أعده كاذبًا، الرجل يصلح بين الناس، يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها)[4].

وما واحد من هذه المواطن في الشرف بمكانة، مثل المواطن الذي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، إذن هو كذب مشروع، ومأجور عليه صاحبه، وما كان من اعتذار لإبراهيم عليه السلام عن الشفاعة، -معللًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، ٧/ ٩٨، رقم ٦٢٢١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٦٣، الوجيز، الواحدي، ص٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ذرية من حملنا مع نوح)، ٦/ ٨٤، رقم ٤٧١٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٢٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨١، رقم ٤٩٢١. وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٢٠٤.

ذلك بهذه المواقف-، إلا حياؤه من الله عز وجل؛ لأنه كان بإمكانه أن يأتي بالعزيمة؛ لبيان الحق في تلك الأقوال مباشرة، وتحمل تبعات ذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، والله جل جلاله أعلم.

وتوجيه القول بأن ما صدر من إبراهيم إنما هو كذب؛ أن قوم إبراهيم عليه السلام حينما دعوه لحضور عيدهم، -وكانوا قومًا يعظمون النجوم-؛ فنظر إلى النجوم قائلًا: إني سقيم أعجز عن حضور عيدكم، فإن كانت هذه النجوم التي تعظمونها قادرة على شفائي؛ أذهب معكم، حينها تولوا عنه مدبرين، حيث إنه أفحمهم بحجته، وقد علموا أنه إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء؛ فتركوه؛ حتى لا ينغص عليهم عيدهم، ويسمعهم ما يكرهون في آلهتهم.

وهي ليست بالأمر الغريب على إبراهيم عليه السلام، فقد سبق له أن خاطبهم بالطريقة نفسها، حينما بين لهم عدم صلاحية الشمس والقمر والنجم للعبادة، حيث أوهمهم بقوله كما يبينه لنا القرآن: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام: ٧٦].

مرة في الكوكب، ومرة في القمر، ومرة في الشمس، وهو لا يريد بقوله هذا أنه آمن بها، وإنما أراد التدرج معهم؛ لبيان عدم صلاحيتها للألوهية.

وهذه كانت قبل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وفي مرة أخرى حينما سألوه عمن حطم آلهتهم، قال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣].

وهذه حدثت بعد قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقد توسطت هذه الحادثة، تلكما الحادثتين، وهما من قبيلٍ واحد، وقد أشبهتهما هذه الحادثة؛ فلا يمتنع أن تكون من جنسهما، أي: أنه قال هذا القول على سبيل الاستهزاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

الموقف الثاني: قبل تحطيم الأصنام:

حين دخل على الأصنام، وقرابين قومه التي قربوها إليها موضوعة أمامها؛ فسأل الأصنام، -وهو يعلم أنها لن تجيبه-، فكان سؤالًا على سبيل الاستهزاء بفعل قومه، فهو يعلم أنه لا ذنب لحجر -لا اختيار له فيما صنع به من التعظيم-؛ ليكون ندًا لله عز وجل.

يقول الله تبارك وتعالى مخبرًا لنا عن هذا الموقف: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣].

ثم قام بتحطيمها لا عقوبة لها، ولكن تبكيتًا لقومه، وتنفيذًا لوعيده الذي توعدهم به، واستحضارًا بهذا الفعل لعقولهم؛ لعلهم يرشدون حين يرون آلهتهم وهي محطمة، لم تستطع الدفاع عن نفسها(١).

(١) انظر: مراح لبيد، عمر الجاوي، ٢/ ٣٠٤.

الموقف الثالث: بعد تحطيم الأصنام:

بعد ذهاب قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم فعل إبراهيم عليه السلام ما كان قد توعدهم به من كيد للأصنام، فقام بتحطيمها، ثم لما رجعوا؛ وجدوا ما حل بها، فتساءلوا عمن فعل هذا بها؟، ثم تذكروا أن إبراهيم عليه السلام قد ذكرها وتوعدها، فذهبوا إليه؛ ليتثبتوا منه، وقد أضمروا الكيد به، والانتقام لآلهتهم من فعلته.

وقد كان بينهم هذا الحوار، حيث يقول الله عز وجل: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٧].

قالوا له: هل أنت الفاعل بآلهتنا ما نراه يا إبراهيم؟ فأجابهم إجابة يعلم أنها ليست بحق، ولكنه أراد بهذه الطريقة أن يوقفهم على ما فيه نقص عقولهم بمنهاج عملي، ولنا معه وقفة، فهو لما قال لهم: إن الفاعل هو أكبر أصنامهم، وأشار عليهم بأن يسألوه هو بدلًا من أن يسألوا إبراهيم عليه السلام، وهو يقول لهم ذلك مستهزئًا بعجز آلهتهم؛ لعلمه القاطع بعدم قدرتها على الإجابة، توقفوا مع قول إبراهيم عليه السلام، وفهموا مراده.

لكن سرعان ما انقلبوا رأسًا على عقب؛ فقد أقروا بعجز آلهتهم، ثم لم يلبثوا أن تركوا التأمل في طبيعة أصنامهم، واحتجوا لأنفسهم على إبراهيم عليه السلام بما أراده أن يكون حجة عليهم، فإذا بلغ منهم الأمر هذا المبلغ؛ فأي رجاء حينئذٍ في هداية قوم احتجوا بالباطل البين -الذي هو حجة على بطلان الباطل-؛ فجعلوا به الباطل حقًا؟

فجاء رد إبراهيم عليه السلام بالتضجر منهم ومن عقم تفكيرهم، متسائلًا كيف تقبلون على أنفسكم أن تكونوا عبادًا لشيء لا يحصل لكم منه نفع، ولا يحل بكم منه ضر؟! وأكبر دليل أنه لا يستطيع أن يشفي غليلكم في إجابة هذا السؤال الذي أنتم بحاجة ملحة لمعرفة إجابته، أين عقولكم؟!!![1].

٢. الأساليب العملية.

- **اعتزالهم ورفض المشاركة في أعيادهم.**

هذا خبر إبراهيم عليه السلام حين دعاه قومه للاحتفال بعيدهم، وكيف رد عليهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٠٢.

[الصافات: ٨٨-٩٠].

قد مر معنا في الأساليب النظرية أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل مع قومه في هذه الحادثة أسلوب التعريض والاستهزاء في عبادة النجوم، وبيان عدم قدرتها على الثبات على حال الظهور، وعجزها عن تحقيق الخير الذي يرجوه الإنسان من معبوده.

وقد كان الموقف الأخير حين جاءوا إليه لدعوته لأن يشاركهم في عيدهم؛ فرفض وتهكم بهم وبعيدهم ومعبودهم؛ ففروا من أمامه؛ لعلمهم أنهم لو مكثوا عنده مزيدًا من الوقت؛ لأسمعهم مما يكرهون في آلهتهم أكثر.

فجاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، فشبههم بالذي يفر من الزحف موليًا دبره للعدو خوفًا، لا من الهزيمة؛ فإنه لا يفعل ذلك انهزامًا، ولكن خوفًا من القضاء عليه.

وهم قد خافوا من أن يقضي إبراهيم عليه السلام على فرحتهم إذا قضى على صحة معتقدهم، وأبطل دينهم وحجتهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الحجة الدامغة في مواقف المحاجة والمناظرة[1].

تحطيم الأصنام.

يذكر الله عز وجل هذا الموقف من فعل إبراهيم عليه السلام بعد إقامة الحجة منه على قومه في مواطن كثيرة، وبعد سابق وعيدهم على أنه سيكيد أصنامهم، وبيان عدم خوفه منها، واستنفاد كل الأساليب النظرية في بيان الحق، فقد قام بأسلوب من نوع آخر، إنه الأسلوب العملي في إبطال الباطل، إنه تحطيم مصدر الخوف المانع لهم من اتباعه، والإثبات بطريق عملي حسي قاطع، شاخص أمام أعينهم، وماثل بين يدي عقولهم، وشاهد يسمعهم أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؛ فحري بهم أن يهجروها، وجدير بهم أن يهملوها، ولكن ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

ويأتي بيان الحال التي ترك عليها الأصنام في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

وإبقاء الكبير أيضًا كان من أجل تقوية الحجة على عجزهم، وذلك أنهم قد يظنون أن الحادث قد وقع بشكل مفاجئ؛ فلم تكن الفرصة للنجاة أو الدفاع عن النفس قد توفرت لديها، وهذا إنما يأتي على سبيل المجاراة لعقولهم العقيمة؛ وإلا فإن من

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٢١٦.

كان يستحق الألوهية يجب أن يكون محيطًا بعلم الحوادث قبل وقوعها، ولا يمكن بحال أن تغيره أو تؤثر فيه، فإن وجود الكبير والحال هذه دليل على عجزه عن الدفاع عن حاشيته[١].

* الهجرة.

بعد أن استفرغ إبراهيم عليه السلام وسعه، وبذل كل جهده، في إصلاح قومه، إلى أن انقطع أمله منهم، وذلك بعد أن بلغ بهم الإصرار والعناد مبلغًا، دفعهم إلى الكيد له، والسعي في قتله شر قتلة؛ هجرهم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

ويقول أيضًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

ولم يكن مراده الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى من الأرض إلى السماء؛ ليصير إلى جوار ربه، ولا الهجرة من بلد أهله وقومه إلى بلد آخر من أجل الدنيا، وإنما هجرة من الأرض التي يعبد غير الله عز وجل فيها إلى أرض يستطيع فيها عبادة ربه وحده لا شريك له[٢].

ولم يلجأ إلى هذا الفعل بمجرد أذى لحق به، فلطالما آذاه وقومه، ولكن الأمر قد بلغ النهاية، كما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أرادوا قتله، حينها أذن له بالهجرة.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٧٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٣/ ٧١.



محاجته عليه السلام لقومه وللملك

أولًا: محاجته عليه السلام لأبيه وقومه:

١ . محاجته لأبيه.

إن أعلى رتب الكمال البشري تكون حيث كمال الرجل بأخلاقه، وإن الوالدين هم أولى الناس بتحسين الأخلاق معهم بعد رسل الله عليهم السلام، وقد صور لنا القرآن هذا الخلق الحسن فيما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، وتقدم بيان هذا في ما سبق، حين تعرضنا لأسلوب الحوار في الدعوة.

وكان حوارًا أقام فيه إبراهيم الحجة على والده، ببطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، كما أخبر الله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

فقد أقام الحجة في هذا المقام، ببيان معالم العجز التفصيلية في آلهة أبيه، والمقتضية ممن له مسحة عقل، وملحة رشد أن يتبرأ من عبادتها؛ فهي عاجزة عن السمع لمن ناداها، عمياء عن رؤية من تقرب إليها وتولاها، ولا تغني شيئًا عمن استجداها، وما هي في حقيقتها إلا عبادة للشيطان، ومعصية للرحمن، وموالاة للعدو الأول للإنسان، فماذا كانت حجة الوالد، التهديد والوعيد، والطرد المديد، وهذه حجة من بغى وطغى، ليس فيها حق ولا هدى[(١)].

٢ . محاجته لقومه.

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام الدعوة إلى ترك ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام والتصديق بالنجوم وهجرهما، والتوجه إلى الله جل جلاله بالتوحيد الخالص، وكان قومه يخافون من أن يكون للأصنام والنجوم تأثير في مقادير الناس؛ فحذروه من أن يصيبه من شؤم فعله على حد تعبيرهم ما يكره؛ فرد عليهم أنهم أهل لهذا الخوف بما اعتقدوه في أصنامهم من هلاوس، وما أحدثه الشيطان في نفوسهم من وساوس.

أما إبراهيم عليه السلام فهو في أمان من هذه الهواجس، فمن خاف الله سبحانه وتعالى؛ أمنه الله جل جلاله من كل شيء،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٩٤.

ومن خاف غير الله عز وجل؛ أخافه الله تبارك وتعالى من كل شيء[1].

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا الحوار: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

أعطى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام الحجة في كل موطن؛ فكان الأعلى دائمًا على من وقف أمامه، وقد عجز قومه عن إقامة الدليل على صحة ما يعتقدونه؛ فلجأوا إلى أسلوب الإرهاب والتخويف بآلهتهم، فجاءهم الجواب من إبراهيم عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى قد هداه، فهو على غير شاكلتهم، لا يخاف إلا أن يقضي الله جل جلاله أمرًا أراد به أن يهلك أحدًا من خلقه، ولو أنهم كانوا يعقلون؛ لعلموا أن الله عز وجل وحده هو الذي يستحق أن يخشى بالغيب.

أما آلهتهم فليس هناك أدنى مبرر للخوف منها، فعلى الأقل هي لا تسمع؛ فهي صماء، لا تبصر؛ فهي عمياء، لا تنطق؛ فهي بكماء، لا تعقل؛ فهي بهماء، لا تتحرك؛ فهي شلاء، ولا تعبر؛ لأنها عجماء، فلا علم لها بأي شيء، ولم يمنحها الله جل جلاله القدرة على أي فعل مما يحذرون، والله سبحانه وتعالى هو السميع البصير، حكيم في أفعاله وأوامره ونواهيه، عطاؤه كلام، ومنعه كلام، وخلقه كلام، يفعل ما يشاء بقدرته، ويقضي ما يريد بحكمته، عالم الغيب والشهادة، وهو الرحمن الرحيم، فمن الذي يستحق أن ينطبق عليه وصف الخوف؟، الذي آمن بالله جل جلاله وكفر بكل إله سواه، أم من كفر بالله واتخذ من الأصنام والنجوم إله!![2].

الحق الساطع واليقين القاطع هو أن الذين آمنوا بالله، ولم يشركوا به هم أحق الناس بالأمن، ولو أن قومه يعقلون أو يرشدون؛ لسلموا لهذا الأمر وصدقوه، وآمنوا به واتبعوه، وهذا الحديث الذي جاء على لسان إبراهيم عليه السلام هو من توفيق الله جل جلاله له، ومن حجته التي ألهمه إياها، أو أوحى بها إليه.

٣. محاجة الملك.

إنه النمرود، الذي ملك الأرض شرقها وغربها، وكان الناس في ذلك الزمان قد

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٨٨.

أصابهم الجدب، وكانوا يذهبون إليه؛ ليأخذوا ما يحتاجونه من الطعام والشراب؛ فيمتحنهم بهذا السؤال: من ربك؟ فمن قال له: أنت ربي؛ أعطاه، وكان فيمن جاءه إبراهيم عليه السلام فسأله: من ربك؟ فجاء جواب إبراهيم كما ذكر القرآن.

وكانت بينهما تلك المناظرة، والتي ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨][(١)].

يذكر الله سبحانه وتعالى أمرًا عجب منه عز وجل، وذكره على سبيل التعجيب لقارئ القرآن منه، وهو أن عبدًا من عبيده، أنعم عليه وملكه على الأرض؛ فقابل هذا الفضل بالكفر بدل الشكر، وإنه ادعى الربوبية، وامتحن الناس فيها، وكانوا يجيبونه لما أراد، إلى أن جاءه إبراهيم عليه السلام؛ فدعاه لما دعا إليه الناس؛ فأجابه على غير ما أراد، وبين له أنه مربوب لمن يستحق الربوبية بكونه يملك الإحياء والإماتة؛ فعارض المغرور قول إبراهيم؛ بأنه يملك ما نسبه إبراهيم عليه السلام إلى ربه، فهو بإنفاذه حكم القتل على أحد يميته، وبإيقاف هذا الحكم عن محكوم عليه به يحييه، ولكن إبراهيم عليه السلام الذي آتاه الله الحجة، وأيده بالمحجة، عدل عن النزول إلى مناقشة هذا الغباء، واختار طريق الإفحام، بالاحتجاج بأمر لا يطيقه بشر، فقال له: إن ربي يأتي كل يوم بالشمس من المشرق؛ فافعل ضد هذا أنت وأت بها من المغرب، فألجم وأفحم، وأبلس وأخرس، فكيف يكون لغبي أن يحاجج نبيًا؟! وهل يجوز لأخرق أن ينال البيرق؟! إنها حجة الله جل جلاله وتقدست أسماؤه.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري،٥/ ٣٥، تفسير القرآن،أبو المظفر السمعاني،١/ ٢٦.

إبراهيم عليه السلام والبيت الحرام

أولًا: إبراهيم عليه السلام وإعمار البلد الحرام:

كان إبراهيم عليه السلام أمة، كما أخبر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

فقد أحيا توحيد الله عز وجل في الأرض بعد خلوها منه عند البشر، وشرق في الأرض وغرب من أجل هذا المقصد، حتى البلد الحرام في ذلك الزمان كان قد خلا ممن يعبد الله جل جلاله فيه؛ فذهب إليه بولده الوحيد، وزوجه الضعيفة، وأسكنهما في مكان قفر، ليس فيه معلم من معالم الحياة.

وجاء خبر هذا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٨].

وتفسير هذا جاء في صحيح البخاري:

قال ابن عباسٍ: (أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل عليه السلام وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ.

فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قفى إبراهيم عليه السلام منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل عليه السلام فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ - ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل عليه السلام ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا

أقرب جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مراتٍ.

قال ابن عباسٍ: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت صهٍ - تريد نفسها -، ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينًا معينًا).

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقةٌ من جرهم، أو أهل بيتٍ من جرهم، مقبلين من طريق كداءٍ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عليه السلام عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس).

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم عليه السلام بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل عليه السلام، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك

فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ولم يكن لهم يومئذٍ حبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخيرٍ، قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل عليه السلام يبري نبلًا له تحت دوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد)[1].

وهكذا بدأ إعمار البلد الحرام، إلى أن أراد الله سبحانه وتعالى أن يتم بناء المسجد الذي سيكتمل به الإعمار، والحديث عنه في ما يلي.

ثانيًا: إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة:

يأتي الحديث في سورة البقرة عن سيدنا إبراهيم، وبيان فضل الله سبحانه وتعالى عليه بجعله إمامًا للناس، إلى أن ذكر بناء المسجد الحرام، وعقب بعد ذلك بتكرار الثناء على إبراهيم وتأكيد إمامته، بحيث لا يقبل الله جل جلاله ملة غير الملة التي كان عليها، وأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه، وبين السبب لذلك؛ أنه قد أسلم لربه بما أمره به.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب...، ٤/ ١٤٢، رقم ٣٣٦٤.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ
ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ
قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا
وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ
لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن
يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ
وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ
لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٣١].

قال ابن عباسٍ: (ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام، فقال لأهله: إني مطلعٌ تركتي، فجاء فوافق إسماعيل عليه السلام من وراء زمزم يصلح نبلًا له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك أمرني أن أبني له بيتًا، قال عليه السلام: أطع ربك، قال عليه السلام: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، قال عليه السلام: إذن أفعل، أو كما قال عليه السلام: قال فقاما فجعل إبراهيم عليه السلام يبني، وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧])[1].

وهكذا شرف الله عز وجل إبراهيم وولده إسماعيل ببناء أعظم بيت على وجه الأرض، ليكون به الإعمار لأرض الله كلها، فما من مسلم يريد الصلاة في بقعة من بقاع الأرض إلا وهو يتوجه إلى المسجد الحرام الكعبة.

ولم يقتصر إعماره للبلد الحرام على هذا الحد، بل إنه توجه إلى الله جل جلاله بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهذه الدعوة هي التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه العرباض بن سارية أنه قال: (إني عند الله مكتوبٌ: خاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته وسأخبركم بأول أمري دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نورٌ أضاء لها منه قصور الشام)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٤، رقم ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠.
وصححه الألباني، في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١٦٠٤، رقم ٥٧٥٩.

والذي نراه اليوم من عمران في الدنيا كان بدعوة منه عليه السلام، فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الرسول الذي دعا بمجيئه إبراهيم عليه السلام، وها هي أمته تعمر ذلك المكان وقلوبها تهوي إليه، عمارة بتوحيد الله وتعظيمه، بما علمهم إياه الرسول من الكتاب والحكمة، وزكاهم به من تنقيتهم من الشرك والبدع والمعاصي.

[انظر: مكة: إبراهيم عليه السلام ومكة]

ثالثًا: إبراهيم عليه السلام وفريضة الحج:

عهد الله جل جلاله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد بناء بيته الحرام بتطهيره وتهيئته للقاصدين له تعبدًا بألوان العبادات، من الاعتكاف والصلاة، ثم أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك أن ينادي بالناس لحج بيته الحرام.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ -٢٧].

وقبل ذلك كان قد دعا بدعوة أجابه الله سبحانه وتعالى بما أمره به في هذه الآية، يقول الله جل جلاله مخبرًا عن دعوته تلك بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكانت فريضة الحج فريضة ماضية إلى يوم القيامة من لدن إبراهيم عليه السلام إلى قيام الساعة، ومناسكها هي مناسك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان ذلك ثمرة دعائهما، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩].

وهي التي علمنا إياها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: (خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا)[1].

وما زالت قلوب الناس تهوي لأدائها، ويأتون لأهل هذا البلد بالأرزاق معهم، ويجدون فيها كما نسمع ونرى في هذا الزمان من كل الثمرات في الموسم الواحد، وهذا كله من كرم الله جل جلاله على إبراهيم وذريته.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ٥/ ٢٠٤، رقم ٩٥٢٤، وأصله في مسلم بلفظ: خذوا مناسككم.

إبراهيم وذريته عليهم السلام

أولًا: التبشير بالذرية الصالحة:

مضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يكافئ على الإحسان بالأحسن، وأن من ترك شيئًا من أجله؛ أن يعوضه الله خيرًا منه، كما جاء في الحديث المسمى بحديث الأعرابي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله إلا أعطاك الله خيرًا منه**)[1].

وقد هجر إبراهيم عليه السلام أباه وقومه؛ فأبدله بالذرية الصالحة، وجعل النبوة فيها، كما هجر العراق؛ فأبدله الله بيت المقدس ومكة، وقد جاءته البشارة بالذرية الصالحة، على كبره، وتقدم سنه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠١].

وهي البشارة بإسماعيل عليه السلام، ومن بعدها البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

وقد جاء لنا وصف البشارة بإسحاق، والحالة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، والتي كانت عليها زوجه سارة عند البشارة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

وما أعظمها من نعمة، أفردها إبراهيم عليه السلام بالحمد لربه جل جلاله؛ استشعارًا منه بعظمتها عليه، حيث أخبر الله عز وجل عنه بذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وذلك أنها جاءته على حال عجز، وانقطاع أمل ممن هو في مثل حاله، الأمر الذي دعا سارة رضي الله عنها أن تعجب منه؛ فذكروها بأنها إرادة الله الذي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وزادوهم بالدعاء والرحمة من الله تبارك وتعالى على ما قاموا به من حق الله جل جلاله، وصبروا.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٣٤٢، رقم ٢٠٧٣٩.
وصححه الألباني، في السلسلة الضعيفة،١/ ٦٢ في كلامه عن الرقم٥.

ثانيًا: النبوة في ذريته:

وجعل الله في ذريته عليه السلام النبوة والرسالة كما جعلها في ذرية نوح عليه السلام.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقد خصه الله بالذكر في هذا الأمر في موضع آخر من كتابه حيث يقول جل جلاله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عددًا ممن كان من الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا)[(١)].

فالإجابة الأولى كانت من النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الإيمان الذي هو ميزان التفاضل بين عامة الناس، فلما أخبر الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا ليس مقصدهم من السؤال؛ كانت الإجابة الثانية، حيث إن يوسف نبي، ابن يعقوب نبي، ابن إسحاق نبي، ابن إبراهيم النبي خليل الله -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، والإجابة الثالثة كانت باعتبار خيرية الصفات التي جبلت عليها العرب بحسب القبائل وما اختصت به.

الشاهد من الحديث الإجابة الثانية التي تبين منها أن اتصال النسب بالنبوة إلى إبراهيم عليه السلام جعل حامله أكرم الناس نسبًا، فهي ذرية طيبة من أصل طيب.

يقول الله جل جلاله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤٠، رقم ٣٣٥٣.

﴿... نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

[مريم: ٥٨].

فهم صفوة الله من خلقه، وكانوا بعد إبراهيم كلهم من ذريته، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وعلى رسولنا أطيب الصلاة وأفضل السلام.

ثالثًا: قصة الذبيح:

الذبيح هو أحد أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد زعم اليهود أنه إسحاق عليه السلام، وقد استندوا في ذلك لنص موجود في التوراة المحرفة عندهم يقول: «اذبح ولدك بكرك، ووحيدك إسحاق»[1]، وهو أمر يختلف مع ما جاء في شريعتنا، وعليه فهو مما ينبغي رده -وإن حصلت الموافقة لهم في ذلك من بعض علماء المسلمين-، إلا أن جمهور أهل العلم على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام.

ولا يعد هذا انتقاصًا من قدر إسحاق عليه السلام، فقد تقدم في الحديث الذي مر آخرًا من أنه كريم ابن كريم، ولا يزعجنا -نحن كمسلمين- أن يكون إسحاق عليه السلام هو الذبيح -إن ثبت هذا بما يدفع كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام-.

لكن القول بهذا الأمر مردود من وجوه عديدة ذكرها ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان[2] في بيان بطلان النص آنف الذكر المثبت في توراتهم.

وقد جاء ذكر هذا الأمر في سورة الصافات بما يجزم أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

[الصافات: ١٠١-١١٢].

فعطف بالبشارة الثانية على البشارة الأولى عطفًا يقتضي التغاير؛ فكانت النتيجة أن الأول غير الثاني، وكانت الثانية مصرحة بأن المبشر به هو إسحاق عليه السلام، أي: أن المبشر به الأول الذي هو الذبيح هو غير إسحاق عليه السلام، فيكون إسماعيل عليه السلام، وهو الولد البكر لإبراهيم عليه السلام، -وعليهم جميعًا صلوات الله وسلامه-، وهذا فيه رد

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ٣٥٥.

(٢) انظر: المصدر السابق.

على أهل الكتاب، ومن اشتبه عليه الأمر من المسلمين[1]، حيث وقعت من بعضهم الموافقة لليهود في هذا القول[2]، ومن أراد التوسع في الاطلاع على مزيد من أوجه الرد؛ فلينظر إغاثة اللهفان، وفيها من الفوائد والعبر ما سنذكره -إن شاء الله- لاحقًا.

رابعًا: الدعاء لذريته:

جعل الله سبحانه وتعالى غريزة حب البقاء، والنساء في الأثر، والتناسل والتوالد، غريزة في الإنسان، يشاركه فيها الحيوان، لكنه ينفرد عن الحيوان إذا ما أراد بهذا الأمر الحفاظ على ما خلقه الله عز وجل من أجله، وهو إعمار الأرض بالتوحيد وعبادة الله جل جلاله، وهذا ما كان عليه أنبياء الله سبحانه وتعالى، والصالحون من عباده؛ فنجد أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام لما علم بأن الله اصطفاه، واختاره لمهمة الإمامة للناس؛ أحب أن يجعل الله هذا في نسله وذريته؛ فأراد منهم أن يكونوا خالصين مخلصين لرب العالمين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فأرضاه الله سبحانه وتعالى، بأن بين له أن هذا كائن له في ذريته لمن قام بحقه مثل ما قام إبراهيم الذي كافأه الله به بحقه، أما الظالمون فلن تنالهم دعوته عليه السلام.

لما علم إبراهيم عليه السلام أن ذريته سيكون منهم الظالم؛ جاء دعاؤه لهم بعد ذلك يخص به الصالحين منهم، وذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه قد تكفل بالرزق لمن آمن ومن كفر، لكن تذكيرًا منه لنبيه عليه السلام، وبيانًا لنا، أن الذي يتوعد الله به من كفر به- وإن كان له من المتاع في الدنيا ما يغتر به- هو العذاب المقيم في نار جهنم، المكان الذي لا يملكون أن يتحولوا عنه إلى غيره[3].

إن من المواطن التي يرفع فيها الدعاء إلى الله تبارك وتعالى، ويقبله جل جلاله، الموطن الذي يكون العبد فيه قائمًا بطاعة الله، ويتأكد هذا الأمر عندما تكون هذه الطاعة من فرائد الطاعات.

وقد كان الأنبياء أفقه الناس بهذا؛ لذلك

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤/ ٣٣١، التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٣/ ١٤٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٧٩، زاد المسير، ابن الجوزي،٣/ ٥٤٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٢.

لما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، وأعانه على ذلك ولده إسماعيل عليه السلام؛ استجابة لله جل جلاله، استثمروا هذا المقام العظيم الذي اختارهم الله عز وجل له، وسألا ربهما بهذا الدعاء.

يقول الله سبحنه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

ما أعظمه من نفع، قصداه لمن يأتي من نسلهما، الإسلام النعمة العظمى، والمنحة الكبرى، التي تكون به سعادة الأولى والأخرى، وبيان المناسك التي يرضاها الله عز وجل، وأن يكرمهم وينعم عليهم برسول أمين، يتلو عليهم كلام رب العالمين، ويزكي نفوسهم بما تزكو به نفوس المؤمنين، عليهما من الله صلاة وتسليم؛ بما أقاماه أو كانا سببًا في إقامته من الدين القويم.

وقد ذكرنا أيضًا في ما سبق ما كان من دعائه حين ترك إسماعيل وأمه هاجر عند بيته الحرام، والذي ذكره الله في سورة إبراهيم، وقد جاء فيه من دعائه، بالثبات على التوحيد، وتحقيق الأمن للبلد الحرام، وأن ييسر الله سبحانه وتعالى لهم من يؤنسهم من تلك الوحشة من الناس، وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يجعلهم من المقيمين الصلاة، وممن امتن الله جل جلاله عليهم بإجابة الدعاء.

خامسًا: وصية إبراهيم عليه السلام لذريته:

إذا شعر الإنسان بدنو أجله؛ فإنه يتفقد أحوال من يحب، وإن كان موسرًا؛ فإنه يوصي لهم؛ حتى لا يدعهم عالة يتكففون الناس، فعلم إبراهيم عليه السلام ما أكرمه الله جل جلاله به من الرضا واستجابة الدعاء؛ فدعا لهم بكل خير ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذه تركته لهم، وكان يعلم عليه السلام أن الرفعة والمكانة التي أكرمه الله بها مردها إلى النعمة العظمى، التي حباه الله عز وجل بها، وهي نعمة الإسلام؛ فأثابه في عاجل الدنيا، بأن جعل الملة التي رضيها الله سبحانه وتعالى منسوبة إليه، فلا يقبل سبحانه وتعالى من عبد غيرها، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

[البقرة:١٣٠-١٣١].

وقد أخبره الله عز وجل أن من ذريته من سيكون ظالمًا لنفسه؛ فأوصاهم بما

يحبه لهم من الخير، وأسباب حفظ نعمة الله جل جلاله عليهم، وهي أن يكونوا على الحالة التي وفقه الله سبحانه وتعالى إليها، بأن يسلموا لله رب العالمين[1]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وأن يظلوا على العهد الذي فارقهم عليه إلى أن يموتوا؛ ليكونوا من صفوة الله الذين اصطفاهم من عباده على العالمين، وقد صدقوه فيها؛ فكانت وصية يعقوب لأولاده أيضًا.

وقد أخبر الله عز وجل عن هذه الوصية التي أوصى بها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقد ورث هذه الوصية أبناؤه، ممن هم على طريقته وهداه؛ لما عندهم من العلم بأهمية هذه الوصية، فأخذ يعقوب عليه السلام العهد من أولاده؛ بأن يكونوا على ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وأبناؤه إسماعيل وإسحاق، وهم آباء يعقوب الذي كان على ما كانوا عليه، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم عليه السلام كان على ملتهم، وفيه رد على المشركين ببيان الملة الحنيفية الخالصة من كل ألوان الشرك وأنواعه، وهي التي كان عليها أبوهم إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليه السلام[2].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٥٠٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.

الدروس المستفادة من قصة إبراهيم

١. يرفع الله جل جلاله العبد على قدر ما يبذل في سبيله، ما استقام على الشريعة، ولا يمكن أن ينال الرفعة بغير ذلك، وهو بذل الجهد مع الاستقامة على الشريعة.
٢. من ترك شيئًا لله؛ عوضه الله عز وجل خيرًا منه، لما هجر إبراهيم عليه السلام قومه من أجل الله سبحانه وتعالى؛ اتخذه الله خليلًا.
٣. إمامة الدين لا تنال إلا بالصبر واليقين[1]، فإبراهيم عليه السلام لما صبر، وكان من الموقنين؛ صار إمامًا للعالمين.
٤. من أحيا ذكر الله؛ أحيا الله ذكره، وهذا ما رأيناه مع إبراهيم عليه السلام.
٥. حين يدعو العبد الناس لتوحيد ربهم -أجابوه أو لم يجيبوه-؛ يكافئه الله جل جلاله بإجابة الدعاء.
٦. أهل الإيمان أحق من في الوجود بالأمن.
٧. أمن الأوطان لا يتحقق إلا بالقيام بحق الإيمان.
٨. التوحيد أعظم نعم الله على العبيد.
٩. دعاء إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل ألا يعبد الأصنام، ووصيته لأبنائه؛ يفيدنا أن المؤمن على خطر إلى أن يتوفاه الله على الإسلام.
١٠. أهل الإيمان والتوحيد بعضهم أولى ببعض؛ لذلك كنا أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى، وكذلك أولى بموسى وعيسى منهم.
١١. أهمية الدعاء للذرية بخيري الدنيا والآخرة، والابتعاد عن الدعاء عليهم.
١٢. حسن البر والمعاملة مع الوالدين-وإن كانا على غير الإسلام-، ويجب أن يكون مقترنًا بالحرص على إسلامهم، ودعوتهم له بالحكمة والأدب؛ فإن أبر البر أن يكون العبد سببًا في عتق والديه من النار.
١٣. المؤمن الحق يستسلم لله في كل شؤونه، وينقاد له في كل أموره.
١٤. أشد ما يتأذى به المؤمن، ويتألم من أجله؛ إعراض الناس عن دين الله سبحانه وتعالى؛ غيرة عليه، وشفقة عليهم.
١٥. من صفات المؤمن طول القنوت بين يدي الله عز وجل؛ راجيًا عفوه ورضاه.
١٦. من استقام على توحيد الله جل جلاله، وأكثر من عبادته؛ هو رجل بأمة، خاصة إذا كثرت الفتن.

(١) انظر: الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٢٦١.

١٧. من كان موقنًا بوعد الله، متوكلًا عليه حق توكله؛ قد يغير الله سبحانه وتعالى من أجله نواميس الكون، فالنار التي أوقدت انتقامًا؛ صارت بردًا وسلامًا.

١٨. الوفاء بمعناه الحقيقي هو أن يوفي العبد بعهد ربه، وأن يقدمه ويقدم حبه وحب كل شيء أمر بحبه على ما تحبه النفس وتهواه.

١٩. التجارة مع الله هي الأربح على الإطلاق، أتم إبراهيم عليه السلام كلماتٍ ابتلاه الله بها؛ فجعله إمامًا للناس، وأورثها الله جل جلاله لذريته من بعده.

٢٠. على المؤمن أن يكون حكيمًا كريمًا، بارًا راشدًا، شجاعًا كريمًا.

٢١. المراد بسلامة القلب: أن يقوم العبد بما قام به إبراهيم عليه السلام من أعمال أهلته لذلك، وهي كما يلي:

- إنكاره للشرك.
- التوحيد والدعوة إليه.
- هجرة المنكرات وأهلها وأماكنها.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الثبات على دين الله عز وجل -مهما كانت التحديات-.
- تقديم حب الله على حب من سواه.
- تربية الأبناء على التوحيد، والاستجابة لأمر الله جل جلاله مهما كلفت من ثمن.
- عدم إضمار الغل والغش، والحقد والحسد لعباد الله تبارك وتعالى.
- أن يكون خليًا من أمراضه: التعالي والكبر، والأشر والبطر والعجب.

٢٢. معالم الدعوة ومرتكزاتها الأساسية في قصة إبراهيم عليه السلام:

- إعلان التوحيد.
- إنكار الشرك.
- البراءة من الشرك وأهله.
- موالاة الحق وأهله
- العداء لكل من عبد من دون الله سبحانه وتعالى ولعابديه.

٢٣. هجرة البلد والأهل والعشيرة؛ إذا لم يتمكن العبد من القيام بتوحيد ربه، وطاعته فيها.

٢٤. التنويع في أساليب الدعوة؛ لأن الناس ليسوا على طريقة واحدة في الفهم والإدراك والتفكير، فيخاطب كل فريق بما يتناسب معه من أسلوب، فالدعوة فن؛ فينوع ما بين الحوار، والتعريض، والدعوة إلى التبصر والتأمل، المجادلة بالتي هي أحسن، وقد يلجأ إلى الاستهزاء الهادف المنضبط بالآداب السامية، فلا يكون الغرض منه الإحراج، وإنما يكون الإيضاح وبيان

الحقائق، وهذه أساليب نظرية.

٢٥. هناك أساليب عملية قد يلجأ إليها الداعية، وهي: أن يعتزل الناس عند قيامهم بالمنكرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد واللسان والقلب، -حسب المصلحة الراجحة-، والهجران والإعراض بالكلية.

٢٦. الجدل له آداب لابد وأن يتحلى بها الداعية، منها:

- الشجاعة.
- أن يكون الجدال هادفًا.
- إغفال المهاترات، وعدم مجاراة الطرف الآخر فيها.
- إظهار النصح، وحب الخير.
- عدم إظهار الرغبة في قهر الطرف الآخر.
- أن يكون بالدليل والبرهان.

٢٧. هجر إبراهيم عليه السلام أرض العراق لله؛ فأبدله الله عز وجل بها خير بقاع الأرض، وأكثرها بركة، بيت المقدس والبلد الحرام.

٢٨. هدم إبراهيم عليه السلام الأصنام؛ فأكرمه الله جل جلاله ببناء المسجد الحرام.

٢٩. أذن في قومه ببطلان الشرك، وتحقيق التوحيد؛ فأكرمه الله سبحانه وتعالى بالأذان بالتوحيد، وتلبية الناس له إلى قيام الساعة.

٣٠. بشره الله بالذرية، وأكرمه بها في وقت هو أحوج ما يكون إليها، وأعانه على تربيتها، جزاءً له على ترك قومه وأهله من أجل الله.

٣١. صلاح الآباء يحفظ الله به الأبناء.

٣٢. أثر الدعاء في صلاح الأبناء عظيم، يجدر بكل عاقل ألا يغفله.

٣٣. أنفع الوصايا وأعظمها، هي الوصية بالثبات على الدين.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، النبوة، مكة



عناصر الموضوع

مفهوم الابوة	٢١٢
الأبوة في الاستعمال القرآني	٢١٣
الالفاظ ذات الصلة	٢١٤
الأبوة الأولى	٢١٦
أنواع الأبوة في القرآن الكريم	٢١٨
اتباع الأباء	٢٢٣
آثار اتباع الأبوة في الدنيا والآخرة	٢٢٥
صلاح الأباء وأثره على الأبناء	٢٣٠
الأبوة والأحكام الشرعية	٢٣٢
عاطفة الأبوة	٢٣٥
الأبوة يوم القيامة	٢٣٧

مفهوم الأبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل الأب في اللغة: التهيؤ والقصد، يقال: أب الرجل، إذا تهيأ للذهاب وقصد، والأب: النزاع إلى الوطن، ويقال: أبوة القوم، أي: كنت لهم أبًا، والأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم، أو الأب والجد، أو الأب والعم، أو الأب والمعلم، أو الجد والجدة، ولا يرد الأب بمعنى المربي أو العم إلا بقرينةٍ[(١)].

ويتبين مما سبق أن الأبوة كلمة تحتمل عددًا من معاني التهيؤ والقصد للاحتضان الاجتماعي والتربوي، والتعبدي، وكافة مناحي الاحتضان، وإن كان أخص خصوصيات الأبوة هو أبوة الدم؛ إذ إنها حقيقته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر غير واحدٍ تعريفًا اصطلاحيًا للأب، ويتضح أن ثمة فرقًا بين الأب والأبوة، فقد يكون أبًا في الدم، ويتنصل من واجباته تجاه بنيه في الأبوة من تهيؤ كامل بقصد للاحتضان التربوي والاجتماعي والتعبدي بما ينفع عند الله تعالى.

ومن التعريفات الاصطلاحية التي ذكرت الأب، ما يأتي:

تعريف الجرجاني رحمه الله بأنه: «حيوان يتولد من نطفته شخص آخر من نوعه»[(٢)].

ولم يختلف تعريف الكفوي عن تعريف الجرجاني، حيث قال: «إنسان تولد من نطفته إنسانٌ آخر»[(٣)].

وعرفه المناوي رحمه الله بأنه: «كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[(٤)].

---

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧-٥٨، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٥، الكليات، الكفوي، ص٢٥.

(٢) التعريفات، ص٧.

(٣) الكليات، ص٢٥.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٥.



الأبوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أبو) في القرآن الكريم (١١٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤٦	﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٠]
المثنى	٧	﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠]
الجمع	٦٤	﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]

وأطلقت الأبوة في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: الوالد بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٥].

الثاني: العم: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣]. وإسماعيل كان عم يعقوب.

الثالث: الجد: ومنه قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]. أي: جدكم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة، ص٨-١٠.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١١٤، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٥٩-٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوالد:

الوالد لغة:

الأب، وتوالدوا، أي: كثروا وولد بعضهم بعضًا، ويقال: الوالدان، أي: الأب والأم معًا(١).

الوالد اصطلاحًا:

ما تولد واستبقي من نطفته ما يتوقع ذهابه بصورة منه، تخلف صورة عنه(٢).

الصلة بين الأب والوالد:

الوالد أخص من مصطلح الأبوة؛ إذ إن الأبوة تعني كل معاني التهيؤ والقصد للاحتضان بكافة أنواعه، فتجوز أن تكون في حق الجد والعم والمربي، أما الوالد فهو الأب الأدنى.

٢ الوالدة:

الوالدة لغةً:

الأم، يقال: ولدت المرأة ولادًا وولادةً، وأولدت: حان ولادها(٣)، وولدته أمه ولادة وإلادةً على البدل، فهي والدة على الفعل، ووالدٌ على النسب(٤).

الوالدة اصطلاحًا:

هي التي تضع ولدها المولود(٥).

الصلة بين الأب والوالدة:

الأب الأقرب هو زوج الوالدة التي تضع المولود.

٣ الأم:

الأم لغةً:

أم الشيء أصله، والأم: الوالدة(٦).

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٣٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٤٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣.



الأم اصطلاحًا:

اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم الدنيا ومن فوقها وإن علون[(١)].

الصلة بين الأب والأم:

الأم والأب منهما يتكون الولد، فهما الوالدان اللذان يقومان على رعاية الأبناء.

٤ الجد:

الجد لغةً:

الاجتهاد والعظمة والقطع، كما يقال: جد في سيره، وتطلق غالبًا على أبي الأب وأبي الأم وإن علا[(٢)].

الجد اصطلاحًا:

أبو الأب وأبو الأم وإن علا.

الصلة بين الأب والجد:

الجد إذا كان في معنى النسب فإنه والد الأب، أو والد الوالدة، وإن علا، وإذا كان في معنى التقدير فإن الأب والجد كليهما يقدر؛ بل إنه يجوز أن يطلق عليهما (الأبوان).

٥ العم:

العم لغةً:

مأخوذ من الشمول، ويطلق على أخي الأب، ويجمع على أعمام وعمومة، وتطلق العمومة على الجماعة الكثيرة من الناس[(٣)].

العم اصطلاحًا:

أخو الأب الذي يشمل صفات الأبوة في التهيؤ والقصد للاحتضان بكافة أنواعه.

الصلة بين الأب والعم:

العم والأب يتفقان في جواز إطلاق الأب على كليهما، وإن كانت حقيقة الأبوة في الأب الأدنى، كما يجوز إطلاق الأبوين عليهما معًا، ويختلفان في النسب بأن كل واحد منهما له أحكام خاصة، من ذلك المصاهرة والمحارم، وغير ذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٩٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٣/ ٦٢٩.

الأبوة الأولى

تبين من خلال التأمل في الآيات القرآنية أن الأبوة الأولى كانت في حق أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، باعتباره أبًا للبشر، وأن أولى أبوات المسلمين الموحدين هي أبوة أبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، باعتباره أبًا للمسلمين.

أولًا: أبوة آدم عليه السلام للبشر:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧].

حيث تحدثت هذه الآية الكريمة عن فتنة أبي البشرية، نبي الله تعالى آدم عليه السلام، التي أغوي بها من قبل الشيطان الرجيم.

فقد بينت الآية السابقة أن الله تعالى أنزل على بني آدم لباسًا يستر العورات، وأن لباس التقوى هو خير من لباس الثياب، وأن ذلك الإنزال للباس إنما هو من آيات الله تعالى، الذي له صفات الكمال الدالة على فضله، ورحمته لعباده، ثم انتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ لئلا يقول أحد، إن الحث على التذكر خاص بالمخاطب، ويدعي أنه المسلمون فقط.

ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتنادي نداءً آخر لبني آدم، مفاده التحذير من مغبة الوقوع في الفتنة والضلالة، التي يحرص على غرسها ذلك الشيطان، الذي تعهد بإغواء بني آدم، كما أغوى أباهم عليه السلام، وكانت نتيجة تلك الفتنة التي وقع في شركها أبونا آدم صلى الله عليه وسلم أن نزع منه الذي سترهما الله تعالى به، ما داما حافظين لأنفسهما من مواقعة ما نهيا عنه، فإن الشيطان وجنوده يرون البشر، أما البشر فلا يستطيعون رؤية الشياطين بما جعل الله تعالى لهم من خفة الأجساد، أو عدم الألوان.

والسؤال الذي يطرح، لماذا سلط علينا هؤلاء الشياطين، هذا التسليط العظيم، الذي لا يكاد يسلم معه أحد؟، والجواب أن الله تعالى سلط هؤلاء الشياطين، وجعلهم أولياء للذين لا يجددون الإيمان؛ لأن بين أولئك الذين لا يتفقدون إيمانهم وبين الشياطين تناسبًا في الطباع، من الشهوة والأهواء، وغريزة السيطرة والحسد والحرص، فتوجب هذه الطباع اتباعًا منهم لمصائد ومكائد الشياطين[1].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر الأبوين في حق آدم صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٨١، ٣٨٢، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص١٩٦.

وزوجه رحمها الله؛ لبيان أن الجد والجدة يجوز أن يطلق عليهما مصطلح الأبوين.

ثانيًا: أبوة إبراهيم عليه السلام للمسلمين:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

فقد ذكرت الآية السابقة المؤمنين في نداء خاص لهم أن يتذللوا لله تعالى، وينكسروا له بالركوع والسجود، وأن يعبدوه عبادةً تمتلئ ذلًا وحبًا لله تعالى، وأن يجتهدوا في فعل الخيرات؛ حتى يتحصلوا على النجاح في الدنيا والآخرة، ويستمر الأمر للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة؛ لأن يجاهدوا حق الجهاد أنفسهم، ومن ثم الكفار والظلمة، على كافة أشكالهم وأنواعهم[١].

وحق الجهاد هو ما كان في سبيل الله تعالى، وليس في سبيل أحد من المخلوقات، فالله تعالى اختار المسلمين من أتباع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم؛ لحمل دينه، وما جعل الله تعالى على المسلمين في جميع أمور الدين من ضيق بتكليف ما يشق القيام به، كما كان على من قبلنا، فالله تعالى وسع دينكم أيها المسلمون توسيع ملة أبيكم إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون المعنى: فاتبعوا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام.

ويجوز أن يكون المعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، أعني: ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام.

وتستأنف الآية الكريمة ببيان عظمة مكانة المسلمين عند الله تعالى، بأن الله تعالى وحده هو الذي سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة[٢]؛ ليكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا على المسلمين يوم القيامة؛ لتبليغ هذا الدين.

وتكونوا أنتم أيها المسلمون شهداء على الناس بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغهم به؛ فالمطلوب منكم هو أن تلتزموا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تسألوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يسخط منه الله تعالى ويكره، فالله تعالى حتمًا هو الناصر ولا ناصر غيره، فهو نعم المولى ونعم النصير

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي، ٤/ ١٣٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٧٩.

للمسلمين الصادقين[1].

وفي الآية بيان أن نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبو المسلمين؛ لأن حرمته على المسلمين مثل حرمة الوالد[2]، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا لكم مثل الوالد)[3]، وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أبًا لأمته.

أنواع الأبوة في القرآن الكريم

يتناول هذا المبحث أنواع الأبوة في القرآن من حيث الصلاح والضلال، فمن الآباء من يتصف بالصلاح، ويكونون عونًا لأبنائهم في طاعة الله تعالى، ويجعلهم الله سببًا في نجاتهم من غضب الله تعالى، ومن عقابه، ويوجد آباء ضالون يكونون سببًا في وقوع الأبناء في غضب الله تعالى وفي عقابه.

أولًا: الأبوة الصالحة:

ذكر القرآن الكريم نماذج متعددة من الأبوة الصالحة، ويمكن الوقوف على نموذجين، أحدهما لنبي الله تعالى يعقوب صلى الله عليه وسلم مع ابنه النبي يوسف صلى الله عليه وسلم وإخوته، والآخر للقمان الحكيم رحمه الله.

أما النموذج الأول، فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

حيث بين الله تعالى في الآية السابقة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه جل جلاله أعلمه عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، إذ إنه قال لأبيه يعقوب عليه السلام: يا أبت إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا -ورؤيا الأنبياء

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي، ١٥/ ٥١٢-٥١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٥١٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، بداية مسند أبي هريرة، ٧/ ١٨٣، رقم ٧٣٦٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، ١/ ٢٠٨، رقم ٣١٣.
قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وحي-[١]، رأيتهم لي ساجدين، وتأتي الآية التالية؛ لتبين أن نبي الله يعقوب صلى الله عليه وسلم كان يشعر من بنيه حسد نبي الله يوسف صلى الله عليه وسلم، وبغضهم له، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم؛ حتى لا يشعل بذلك غل صدورهم[٢].

وإن تفضيل نبي الله يعقوب عليه السلام لابنه النبي يوسف عليه السلام كان تفضيلًا شرعيًا، وليس لأجل دنيا، وهذا توجيهٌ للآباء عمومًا، بأن تكون المفاضلة بين الأبناء على أساس الدين، ومقدار التمسك به.

كما أنه يلاحظ تحسس الأب لنوايا أبنائه، ومراقبة العلاقة بين الأبناء، كما بينت الآية ذلك، من خلال بيان تصرف يعقوب عليه السلام مع الرؤيا التي قصها عليه ابنه النبي يوسف عليه السلام.

وإن أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء؛ إذ إن الحسد الدنيوي وعقوق الآباء وتعريض مؤمن للهلاك والتوافر على قتله ليس من صفات الأنبياء[٣]، بل إن فعل كل ما سبق معصوم منه النبيون والمرسلون.

وإن عداوة الشيطان للإنسان عمومًا بينة واضحة، لا تخفى على أحد من البشر، فهو يدخل الناس في عداوة مطلقة مع الحق، ويحرف العلاقة الحميمة المفترضة بين الوالد وولده؛ لتصبح علاقة سيئة يشوبها الخلاف والشقاق، كما أظهرت الآيات كيد أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام لأخيهم نبي الله يوسف عليه السلام.

وأما النموذج الثاني، فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٢-١٩].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أن الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٥٥٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٢٢٠.
(٣) انظر: المصدر السابق.

تعالى قد أعطى لقمان الحكيم رحمه الله نعمة الفقه والعقل والإصابة في القول في غير نبوة؛ حتى يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، فأما المؤمن مثل لقمان رحمه الله فيشكر؛ إذ إن نتيجتها راجعة إليه[1].

فـ «من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غني عن شكره، غير محتاج إليه، حميد مستحق للحمد من خلقه؛ لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال»[2].

واذكر يا أيها النبي حين قال لقمان الحكيم لابنه، مرغبًا له في التوحيد، وصاده عن الشرك: يا بني لا تشرك بالله.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، فيجوز ﴿إِنَّ﴾ تعليلية، وتكون الجملة من قول لقمان الحكيم رحمه الله، ويجوز أن تكون تقريرية، وتكون من قول الله تعالى؛ لتقرير هذه الحقيقة[3].

وأثناء ذكر القرآن الكريم لوصية لقمان الحكيم رحمه الله يأتي كلام مستأنف في آيتين؛ لبيان توصية الله تعالى وأمره للإنسان بوالديه اللذين هما الأب والأم، حملته أمه ضعفًا على ضعف، وإرضاعه في عامين، أن اشكر لي يا أيها الإنسان باتباعك لديني التوحيدي، وأن اشكر لوالديك اللذين هما سبب وجودك بعد قدري، وإلي المرجع والمآل، فإن التزمت الشكر لي ولوالديك، فأجزيك الخير كله، وإلا فإن عذابي شديد.

وإن جاهداك على أن تشرك بالله تعالى، وأن تجعل مع الله ندًا في استحقاق العبادة فيما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما في ذلك، ولكن لا يمنعك عدم طاعتهم في الشرك من مصاحبتهما في الأمور الدنيوية، من البر بهما، والحرص على تهنئتهما في الحياة المعيشية، ودعوتهم المتكررة إلى النجاة من غضب الله تعالى، أما الاتباع في الدين فهو اتباع طريق من أناب إلى الله تعالى بالتوحيد، ثم إلى الله تعالى مرجعك أيها الابن، ومرجع أبويك، ومرجع من أناب إلى الله تعالى بالتوحيد، فينبئ الجميع عند رجوعهم بما كانوا يعملون من خير أو شر[4].

ثم تأتي الآية السادس عشرة من السورة؛ لبيان تكملة الخطاب الموجه من لقمان الحكيم رحمه الله إلى ابنه، بقوله: «يا بني: إن الحسنة أو السيئة للإنسان إن تكن مثلًا

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٧٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٧٣.
(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٧١، ٧٢.

في الصغر كحبة الخردل، فتكن في أخفى مكان كقلب صخرة أو في السماوات أو في الأرض يظهرها الله ويحاسب عليها، إن الله لطيف لا تخفى عليه دقائق الأشياء، خبير يعلم حقائق الأشياء كلها»[(١)].

ثم تأتي الآية السابع عشرة من السورة؛ لبيان استمرار دعوة لقمان الحكيم رحمه الله لابنه، بضرورة الصبر على ما يصيب الداعية من الأذى في سبيل الله تعالى، إذا هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فإن الصبر على المحن يورث المنح، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، فإن فعل ذلك مما جعله الله تعالى عزيمة، وأوجبه على عباده، وحتمه على المكلفين، ولم يرخص في تركه[(٢)].

ثم يستمر الوعظ من لقمان الحكيم رحمه الله لابنه كما وضحته الآية الثامن عشرة، فيقول الله تعالى عن لقمان الحكيم رحمه الله: ولا تمل وجهك يا بني عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك؛ احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولا يكن مشيك في الأرض بين الناس في حال المختال المتبختر، فإن الله تعالى لا يحب كل متكبر متباهٍ في نفسه، وهيئته وقوله[(٣)].

ثم يستمر لقمان في النصح لابنه كما وضحته الآية التاسع عشرة، بقوله: يا بني ليكن مشيك ذا قصدٍ في النية والعمل؛ ففي النية لا تسع إلا في الخير، وفي العمل ليكن المشي باعتدال وتوسط، فإذا التزمت بالوقار في المشي فأتم ذلك بغض الصوت، وإنقاصه، وعدم ارتفاعه، وإن كان في حسن يستحسنه السامعون؛ فإن أنكر الأصوات هو صوت الحمير عمومًا[(٤)].

وإن لقمان الحكيم رحمه الله كان شديد الغيرة على أولى الناس به، وهم الأبناء؛ حيث إنه رحمه الله برهن على شكره لله تعالى، وعدم كفره بنعمة الحكمة التي أعطيها من الله تعالى، من خلال الانطلاق للدعوة إلى الله تعالى، وأول ما بدأ بابنه، فدعاه إلى الله تعالى، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ويظهر من قوله: ﴿يَبُنَيَّ﴾، حيث كررها لقمان رحمه الله ثلاث مرات، اللين في العبارات كلها.

وتفيد هذه الآيات ضرورة ترتيب الداعية أبًا كان أو غير أب للأولويات في دعوته؛ حيث إن لقمان الحكيم رحمه الله بدأ بوعظ ابنه بترك الشرك، والتحلي بالتوحيد، ثم التعرف إلى قدرة الله تعالى، ثم الأمر بإقامة

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٦١٤.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٢٨٧.
(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٤١٢.
(٤) انظر: الفواتح الإلهية، الشيخ علوان، ٢/ ١٣٣.

الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، ثم الأمر بالمعروف الذي هو تعاون على الخير، ثم النهي عن المنكر، الذي هو تعاون على اجتناب المنكرات والشرور، ثم الصبر في ذلك للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأجل الله تعالى، والتزامًا بالواجب، ثم التأدب مع الناس، فهو قدوة لهم، فإذا تكلم أو كلمه أحد لا يميل وجهه عنهم، ولا يتبختر، بل يتوسط في مشيته، ويخفض صوته، حتى لو كان يتكلم في حسن.

ويلاحظ أن ذكر الوصية بالوالدين في ثنايا قصة لقمان مع ابنه، بما يبين واجب الآباء على الأبناء.

ثانيًا: الأبوة الضالة:

ذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع قصة نبي الله تعالى إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه آزر، حيث إن الأب كان كافرًا، هو وقومه يعبدون من دون الله تعالى، فأشفق إبراهيم عليه السلام على أبيه من أن يقع في غضب الله تعالى، سيما في أخص خصوصيات العبادة، وهي توحيد الله تعالى.

فقال الله تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا
إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ
لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ
﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ
اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا
مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٧].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أن نبي الله تعالى أوتي الرشد والعلم والعناية والحفظ والرعاية من الله تعالى، ومن علامات ذلك أنه أشفق على أبيه وقومه، وقال: ما هذه الأشياء المصورة المصنوعة المشبهة بخلق من خلائق الله تعالى، التي أنتم لها مقبلون، وملازمون لها ومعظمونها[1].

فأجابه أبوه وقومه: إننا وجدنا آباءنا لها عابدين، فبقينا على ذلك الأمر، فأجابهم إجابة الراشد المعلم من الله تعالى: لقد كنتم في عبادتكم هذه أنتم وآباؤكم الذين ابتدعوا والتزموا تلك العبادة في خطأ بين؛ حيث تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع، وتقليد من هو في خطأ بين يعتبر خطأ بينًا.

فظن أبوه وقومه في بداية الأمر أن نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم يلاعبهم، وأرادوا أن يتأكدوا فقالوا: أجئتنا بعلم مستند على دليل قطعي أم أنت في هذا القول من اللاعبين؟

فأجابهم: إن ربكم الذي هو رب

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ٥/ ٤٩٠.

السماوات والأرض الذي خلقهن على غير مثالٍ سبق، وأنا على تلكم الحقائق من الشاهدين، بما آتاني الله تعالى من وحيٍ ورشدٍ وعلم، وأقسم بالله تعالى أن يفعل بالأصنام التي يعبدونها سوءًا، أو يجتهد في كسرها بنوعٍ من الاحتيال[1].

وإن التقليد الأعمى للآباء قد يورث نار جهنم؛ لذلك فإن الأبوة عند المسلمين يجب أن ترتكز على حسن الصحبة في شئون الدنيا لآباء الدم، ومن ثم حسن الصحبة في شئون الآخرة لآباء العلم والدعوة سواء أكانوا آباء دم أو غيرهم.

وأهل الباطل آباء كانوا أو غير ذلك، لا يمتلكون حجة، بقدر ما يسيطر عليهم الجهل المركب، حيث إن الآيات تبين أنهم سألوه: هل تقول حقًا أم أنت من اللاعبين؟

ويؤكد هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦].

اتباع الآباء

يركز هذا المبحث على بيان معالجة القرآن الكريم لظاهرة اتباع الأبوة، سواء أكانت الأبوة صالحة أم ضالة؛ إذ قد يتولد على اتباع الأبوة الصالحة أبناء خيرين محبين للدين، وقد يتولد أبناء سوء، وهذا على التغليب، وليس الحصر.

أولًا: اتباع الأبوة الصالحة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

حيث تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل عليه السلام حين دعوا أن يتقبل الله تعالى منهما رفع القواعد من البيت الحرام، وأن يجعلهما الله تعالى مسلمين له، ومن ذريتهما أمةً مسلمة لله تعالى، وأن يريهما مناسكهما، وأن يتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم، وأن يبعث في هذه الأمة رسولًا منهم، يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فإن الله تعالى هو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الله تعالى بعض مناقب إبراهيم عليه السلام، بأن الله تعالى اصطفاه في

(١) انظر: التفسير المظهري، ٦/ ٢٠٢-٢٠٣.

الدنيا، وأنه في الآخرة لمن الصالحين، حيث قال له ربه: أسلم، فأسرع إلى الإجابة بدون تردد: أسلمت لله تعالى، الذي هو رب العالمين، ولم يكتف أبونا إبراهيم عليه السلام بقوله هذا، بل وصى بها بنيه، وقد وصى بذلك أيضًا حفيده يعقوب عليه السلام، حينما قال: إن الله تعالى اختار لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين بأسلوب استفهام أنكم تدعون الشرك في حق يعقوب عليه السلام وبنيه، وكأنكم كنتم حضورًا في ذلك الوقت، بمعنى أنكم تقولون ما لا علم لكم بذلك، بل إن الله تعالى يخبر أن وصيته عليه السلام كانت بخلاف ما قالت اليهود، حيث قال: ما تعبدون بعد موتي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فنحن نعبد إلهًا واحدًا هو إلهكم جميعًا، ونحن له مخلصون في التوحيد[1].

ويلاحظ من خلال هذه الآية شدة الحرص من نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام على أولاده، حيث كان يحتضر، وكانت وصيته الاطمئنان على حال التوحيد لله تعالى عند أبنائه، فسألهم وأجابوه أنهم يعبدون إلهه وإله آبائه (الأب الأدنى، والعم، والجد)، فهم على ذات الطريق.

ثانيًا: اتباع الأبوة الضالة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف:٢٢-٢٤].

إن الآيات السابقة تعلم المسلمين كيفية المحاورة والمجادلة لهؤلاء المعاندين من المشركين، ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين أن الله تعالى آتاهم كتابًا، وليس لهم حجة إلا تقليد آبائهم، فقالوا: إنا وجدنا آباءنا على دين، فنحن نتبعه، حتى جعلوا أنفسهم باتباع آبائهم مهتدين.

ثم أخبر الله تعالى أن أمثالهم من السابقين كانوا إذا أرسل فيهم رسول يقولون -سيما الملوك والأشراف والجبابرة-: إنا وجدنا آباءنا على دين، وإنا مقتدون بهم، مهتدون على هديهم[2].

وتأتي الآية التالية؛ لتبين رد الله تعالى على هؤلاء المعاندين بقوله: قل يا محمد أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم، وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوا ذلك، و﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٩٦.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٢٠/ ٢٨-٣٠.

﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

ويلاحظ في هذه الآيات أن اتباع الآباء يجب أن يكون ضمن ضوابط الشرع الحنيف، فإذا كان الأبوان أهل ضلالة، يجب أن يسرع الابن الصالح إلى دعوتهما إلى الله تعالى، لا أن يلحق بهما، وبمعتقدهما، سيما إذا وجد أهدى مما وجد عليه أبويه، وفي هذا دعوة إلى تقديم تحكيم النقل من القرآن والسنة على أي أمرٍ دونه.

وإن الآيات تبين أن عقلية الكفار واحدة، في كل زمان ومكان؛ إذ إن مسوغ كفرهم، هو اتباعٌ لهدي آبائهم، دون إعطاء العقل والروح مساحة الاستماع والإصغاء إلى دين الله تعالى.

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٥٥.

آثار اتباع الأبوة في الدنيا والآخرة

أولًا: آثار اتباع الأبوة الصالحة في الدنيا والآخرة:

١ . الآثار في الدنيا:

أ . السعادة الزوجية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

فإن اتباع المرأة الصالحة لأوامر أبيها، وتربيتها الناصحة التي لاحظت من خلال القوة والأمانة في نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم، وحفاظها على عفتها وطهارتها، وعدم مزاحمة الرجال، فهي تمشي على استحياء، وتتعلم من أبيها كيف ترد المعروف بما هو أفضل، حينما قالت له: إن أبي يدعوك لزيارته؛ ليثيبك على ما قدمت من خير، كما أنه يلاحظ على المرأة المسلمة أنها ما خافت على من تتزوج، إذا كان يحفظ لها دينها وعرضها، بل يزيدها إيمانًا وشرفًا

في الدنيا والآخرة.

وهو ما بينته الآيات السابقة، حينما قدم موسى صلى الله عليه وسلم على أبيهما، وقص عليه قصته، فهدأ أبوهما من روع موسى عليه السلام، وبشره، بأنه نجا من القوم الظالمين، عندها تجرأت تلك المرأة المسلمة العفيفة، وطلبت من أبيها أن يجزيه، فلبى أبوها طلبها، ولا غرو؛ إذ إن هذا الطلب يقرب إلى الله تعالى، ويجعل البشر يسيرون في المسار الصحيح، الذي ينفعهم عند الله تعالى، وقال له: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، ويستفاد من ذلك، جواز جلوس المرأة ساعة رغبة الأهل نكاحها من رجل عفيف صالح؛ إذ إن الأب ما طلب النكاح إلا بعد أن علم كل قصته، واستبشر بنبوته.

وكان المهر أن يرعى غنمه ثماني سنوات، فإن أتم عشر سنوات، فباختياره، وليست السنتان بعد الثمانية داخلتين في المهر[1]، فكان الصدق في الحال، من قبل نبي الله موسى عليه السلام، بأنه لا يريد أن يسرع في القبول بالعشر السنوات، ثم لا يستطيع، فيكون من الكاذبين في الوعود، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك، فهو النبي المعصوم.

٢. تعجيل الفرج.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٢ - ١٠٧].

فإن أدب نبي الله إسماعيل صلى الله عليه وسلم مع ربه بالتزامه طاعة والده النبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بعد أن أخبره بالرؤيا، واستشاره؛ ليرى أيجزع أم يصبر، فكانت الإجابة هي استسلامه هو ووالده لأمر ربهما، ولا شك أنه امتحان صعب، كما بينته هذه الآيات، وعندها نزل الفرج دونما نزول قطرة دم من إسماعيل، وفدى الله تعالى إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم[2].

٣. جمع شمل الأسرة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٦٠٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٤٩.

﴿يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

حيث تبين هاتان الآيتان أنه حينما رحل يعقوب عليه السلام إلى مصر، وسار بأهله حتى وصل إليها، ففي لحظة دخوله عليه السلام مع أهله استقبله يوسف عليه السلام في مدخل مصر، وعجل به الحنان والشوق إلى أبيه وأمه التي هي زوج أبيه، فقربهما إليه، وطلب منهما ومن أهله أن يقيموا في مصر آمنين سالمين بإذن الله، وسار الركب داخل مصر حتى بلغ دار يوسف عليه السلام، فدخلوها وصدر يوسف أبويه، فأجلسهما على سرير، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ الله لهم على يدي يوسف؛ إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ونقلها إلى مكان عظيم من العزة والتكريم.

فحيوه تحية مألوفة تعارف الناس عليها في القديم للرؤساء والحاكمين، وأظهروا الخضوع لحكمه، فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير، فقال لأبيه: هذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت في المنام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين لي، قد حققه ربي، وقد أكرمني وأحسن إلي، فأظهر براءتي، وخلصني من السجن، وأتى بكم من البادية؛ لنلتقي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وأغراهم بي.

وما كان لهذا كله أن يتم لولا تقدير الله، فهو المدبر والمسخر لكل أمر، نافذ الإرادة، وهو المحيط علمًا بكل شيء، البالغ حكمه في كل تصرف وقضاء[(١)].

٤. العفو عن سيئات الأبناء مهما عظمت.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩٧].

حيث طلب بنو يعقوب صلى الله عليه وسلم من أبيهم أن يسأل الله تعالى لهم أن يعفو عنهم، ويستر ذنوبهم، فهم المقرون بأنهم كانوا خاطئين فيما فعلوا بيوسف عليه السلام وشقيقه، فوعدهم أنه سوف يستغفر لهم الله تعالى رب يعقوب عليه السلام وكل الخلق[(٢)].

٥. القدوة الصالحة للتعلم من الأخطاء وعواقبها.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

فإن التحذير من فتنة الشيطان قرن بشاهد عملي يكشف عن فتنه لأبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وقد سبقت الإشارة إليه.

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٣٤٩.
(٢) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٢٤٧.

٢. الآثار في الآخرة:

١. النجاة من غضب الله تعالى، ومن عذابه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا أقام أوامر الله في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد، وغيرهم[١].

٢. إلحاق الذرية بالآباء في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في المبحث التاسع.

ثانيًا: آثار اتباع الأبوة الضالة في الدنيا والآخرة

١. الآثار في الدنيا:

١. التكذيب بالحق وعدم الاستجابة له.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨- ٦٩].

أي: أفلم يتدبروا القرآن[٢]، ويتفكروا بما فيه، أم جاءهم ما لم يأت لآبائهم الأولين، أم أنهم لم يعرفوا نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم له جاحدون حاسدون؛ بل يقولون به جنون، بل جاءهم بالحق الذي لا ينكرونه، ولكن أكثرهم يتعامل مع الحق بجحود[٣]، ولا شك أن اتباع هدي الآباء هو الذي أورثهم إلى هذه المعاندة، وهذا التكذيب، بما يستحقون بعده غضب الله تعالى.

٢. قلب الحقائق والتدليس فيها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الكفار قالوا لموسى صلى الله عليه وسلم: هل جئتنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا، فقد وجدناهم عبدة أوثان، ونحن على دينهم، وتريد أن يكون لك ولهارون الملك والسلطان في الأرض، وما نحن لكما بمصدقين، وإنما سمي الملك كبرياء؛ لأنه أعظم ما يطلب من أمر الدنيا[٤].

٣. اتباع الأبناء لعاطفة الدم، لا لتحكيم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٤.

(٢) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة، ص٢٥٦.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٨٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٢٦٩.

العقل، المؤيد بالدليل الشرعي.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

فإن العاطفة التي سيطرت على عقول وقلوب الأبناء، دونما هداية تذكر، فعميت قلوبهم وعقولهم، واتبعوا ما وجدوا عليهم آباءهم من عبادة غير الله تعالى.

٤. افتراء الكذب على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

فقد احتج هؤلاء المشركون بأمرين: أولهما تقليد الآباء، والآخر الافتراء على الله تعالى، فكانت إجابة القرآن الكريم على الأمر الثاني لفعل الفاحشة، بأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء[١]، وإن تقليدهم الأعمى لآبائهم جعلهم يؤمنون بعد حقبة من الزمن من هذا التقليد الأعمى بأن التزامهم بالفحشاء أصبح أمرًا يبنى على دليل وإقرار من الله تعالى.

٥. التقليد الأعمى للشرك بالله.

قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ١٠.

يقول القرطبي رحمه الله: «فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل»[٢].

٢. الآثار في الآخرة:

ولعل أوضح هذه الآثار هو الاستجابة لدعوة الشيطان إلى دخول جهنم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

أي: وإذا قيل لهؤلاء الكفار من قبل الأنبياء أو الدعاة عمومًا: اتبعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن الذي ملئ هدىً وموعظة، وشفاء لما في الصدور، عندها يكون رد هؤلاء الكفار: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله تعالى.

فيأتي الرد القرآني: أفيتبعونهم، وإن الشيطان يدعوهم إلى العذاب الأبدي في السعير يوم القيامة؟[٣]، ولا شك أن تقليد آبائهم كان مدخلًا عظيمًا لفتنة الشيطان التي تسوق أتباعه إلى جهنم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ١٠٩- ١١٠.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤٠٠.

صلاح الآباء وأثره على الأبناء

إن مكانة الأبوة الصالحة بلغت ذروتها في ديننا الحنيف، فقد سجل القرآن الكريم هذه المكانة؛ لتبلغ بركتها حفظ الأبناء غالبًا، بحسب درجة الإيمان التي يلتزمها الأب من جهة، وبحسب التقدير الإلهي الذي لا يعلم حكمته إلا الله تعالى من جهة أخرى.

أولًا: حفظ الأبناء بصلاح الآباء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وتأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن رحلة العلم، التي قضاها نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم مع الخضر عليه السلام، وتجيب هذه الآية عن المرحلة الثالثة من مراحل التعلم، حينما مرا على قرية، فأبى أهلها أن يضيفوهما، فوجدا جدارًا شارف على الانقضاض، فأقامه الخضر عليه السلام، فقال نبي الله موسى عليه السلام مستغربًا: إن كنت قائمًا هذا الجدار فخذ أجرتك، ففارقه الخضر عليه السلام؛ لأنهما اتفقا على ألا يسأله عن شيء حتى يخبره الخضر عليه السلام ابتداءً، حيث تذكر هذه الآية إخبار الخضر عليه السلام لنبي الله موسى عليه السلام عن قصة الجدار بأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحت هذا الجدار كنزٌ لهما، وكان أبوهما من أهل الصلاح، حيث ذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، فقدر الله تعالى أن يبقى هذا الجدار حتى يبلغا أشدهما ورشدهما، وهيأ لذلك الأسباب، فأعلم الخضر عليه السلام بعلمه وتقديره، وكل هذا رحمة من الله تعالى، رب كل شيء.

ثم يبين الخضر عليه السلام درسًا في التأدب مع الله تعالى، فيقول: وما فعلت ذلك الأمر عن رغبةٍ عشوائية مني، بل إن ذلك بتقدير الله تعالى، ويختم الآية بقوله: ذلك الأمر والأمران السابقان اللذان سألتني عنهما، هم جميعًا تأويل الذي لم تستطع أن تصبر على الوصول إلى معرفته في الوقت المناسب[(١)].

ويستفاد من هذه الآية أمور أن الله تعالى يحفظ للرجل الصالح ولده، وولد ولده، بل وعشيرته التي هو فيها[(٢)].

ثانيًا: لا يلزم من صلاح الآباء صلاح الأبناء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٦/ ١٨٨.
(٢) انظر: المصدر السابق.

﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٢- ٤٣].

وردت الآيتان الكريمتان في سياق الحديث عن عقاب قوم نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم.

فيقول الله تعالى: إن السفينة التي صنعها نوح صلى الله عليه وسلم كانت تجري بالمؤمنين، وأهله، إلا امرأته، ومن كلٍ زوجين، وكانت الأمواج كالجبال الشاهقة، فنادى نوح صلى الله عليه وسلم ابنه الذي كان كافرًا، وكان هذا الابن في معزل عن دين أبيه، ولم يركب السفينة، فقال له أبوه عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، فتهلك، فرد عليه ابنه، والعجب والغرور يملآن فؤاده: سأصير وألتجئ إلى جبل يمنعني من الغرق، فقال له أبوه صلى الله عليه وسلم: لا عاصم اليوم إلا من رحمه الله تعالى[1]، وحال بين نبي الله نوح عليه السلام وابنه فكان هذا الابن الكافر من المغرقين[2].

ويستفاد من هذه الآية شفقة الأب الصالح -سيما إذا كان نبيًا من أولي العزم، مثل نوح عليه السلام-، إلا أن الشفقة تكون في حدود الالتزام بالولاء الشرعي، وعدم الانحراف عنه؛ فالحرص على دعوة الأبناء، والوصول بهم إلى السلامة من غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه مطلبٌ إلهي، أمر به القرآن الكريم في أكثر من آية، لعل أوضحها هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٤٥٠.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٤٠١.

الأبوة والأحكام الشرعية

تعلق بموضوع الأبوة كثير من الأحكام الشرعية، ومنها: الميراث، والنسب والمصاهرة، والأكل في بيوت الآباء، وإبداء النساء لزينتهن، ونفي أبوة التبني.

أولًا: الميراث:

ورد في القرآن الكريم ما يبين نصيب ميراث الأب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١١].

فقد بينت الآيات السابقة فرضية الميراث، وذكر الله تعالى في رأس هذه الآية بعضًا من أحكامها، ويستمر بيان حكم الميراث المفصل، فيذكر حكم ميراث الأب والأم، فإن كل واحدٍ منهما يأخذ السدس، إن كان للولد الميت ولدٌ، فإن لم يكن للولد الميت أولاد، وورثه أبواه فإن الأم لها الثلث، وللأب الباقي، وإن كان للولد الميت بنت أو أكثر، وزاد بعد الفرض نصيب، فإنه يكون للأب، إضافة إلى السدس الذي كان له، ويبقى للأم حينها السدس فقط.

ثم يبين الله تعالى أن هذه القسمة تكون بعد تنفيذ الوصية الشرعية إن وجدت، والله تعالى يبين أنه لو رد تقدير الإرث إلى عقول البشر، واختيارهم لحصل من الضرر ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لنقص العقول، وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم، وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية، فهذه فريضة فرضها الله تعالى على الناس، وقد أحاط بكل شيء، وأحكم ما شرعه وقدره[(١)].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على الوصية للأبوين والأقربين، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠].

فبعد أن بينت الآية التي سبقتها الحكمة من القصاص، وهي الحياة لأبناء المجتمع، وغرس الطمأنينة بعد بيان الرادع للقتل، تبين هذه الآية الكريمة فرضية الوصية حين الاحتضار بشيء من المال المتروك للورثة، لصالح الوالدين والأقربين.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية نسخت بقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٢٧٥.

[النساء:١١](١).

ثانيًا: النسب والمصاهرة:

وورد في القرآن الكريم ما يبين حكم النسب في حق الأب، من خلال بيان الحرمة المترتبة على النسب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

حيث إن هذه الآية الكريمة تبين إبطال عادةٍ عند العرب، حيث كان الرجل منهم يتزوج امرأة أبيه من بعده، وكان ذلك نكاحًا جائزًا عند العرب، فحرمه الله تعالى، ونهى عنه، وتجاوز عما سلف، وبين تعالى أنه من يفعل بعد ذلك سيكون قد فعل محرمًا، وحلت عليه البغضاء الشديدة، وقبح ذلك الفعل طريقًا(٢).

وورد في القرآن الكريم ما يبين حكم النسب في حق الأم، وذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

فحرمت الأم كزوجة، وورد في هذه الآية ما يدلل على حرمة أمهات الرضاعة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في ابنة عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنها وعن أبيها: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)(٣).

ثالثًا: الأكل في بيوت الآباء:

ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

ففي هذه الآية الكريمة بيان رخصة أكل

---

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٢٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع المستفيض، والموت القديم، ٣/ ١٧٠، رقم ٢٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، ٢/ ١٠٧١، رقم ١٤٤٧.

المسلم في بيته، وبيت أبيه، وبيت أمه، وبيت إخوانه، وبيت أخواته، وبيت العم، وبيت العمة، وبيت الخال، وبيت الخالة، وهذا الترتيب دليل على أن جواز الأكل يكون حسب الأقرب فالأقرب، أما الآخذ من المال الذي يباح للعاجز، فهو من يمتلك المفاتيح بتمكين من المالك، كالخادم، أو النائب عن المالك في المال، ومن هو صديق، فهو يأخذ نفقته من مال صديقه، وإن الأخذ في هاتين الحالتين لا يكون كالذي سبق، إنما يكون بتبرع شخصي؛ للصلة الوثيقة[1].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن بيت الأب قدم في النفقة وفي الطعام، وفي السلام، فهو مباحٌ بعد بيت الإنسان نفسه، ثم يليه بيت الأم، وهكذا الأقرب فالأقرب.

رابعًا: إبداء النساء لزينتهن:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

حيث تنذر هذه الآية الكريمة المؤمنات من إظهار محاسنهن إلا لأزواجهن والأقارب، الذين يحرم عليهم التزوج منهن، وفي مقدمتهم الآباء، وآباء الأزواج[2].

وفي ذلك إشارة إلى تقديم الأب وأب الزوج في الحفاظ على الشرف، وأنهما الأكثر عفةً سيما في حق البنت أو زوجة الابن.

خامسًا: نفي أبوة التبني:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[الأحزاب: ٥].

حيث بينت الآية السابقة أن الله تعالى ما جعل أهل التبني أبناء للذين تبنوهم، وأن هذا التبني هو قول من تبنى، وأن الله تعالى يقول الحق الذي لا يجيز لكم التبني، وأن الله تعالى هو الذي يهدي إلى طريق ذلك

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١٠/ ٥٢٣٢.

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٥٢٢.

الحق، ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتأمر الذين تبنوا أن يدعوا هؤلاء الأولاد بأسماء آبائهم في الدم، فإن ذلك أعدل عند الله تعالى، فإن لم يعلم آباؤهم، فقولوا: أخونا فلان، أو ولينا فلان، وليس عليكم إثمٌ، إن أخطأ الرجل بعد النهي، فنسبه إلى الذي تبناه ناسيًا، فليس عليه في ذلك إثم، ولكن الأمر الذي يحاسب عليه الإنسان هو أن يدعوهم إلى غير آبائهم، قاصدًا ذلك من قلبه[1].

عاطفة الأبوة

إن العاطفة القلبية صفة لازمة ثابتة للأبوين؛ إذ إن الله تعالى جعلها مسوغًا لصبر الوالدين على أولادهما، في الرعاية والتربية والحب والحنان، فهي عاطفة فطرية، فطر الله تعالى الوالدين، وجعل الإسلام لها ضوابط ومحاذير.

وفي هذا المبحث توضيح لذلك من خلال مسألتين:

أولًا: عاطفة الأبوة فطرة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

أي: إن مجرد ذهابكم به يؤلمني، من شدة مفارقته علي، وقلة صبري عن رؤيته، فيريبني أن تتركوه بإهمالكم به، وانشغالكم عنه بالرعي والصيد، فأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه لاهون، بصيدكم ولعبكم ورميكم[2]، ولا شك أن نبي الله يعقوب عليه السلام قد أظهر بلسانه ما يجول بعاطفته القلبية، التي فطرها الله تعالى عليه، فهو بشر في هذه الصفة الأبوية.

وقد وردت آية كريمة، تبين عاطفة الأم الفطرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٨٧.

(٢) انظر: بيان المعاني، عبد القادر العاني، ٣/ ١٨٢.

فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

أي: وصار قلب أم موسى صلى الله عليه وسلم فارغًا من كل شيء إلا من أمر موسى صلى الله عليه وسلم، كأنها لم تهتم بشيء سواه، فإن كادت لتصيح شفقة عليه من الغرق، أو الهلاك، لما سمعت بوقوعه في يد فرعون، فطار عقلها من فرط الجزع والدهش، ولولا عناية الله تعالى، وتثبيته لها لاعترفت بأنه ابنها، من شدة عاطفتها الفطرية، بل إن تثبيتها كان بالربط على القلب؛ لتنال صفة الإيمان بالله تعالى[١].

ثانيًا: الموازنة بين عاطفة الأبوة، وعقيدة الولاء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

أي: «يا أيها المؤمنون، لا تتخذوا من آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم وأزوجكم نصراء لكم، ما داموا يحبون الكفر، ويفضلونه على الإيمان، ومن يستنصر بالكافرين فأولئك هم الذين تجاوزوا الطريق المستقيم»[٢].

وقل: يا محمد صلى الله عليه وسلم إن كان تفضيلكم للآباء والأبناء والإخوة والزوجات والأقرباء والأموال التي جمعتموها، والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت الجميلة التي أقمتم فيها، كل هذا مقدمًا في التفضيل على حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، فانتظروا غضب الله تعالى، ومن عقابه ونكاله بكم، والله لا يوفق الخارجين عن طاعته[٣].

---

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٩٣.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٢٦١.

(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص١٩٠.

الأبوة يوم القيامة

يؤكد هذا المبحث على بيان حال الأبوين يوم القيامة، بين فرار من التزامه تجاه ابنه، أو فرار من التزام الابن تجاه أبيه، فلا فداء يذكر؛ إذ إن الناس بين جنة ونار، ولا يبقى هناك إلا الملك الجبار، الذي يحاسب ويفتش، ويغفر ويرحم، فإذا كان الآباء صالحين، واجتهدوا في صلاح الأبناء، فإن الله تعالى من رحمته يلحق الذرية بآبائهم في الجنة.

وفي هذا المبحث توضيح لذلك، من خلال المسائل الآتية:

أولًا: الفرار:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٥].

فقد بينت الآية السابقة أنه إذا جاء يوم القيامة، ويرى المرء أعز أقاربه، وأخصهم لديه، وأولاهم بالحنو والرأفة والعطف، من: أخ، وأم، وأب، وزوجة، وولد، عندها يفر منهم ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل[١].

وفي تقديم الأخ على الأم والأب والزوجة والولد؛ أسباب، منها أن الله تعالى بدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشتغاله بنفسه[٢].

ثانيًا: الفداء:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١].

فقد بينت الآية السابقة أن يوم القيامة لا يسأل صديقٌ صديقه الحميم، وتأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين أنه «يبصر بعضهم بعضًا، فيتعارفون، أو يبصر المؤمنون الكافرين، أو يبصر الكافرون الذين أضلوهم في النار، أو يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله»[٣]، فيحب أو يتمنى الكافر المشرك لو يفتدي بأعز أقاربه في الدنيا، من بنيه أولًا، ثم زوجه وأخيه، وعشيرته أو أمه التي تربيه[٤].

ثالثًا: إلحاق الذرية بالآباء في الجنة:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

أي: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغوا عمل آبائهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٧٥.

(٢) انظر: التسهيل، ابن جزي، ٢/ ٤٥٤.

(٣) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ٣/ ٣٦٢.

(٤) انظر: المصدر السابق.

بينهم على أحسن الأحوال، وما نقصناهم شيئًا من ثواب أعمالهم، كل إنسان مرهون بعمله، لا يحمل ذنب غيره من الناس»[1].

ويستفاد من هذه الآية عظيم بركة الآباء الصالحين؛ إذ إن صلاحهم واجتهادهم في إصلاح أبنائهم جعلهم جميعًا في منزلة واحدة في الجنة، فالآية هنا تبين أن الآباء هم بوابة الأمان للأبناء، إن اتبعوا آباءهم بالإيمان بالله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

آدم، إبراهيم، الاتباع، الأمومة

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص ٥٢٤.





عناصر الموضوع

مفهوم الاتباع	٢٤٠
الاتباع في الاستعمال القرآني	٢٤١
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٢
أنواع الاتباع	٢٤٣
الأساليب القرآنية في عرض الاتباع	٢٧١
عواقب الاتباع وآثاره في الدنيا الآخرة	٢٧٦

مفهوم الاتباع

أولًا: المعنى اللغوي:

«التاء والباء والعين: أصل واحدٌ لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلانًا، إذا تلوته واتبعته، وأتبعته إذا لحقته»[1].

يقال: «تبع الشيء تبعًا وتباعًا في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعًا وتباعًا في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعًا سرت في أثره، واتبعه وأتبعه، وتتبعه: قفاه وتطلبه متبعًا له.. والتابع: التالي، والجمع: تبع وتباع وتبعة، والتبع: اسم للجمع.

والتبع: يكون واحدًا وجماعة، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]. يكون اسمًا لجمع تابع، ويكون مصدرًا، أي: ذوي تبع... والتبعة والتباعة: ما اتبعت به صاحبك من ظلامة ونحوها.

والتَّبِعَة والتِّبَاعَة: ما فيه إثم يتبع به... والتبابعة: ملوك اليمن، واحدهم: تُبَع، سموا بذلك؛ لأنه يتبع بعضهم بعضًا، كلما هلك واحدٌ قام مقامه آخر، تابعًا له على مثل سيرته... وقيل: فلان متابع العلم، إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضًا لا تفاوت فيه»[2].

فالمعنى اللغوي يدور حول الاقتفاء والاقتداء، واللحاق بشيء أو شخص والسير خلفه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الشرباصي: «والمعنى الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه أسوة وقدوة، فيمضي اللاحق على سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع..... وخير اتباع ينبغي أن يتحلى به المرء ويلتزمه ويحرص عليه، اتباع هدي الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[3].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٦٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٧.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٥ / ١٣٨.



الاتباع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (تبع) في القرآن (١٦٩) مرة[1]، والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧٥	﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]
الفعل المضارع	٦٠	﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]
فعل الأمر	٢٤	﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]
المصدر	٤	﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥]
اسم المفعول	٢	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢]
اسم مشتق	١	﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[الإسراء:٦٩]

وقد استعمل القرآن الكريم الاتباع بمعناه اللغوي، وهو: أن يقفو المتبع أثر المتبع تارة بالجسم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]. أي: فساروا في أثر موسى وبني إسرائيل، وتارة بالارتسام والائتمار.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦]. يعني: في الدين[2]. ولم يخرج عن هذا المعنى.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٤٩-١٥٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب التاء ص ٣٦٠-٣٦٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص١٥٥-١٥٦، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٦٢،

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسوة:

الأسوة لغةً:

الأسوة: القدوة [١]. قال الأزهري: «فلان يتأسى بفلانٍ، أي: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدي به، وكان في مثل حاله. والقوم أسوة في هذا الأمر، أي: حالهم فيه واحدة» [٢].

الأسوة اصطلاحًا:

«الاتباع للفعل، والاقتداء بالفاعل» [٣].

أو: «الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره؛ إن حسنًا وإن قبيحًا» [٤].

الصلة بين الاتباع والأسوة:

أن في كليهما اتباعًا ولحوقًا في تنفيذ المنهج إلا أن الأسوة يراعى في الإنسان جانب القدوة؛ ليحصل الاقتداء به.

٢ الطاعة:

الطاعة لغةً:

أصل مادة (طوع) تدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه [٥].

الطاعة اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «الطاعة: امتثال الأمر والنهي» [٦].

الصلة بين الاتباع والطاعة:

قد يأتي الإنسان بالطاعة وهو كاره، بخلاف الاتباع فهو دليل حب [٧].

نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٨٥-٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٢٩٣.

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨.

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ٩٥.

(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص ٤٣.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥١، الكليات، الكفوي ص ١١٤.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٩/ ٣٠٣.
وانظر للمزيد: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٣٤، الحدود الأنيقة، زكريا الأنصاري ص٧٧.

(٧) انظر مقال: تفنيد زعم القرآنيين بأنه لا طاعة للنبي، ممدوح أحمد فؤاد، موقع رابطة أدباء الشام.

أنواع الاتباع

لقد اتضح من المعنى اللغوي والاستعمال القرآني للفظة الاتباع أنها تدور حول معنيين:

أحدهما: يتعلق بالاتباع المبني على الدليل والبرهان.

والآخر: مبني على التقليد بلا دليل.

وإزاء ذلك؛ قمت بتقسيم الاتباع إلى عنوانين رئيسين هما: الاتباع المحمود والاتباع المذموم، ويدخل تحت هذين العناوين عددٌ من العناوين الفرعية التي تندرج تحتهما مما يتعلق بهما.

أولًا: الاتباع المحمود:

عرض القرآن الكريم اتباع الوحي والأنبياء عرضًا تناوله من جميع جوانبه، فمن ذلك:

- أمر الأنبياء باتباع الوحي.

وهذا شيء مهم؛ فقبل أن يأمر الأنبياء أتباعهم باتباع الوحي؛ أمروا هم باتباعه، ليعلم أن الوحي حجة على جميع الخلق ويجب أن يكون الأنبياء قدوة فيمتثلوا هم الأمر باتباع الوحي.

وقد اقترن الأمر باتباع الوحي بأمور أخرى، ومنها:

١. الإعراض عن المشركين.

لأن الإعراض عن المشركين من متممات اتباع الحق، فلا يتم للمرء الاتباع إلا بالإعراض عن المشركين، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦].

هذا الوحي «هو الحق الذي لا مرية فيه»[1]، وقد أكده بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وهذا يعني: أنه من عند الله، وليس من عند غيره من البشر، وهو مؤكد آخر لإيجاب اتباع الوحي.

وصياغة المرء حياته على اتباع الحق تتناقض مع عقيدة المشركين، فقد يشغبون عليه بالقول و الفعل، أو الترغيب والترهيب، وهذا هو الصراع الأبدي معهم، لذا؛ أمر بالإعراض عنهم، وتحقيق العبودية الحقة لله تعالى.

٢. النهي عن اتباع الهوى.

ولاشك أن اتباع الهدى يتناقض مع اتباع الهوى، فلا يجتمع الهوى والهدى في قلب أحدٍ، وحين يحضر اتباع الهدى يزول الهوى ويضمحل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

قال ابن جرير: «على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٦٩.

رسلنا»(١).

وعليه؛ فالله أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يسير على هذا المنهاج الواضح المعالم فيتبعه، وهذه الشريعة تقتضي كل مايحبه الله ويرضاه، «وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها؛ فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لايعلمون»(٢).

٣. الأمر بالصبر على الأذى.

وذلك لأن المرء حين يلزم نفسه باتباع الحق؛ فإنه سوف يلقى عنتًا من نفسه أولًا، حيث من طبع النفس الميل نحو الهوى واللذة، ثم ما يلقى الإنسان من الأذى من الآخرين على اختلاف أنواعه؛ لا بد أن يصبر عليه.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩].

فالله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبع الوحي في الاعتقاد والعلم والعمل والدعوة (٣)، وأن يتمسك به ويصبر بعد ذلك على ماسوف يناله من الأذى، وكلما كان المرء أشد اتباعًا للوحي؛ ناله من الأذى الشيء الكثير، وهو مأمور بالصبر، ولذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاء؛ لكونهم أشدهم في اتباع الوحي.

٤. اطلاع الله على ما انطوت عليه الأفئدة.

بحيث يجرد المرء اتباعه خالصًا لله وحده، ولا يكون لحظ نفسه أو الدنيا شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾ [الأحزاب: ٢].

ففي الآية وعيدٌ يفيد أن الله مطلع على جميع أعمالكم ومجازيكم عليها، كما أن فيها إشارة إلى ضرورة المسارعة في امتثال الأمر، وعدم التريث في تطبيقه، «والأمر له صلى الله عليه وسلم؛ أمرٌ لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمورٌ باتباعه»(٤).

٥. الأمر باتباع الأنبياء السابقين.

يؤكد الاقتداء بهم، لكونهم معصومين، وقد زكاهم الله سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

ولا يخفى أن ملة إبراهيم التي أمر باتباعها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي الحنيفية المسلمة، والاتباع هنا: هو في التوحيد وأصول الشريعة، كما أن التعبير

(١) جامع البيان، الطبري ٢٥/ ١٤٦.
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٤/ ١٤٧.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٣/ ١٨٧.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٠.

القرآني أشار إلى أن «الأمر باتباع ملة إبراهيم لا اتباع إبراهيم عليه السلام»، وبهذا نفهم أن علينا اتباع المنهج لا اتباع الأشخاص، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ الوحي عمن أخذ عنه إبراهيم عليه السلام.

٦ . صحة الطريق.

وهي أمرٌ مهم لمن يسلك طريق الاتباع؛ لأن هذا الطريق يمر بالسعادة والفلاح في الدنيا، وينتهي برضوان الله تعالى وجنته في الآخرة، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ [الزخرف: ٤٣].

الاستمساك: هو شدة المسك، والسين والتاء للمبالغة والتأكيد، وعليه؛ فالله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بشدة التمسك بالوحي على كل الأحوال ورغم كل الظروف، لأن الله سبحانه قد ضمن له صحة الطريق، وهذا فيه تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم أيما تثبيت، فلا يضجر ولا يألم، كما أن فيه تثبيتًا لأتباع الأنبياء من الدعاة والمصلحين من بعده ليسيروا في طريقه.

- الإخبار عن امتثالهم الأمر.

إن الأنبياء عليهم السلام هم قدوة البشر، وحين يأمرون أتباعهم بشيء؛ فلابد أن يكونوا أول وأولى من يحقق هذا الأمر في أعلى مراتبه و في درجة الكمال منه، ولذلك فقد أخبر الله تعالى عن امتثالهم الأمر باتباع في آيات كثيرة، ومن ذلك:

١ . اقتران الخبر بالدعوة إلى التفكير.

وهذا من المواضع الكثيرة التي حثنا فيها القرآن على التأمل والتفكر، والبحث عن الدليل والبرهان في أمورنا، خاصة العقدية منها، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: إنه ماهو إلا «عبد يمتثل أمر مولاه، ويتبع ما أوحاه»[(١)]، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعمل إلا بالوحي؛ فإنه ليس لأحد من أمته أيضًا أن يعمل إلا بالوحي.

ثم يعقب ذلك بسؤال مهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وفيه تشبيه حال «من لا يفقه الأدلة ولا يفكك بين المعاني المتشابهة؛ بحالة الأعمى، الذي لا يعرف أين يقصد، ولا أين يضع قدمه، وشبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصير؛ حيث لا تختلط عليه الأشباح»[(٢)].

٢ . اقتران الخبر بالثناء على الوحي.

حيث يكون اتباع الوحي سببًا لتنوير بصيرة متبعيه وهدايتهم إلى الطريق

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٣.

المستقيم، بل ويكون اتباع الوحي سببًا في رحمتهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

فالنبي صلى الله عليه وسلم مقتصر على اتباع الوحي لا غير، لا يطلب غير آياته آية، ولا بعد حجته حجة، لماذا؟ لأنه ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الزمخشري: «أي حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب»[(١)].

وهذه البصائر هي لمن آمن فقط؛ لأن «المؤمن مهتدٍ بالقرآن، متبع له سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة»[(٢)].

٣. عدم اتباع الوحي مقرونٌ بالمعصية.

وهو الضد من اتباع الوحي، فكما أن اتباع الوحي سببٌ لوجود البصيرة والهداية والرحمة؛ فإن ترك الوحي واتباع سبل الضلال سببٌ للمعصية والعذاب، في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

تبين الآيات نتيجة عدم اتباع الوحي ألا وهي المعصية، وهذا لتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ربه، فما بال أولئك الذين نبذوا الوحي وراءهم ظهريًا!

٤. اقتران الخبر بالنذارة.

وفيه تخويفٌ للناس، بأنهم إن لم يتبعوا الوحي فليحذروا العاقبة السيئة لذلك، ولذلك فقد ألزم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه باتباع الوحي.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف:٩].

وعلى هذا؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم قد حصر عمله باتباع الوحي فقط، ومعنى ذلك: «الاستسلام والتبري من علم المغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله عز وجل»[(٣)].

❁ أمر الأمة باتباع الوحي والأنبياء.

بعد أن تقرر آنفًا أن الأنبياء أمروا باتباع الوحي أولًا، وأنهم امتثلوا هذا الأمر علمًا وعملًا ودعوة -؛ جاء دور أمر الأمة باتباع الأنبياء ومن ثم اتباع الوحي؛ لأن اتباع الأنبياء يقود إلى اتباع الوحي فهم واسطته إلينا.

جاء الأمر باتباع الوحي:

١. مقرونًا بالمحبة والمغفرة.

وهو نتيجة طبيعية له، فإن اتباع الحق

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٣/ ٦٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٥/ ١٤.

والوحي آية محبة الله تعالى، وقد أكدت هذه المعاني في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

إذًا فالآية جاءت لبيان حقيقة الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف يكون صادقًا. يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه حاكمة على من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله»[(١)].

٢. مقرونًا بالاهتداء.

فاتباع الوحي هو اتباع لما جاء من عند الله تعالى، وما كان كذلك؛ فإنه حقٌّ لامرية فيه، وصواب لاضلال فيه، كما في قصة صاحب (يس)، حيث طلب من قومه اتباع المرسلين، وأثبت أنهم مهتدون، كما أثبت ذلك في سورة الأعراف، حيث الاتباع يؤدي إلى الهداية.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠ ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن مايدعو إليه هؤلاء الأنبياء هو الإيمان بالله ورسوله، ولذلك فقد أثنى الله تعالى على ذلك، ثم طلب منهم متابعته متابعة تامة في الأقوال والأفعال[(٢)]، مرتبًا على هذه المتابعة الهداية، «تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه؛ فقد بعد في خطط الضلالة»[(٣)].

٣. صحة الطريق.

وهو أمرٌ مر بنا آنفًا، حيث امر الأنبياء باتباع الوحي نظرًا لصحة الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه، وهاهم الآن يدعون إلى اتباع الوحي مستشهدين بصحة الطريق أيضًا، تأمل معي مخاطبة إبراهيم عليه السلام أباه قائلًا: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

وتأمل أيضًا خطاب محمد صلى الله عليه وسلم لقومه قائلًا: ﴿وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

ففي الآيتين خطاب لنبيين كريمين، وفي كلا الخطابين ضمان لصحة الطريق حيث لا اعوجاج فيه ولا ظلام، أوله في الدنيا وآخره في الجنة، إذا هم اتبعوه.

٤. بطلان عقائد الشرك.

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٢٦.
(٣) أنوار التنزيل ،البيضاوي ٣/ ٣٨.

وهذه عكس سابقتها، فإن صحة طريق تعني بطلان غيره من الطرق، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾ [آل عمران: ٩٥].

وما تضمنته هذه الآية؛ انطلاق من المسلمات، وذلك أنهم مجمعون على صحة دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك أمروا باتباعه، لأنه كان «معرضًا عن كل مايخالف التوحيد متبرئًا من الشرك وأهله»[(١)].

وصحة اتباع إبراهيم عليه السلام ستقود بلا شك إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن العقيدة واحدة.

٥. الأمر بالطاعة.

فإن الاتباع وحده لا يكفي، بل لا بد أن ينضاف إليه طاعة الله تعالى واتباع أوامر أنبيائه عليهم السلام، ولذلك جاء على لسان هارون عليه السلام حين أضل السامري بني إسرائيل، واتخذوا العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام، أن دعاهم إلى الاتباع والطاعة، فقال لهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝٩٠﴾ [طه: ٩٠].

قال ابن عاشور: «دعاهم إلى معرفة الرب الحق، ثم دعاهم إلى اتباع الرسول؛ إذ كان رسولًا بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع»[(٢)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٩٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٩٠.

❁ اتباع الوحي.

عرض القرآن اتباع الوحي من خلال عدة طرق موضوعية، ويمكن إبراز أهمها بما يلي:

١. اقتران الأمر باتباع الوحي بالنهي عن اتباع غيره.

وفي ذلك حصرٌ لمصدر التشريع؛ إذ لا يمكن للمرء اتباع الوحي وسواه في آن، فإن اتباع أحدهما يلغي الآخر، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أخرج أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه قال: **(خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣])**[(٣)].

ولعل في نسبة الصراط إلى الله إشارة «إلى عصمة هذا الصراط من الزلل؛ لأن

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٤٣٥-٤٦٥، وأخرجه الحاكم في مستدركه، ٢/ ٣١٨.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

كونه صراط الله يكفي في إفادة أنه موصلٌ للنجاح؛ فلذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله» [1]، ولذلك جاء النهي عن اتباع السبل الأخرى، وهي كثيرة، سواء أكانت من العقائد الباطلة أو أي طريق تابع للهوى، «فإن مقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات» [2].

٢. اقتران الأمر باتباع الوحي بالثناء عليه.

وهو أمرٌ تكرر آنفًا أيضًا، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

جاء الثناء على الوحي من عدة وجوه في الآية، فمنها:

١. إن هذا الكتاب نزل من عند الله، وليس من عند البشر، دل عليها قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٢. إن هذا الكتاب مباركٌ، أي: «كثير الخيرات» [3].

٣. إن هذا الكتاب سببٌ للرحمة لمن اتبعه؛ لأن أكبر «سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملًا،... وفي هذه الآيات؛ دليلٌ على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة» [4].

❁ اتباع الصالحين:

الصالحون: «جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته» [5]، ولما كان هذا الخلق عظيمًا؛ وصف الله به عددًا من الأنبياء في آياتٍ كثيرة، فقد دعا نبي الله إبراهيم عليه السلام بأن يكون من الصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣].

ومثله نبي الله يوسف عليه السلام وسليمان عليه السلام، كما أثنى الله على عدد من الأنبياء بهذه الصفة فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

وما دامت للصالحين تلك المنزلة، فقد نتساءل كيف يمكن الوصول إليها؟

إن الوصول إلى هذه المنزلة لا يكون إلا باتباع الصالحين، غير أن هذا الاتباع مقيد بقيد موافقتهم للشريعة، وأما ماخالفوا فيه؛ فإنهم لايتابعون عليه؛ فالحق أحق أن يتبع.

وسوف يكون الحديث عن الصالحين من خلال مايلي:

١. اتباع الصحابة رضي الله عنهم.
٢. اتباع الدعاة والعلماء.
٣. اتباع الآباء الصالحين.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧٣.
(٢) معالم التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٩٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢/ ٢٣٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٦٣.

❁ اتباع الصحابة رضي الله عنهم.

لما كانت السعادة في اتباع الرسل؛ فإن أولى الناس بالاتباع بعد الرسل «هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك»[(١)]، ولا أحد أعلم بحال المرسلين إلا أقرب الناس إليهم وهم أصحابهم.

وقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومنها: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

كما أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[(٢)].

قال الشنقيطي متحدثًا عن آية التوبة: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان؛ أنهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى والوعد بالخلود في الجنات، والفوز العظيم»[(٣)]، وأما اتباعهم؛ فهو اتباعٌ كاملٌ؛ بالاعتقادات والأقوال والأعمال[(٤)].

وقد ساق ابن القيم أدلة وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم من ستة وأربعين وجهًا[(٥)].

بقي أن أشير إلى أن اتباع الصحابة رضي الله عنهم دائر مع الحق وجودًا وعدمًا؛ فإن ما يقولونه أو يفعلونه يعرض على الكتاب والسنة، فإن وافقهما قبل، وإن خالفهما رد.

❁ اتباع الدعاة العاملين:

أقصد بالدعاة العاملين: أولئك الربانيين الذين علموا الحق ودعوا إليه، وصبروا على الأذى الذي نالهم في سبيله.

ساق القرآن ثلاث جوانب في هذا السياق، ومنها:

١. مؤمن آل فرعون.

٢. صاحب (يس).

٣. اتباع المؤمنين.

مؤمن آل فرعون:

تحكي لنا هذه القصة حال رجل عرف الحق فآمن به، ودعا إليه، وكان يكتم إيمانه، ويجادل عن موسى عليه السلام مع أعظم طغاة الأرض فرعون.

والقصة طويلة، لكن المقصود أنه دعاهم إلى توحيد الله تعالى والإيمان بموسى عليه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٦.
(٢) أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب فضائل أصحاب النبي، رقم ٣٦٥٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٧٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٦.
(٥) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٤/ ١٢٣-١٥٢.

السلام، وحذرهم من الشرك الذي يقود على النار.

قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

لم يدعهم الرجل إلى تقليده، بل دعاهم إلى اتباع الحق، ولذلك فإن هذا الرجل إنما اتبع لأنه دعا قومه إلى الحق، لا لأنه دعا إلى نفسه. ثم دعاهم مرة أخرى فقال: ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾ [غافر: ٤١-٤٢].

والخلاصة أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون- واجه الشرك وأهله - الذي تمثل بفرعون وملئه يدعوهم على إلى عبادة إله لاشريك له، واتباع موسى عليه السلام، حتى انقسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: «إما محمدي موسوي، أو فرعوني»[(١)].

قصة صاحب (يس):

قص الله علينا قصة هذا الرجل الذي جاء إلى قومه يدعوهم إلى الله تعالى، وقومه هم أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم ثلاثة من الرسل فكذبوهم جميعًا محتجين بكونهم بشرًا، وفي أثناء الحوار يجيء رجل من أقصى المدينة يسعى ليناظر هؤلاء المعاندين، ويبين لهم حقيقة توحيد الله وعبادته وحده، ومما قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس: ٢٠-٢٥].

طلب منهم هذا الرجل أن يتبعوا المرسلين، «فنبه على موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولًا لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى»[(٢)].

وأخبرهم بأنه يعبد إلهًا واحدًا، وليس هناك شيء يمنع من عبادة الله تعالى، الذي فطرنا جميعًا وإليه مرجعنا جميعًا، وهذا فيه رد وردع لهم للرجوع عن الشرك من خلال التذكير بالبعث.

وكما في قصة مؤمن آل فرعون؛ فإن هذا الرجل لم يدعهم إلى نفسه، بل دعاهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك، واتباع القوم له إنما هو اتباع للحق وليس لشخصه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/ ٢٥٣.

(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٣/ ٤٧٧.

❁ اتباع المؤمنين:

لم يقتصر اتباع الصالحين على قصتين في القرآن فقط، بل إن القرآن دعا إلى اتباع كل من ينيب على الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

قال ابن كثير: «يعني المؤمنين»[(١)].

وخصها ابن القيم بالصحابة فقط، فقال: «وكل الصحابة منيبٌ إلى الله، فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى؛ أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]»[(٢)].

والظاهر والله أعلم أن الآية عامة، وأنها تعني الاقتداء بكل منيبٍ إلى الله، أي: راجع إليه، مقلعٍ عن الشرك والمعاصي، وهذا يعني كل إنسانٍ هذا شأنه من عباد الله الصالحين، «واتباع سبيلهم؛ أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله التي هي انجذاب دواعي القلب وإرادته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه»[(٣)].

❁ اتباع الآباء الصالحين:

إن منزلة الآباء عند أبنائهم منزلة عظيمة، ومحبة الابن لأبيه والأب لابنه كبيرة، وقد أمر الابن بطاعة أبيه في مواطن كثيرة، ولكن هذه الطاعة تزول إذا أمر الوالدان أو أحدهما بمعصية الله، فإنه لا طاعة لهما.

إن اتباع الآباء - شأنه شأن بقية أنواع الاتباع - مقيد باتباع الحق، فما دام الأب متبعًا للحق؛ فإنه يتبع، ومتى جانب الصواب؛ فإنه يترك ولا يتابع في ذلك، مع الاحتفاظ بتقديره واحترامه.

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٨].

إن من اتبع طريق المرسلين، وابتعد عن طريق الضالين؛ «فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه مالم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد»[(٤)].

ثم شرع يبين من هؤلاء الآباء: إنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهؤلاء كلهم أنبياء كما لايخفى -، وهذا هو السبب الأول في اتباعهم، إنهم معصومون وعلى الحق دائمًا[(٥)].

وأما السبب الثاني؛ فقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فقد «طهر آباءه عن الكفر»[(٦)]، وبين أنهم على ملة التوحيد بالدلالة العكسية لعدم الشرك، حتى أصبح

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٥٤.
(٢) إعلام الموقعين ٤/ ١٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦/ ٧٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ١١١.

التوحيد «كالسجية لهم، عرف بها أسلافه بين الأمم، وعرف بها نفسه»[1].

وتأمل كيف يكون حرص الأنبياء على عقيدة أبنائهم، فهم يتابعون ذلك حتى وهم في أخريات حياتهم ساعة الاحتضار.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

ولا يكفي أن يكون ذلك في الدنيا، بل إن الأبناء يلحقون آباءهم، وينالون شرف الاتباع في الدنيا باللحاق بآبائهم المؤمنين في الآخرة، وعنده تكتمل سعادة الآباء والأبناء.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

حيث يخبر الله تعالى عن تمام نعيم أهل الجنة، بإلحاق الأبناء بالآباء، لكن هذا ليس لكل ابن، إنه للأبناء الذين اتبعوا آباءهم بالإيمان فقط، «فعطف الاتباع بالواو؛ يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدًا أو شرطًا في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ»[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٧٣.
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٤/ ٢٦٢.

وعلى هذا؛ فالإيمان شرط لاتباع الأبناء الآباء؛ لأن الآباء في الغالب سببٌ في هداية أبنائهم بعد توفيق الله بتربيتهم وتعليمهم وتهذيبهم.

ولذلك فإن هذا الأب الذي ربى ذريته على الإيمان؛ يتمنى رؤية أبنائه معه في الجنة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه»، ثم قرأ الآية[3].

وعند أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب: أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك)**[4].

[انظر: القدوة: الآباء الصالحون]

ثانيًا: الاتباع المذموم:

لاشك أن مظاهر الاتباع المذموم كثيرة، وذلك ليس بدعًا من القول؛ فإن السبل الموصلة إلى جهنم كثيرة، بينما سبيل الجنة واحد هو اتباع الوحي الذي نزل على الأنبياء عليهم السلام.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٥٠٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، رقم ٣٦٦٠.
وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٢٩٥٣.

وتتكرر مظاهر الاتباع المذموم بحسب الأزمنة والأمكنة، وتتنوع طرائقها، وبعضها يتمسح بمسوح الدين غير أن قائده يظل الهوى أو الشيطان أو كلاهما، أو غيرهما من مظاهر الاتباع المذموم.

- اتباع الشيطان:

حين يتأمل المرء دعاء امرأة عمران العظيم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: ٣٦].

يتعجب من هذا الدعاء، «فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلًا»[(١)].

وأعاذها وأعاذ ذريتها من بعدها من الشيطان الرجيم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه).

ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(٢)].

و الحذر والتحذير من الشيطان والخوف من وسوسته واجب، فحتى الأنبياء لم يسلموا من وسوسة الشيطان، لكن الله سبحانه عصمهم، والأدلة والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم ٢٣٦٦.

قال الراغب: «وسمي كل خلق ذميم للإنسان شيطانًا»[(٣)].

ولذلك فقد ميز الله الشيطان بصفات كاشفة كثيرة، جعلته شديد الوضوح لكل من يبحث عن الحق، ومن ذلك أنه وصف بالكفور كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء: ٢٧].

والمريد، المتعري من كل خير، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: ٣].

كما أنه يؤز بالإغواء والإضلال، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: ٨٣].

ومن الطبيعي أن يوالي غير المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة جدًا.

لكن المهم أن الشياطين لايريدون سوى الضلال والإضلال، وصرف الناس عن طريق الحق، وتزيين الباطل.

أما أثر اتباع الشيطان؛ فيمكن إجماله في جملة من الآثار، ومنها:

١ . الكفر والضلال.

ولا نتوقع من الشيطان غير ذلك، كما لا نتوقع منه إلا كل ما هو مؤذٍ ومضرٍ بالإنسان.

(٣) المفردات، ص ٤٥٥.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر: ١٦].

نقل الطبري عن مجاهد قوله: «﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾: عامة الناس»[1].

وكما هو واضح من الآية، يوسوس الشيطان للإنسان بأن يكفر، فإذا فعل؛ تركه وتبرأ منه، «وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور إلى مايضرهم، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلى عنهم»[2]، ولا لوم عليه؛ لأنه عدوٌ يخطط للإيقاع بخصمه، لكن اللوم على من يتبعه ويتبع وسوسته.

وأما الضلال فقريب من الكفر ومتممٌ له، وحين يقع المرء في الضلال؛ فإنه واقعٌ في الكفر لا محالة، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: ٦٠]. والكفر داخل ضمن الضلال.

٢. الردة والانتكاس.

وهذا يقع لكثيرٍ ممن عرف الحق وحاد عنه بداعي الهوى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾ [محمد: ٢٥].

تحكي الآية صفة من تبين لهم الحق ثم منعتهم شهوات نفوسهم على اختلافها من اتباعه، فارتدوا على أدبارهم، بسبب تسويل الشيطان وتزيينه لهم طريق الباطل، وإيهامهم أن في هذا الطريق إرضاء لشهواتهم وأشباعًا لغرائزهم، ولذلك أسبابٌ كثيرة، لكن الشيطان يقع على رأس هذه الأسباب.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

٣. الصد عن سبيل الله.

حين يقع المرء في الكفر والضلال والردة والانتكاس؛ يتطور أمره إلى أن يصد الناس عن اتباع الحق، ويسعى بكل ما أوتي إلى جعل الناس يسيرون في طريق الضلال والهوى، وهذا من تاثير الشيطان عليه، وتزيينه لسوء العمل، كما يحكي القرآن ذلك على لسان الهدهد مخاطبًا نبي الله سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: ٢٤].

ظاهر الآية يدل على أن سبب ضلال

(١) جامع البيان ٢٨/ ٥١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٣.

القوم؛ صد الشيطان إياهم عن السبيل، فهم لايهتدون للسجود لله تعالى، قال ابن القيم: «ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك؛ وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لاينبغي السجود إلا له»(١)، ويقترب من الصد تزيين الباطل، وهو كثير في القرآن.

٤ . الجدال بغير علم.

وهي نتيجة أخرى للصد عن سبيل الله، حيث يبدأ المرء في الدفاع عن مبدئه الفاسد وضلاله المستحكم، وسبب هذا اتباعه الشيطان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [الحج: ٣].

تتحدث الآية عن قوم يجادلون في الله جدالًا مبنيًا على جهل، «أي: جدلًا ناشئًا عن سوء نظر وتفكير، فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات»(٢).

وهؤلاء القوم تبعٌ لكل شيطان مريد، سواء أكان من شياطين الجن أو الإنس من أئمة الكفر والضلال؛ فإن هؤلاء هم الذين صدوهم عن الحق.

وكم يجد المرء من العنت في مجادلة هؤلاء الأتباع؛ لأنهم ليس لديهم نقل تحاكمهم إليه ولاعقلٌ، فإذا ما جاءته الحجة الدامغة وأوقفته؛ زعم أنها لم تخف على شيطانه الذي يتبعه، فإن قبلها ذلك المتبوع، وإلا فلا حجة.

٥ . إيقاع العداوة والبغضاء.

وهذه من أحب الصفات إلى الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩١].

إن الشيطان يهيئ للعداوة والبغضاء بين الناس عن طريق الخمر والميسر؛ لأنهما من أسرع الوسائل في حصولها، وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**)(٣).

قال النووي: «أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء، والحروب والفتن ونحوها»(٤).

---

(١) بدائع التفسير ٣/ ٣٣٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٩٢.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم ٢٨١٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٥٧.

وأعظم التحريش عند الشيطان أن يفرق بين المرء وزوجه[(١)].

ولذلك فالمطلوب من الإنسان الحذر من الشيطان ومزالقه التي توصل إلى العداوة والبغضاء بالقول والفعل.

٦. إلقاء الرعب في قلوب المسلمين.

في غزوة أحد تولى بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الزحف.

فجاءت هذه الآية تحكي قصتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ ۝١٥٥﴾ [آل عمران: ١٥٥].

في الآية بيان سبب التولي يوم الزحف، وأنه إنما كان استزلال الشيطان لهم، بسبب بعض ذنوبهم السالفة، وكانت هذه الذنوب سببًا خفيًا وراء التولي، وقد نقل ابن كثير عن بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»[(٢)].

٧. نسيان ذكر الله.

وهذا أمر طبيعي، فإن من استولى عليه الشيطان؛ أنساه ذكر الله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ ۝١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦].

إن هذا القرين هو الذي ينسي المرء ذكر الله تعالى - بكل أنواعه، ولعل المقصود أن هؤلاء القوم نتيجة استيلاء الشيطان عليهم وغلبته على نفوسهم؛ أنساهم ذكر الله، فلم يعودوا يذكرونه بألسنتهم، ولم يعودوا يتذكرونه بأفعالهم.

٨. التناجي المذموم.

وهي إحدى الصفات المذمومة التي يزين فعلها لبني آدم حتى يعمق بينهم العداوة والبغضاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠].

والمتأمل للآية يلاحظ قصر النجوى بـ(إنما) على الشيطان، فهو المختص بها وهي المختصة به، يوسوس إلى قلوب العباد بوساوسه الخبيثة ليحزن الذين آمنوا، لما يقع في نفوسهم من خوف الشر.

وقد ورد في السنة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا كانوا ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان**

---

(١) انظر: ما أخرجه مسلم عن جابر أيضًا في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم ٢٨١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٢.

دون الثالث)[1]، ولذلك فالمطلوب تفويت الفرصة على الشيطان، حتى لا يوقع العداوة والبغضاء بين الناس.

٩. التبذير.

لا يحب الشيطان إلا أن يوقع المرء بشر أفعاله؛ لأنه لا يريد له الخير، وكل من أمعن في اتباعه؛ بالغ في إيقاعه في الخطأ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء: ٢٧].

التبذير صفة مذمومة، منشؤها الشيطان، حتى عد المبذرون إخوان الشياطين، نتيجة ملازمتهم لهم واتباعهم إياهم، «وقد زيد تأكيد ذلك بلفظ ﴿كَانُوٓاْ﴾ المفيد أن تلك الإخوة صفة راسخة فيهم، وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحًا»[2].

١٠. دخول النار.

هذا الأثر قاصمة الظهر، وهو الذي لا نطيق؛ لأن اتباع الشيطان يؤدي بالمرء إلى السعير.

ألم يقل الله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: ٢١]؟.

لنتأمل في الاستفهام الذي يظهر منه التعجب، ومعناه: أيتبعون الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير؟

إن العاقل لا يفعل ذلك بلا شك، وهذا يدل على أن هؤلاء القوم ليست لهم عقولٌ، وهو في حد ذاته ذمٌّ لهم، ولكن: أين عقولهم؟ لقد سيطرت عليها الشهوات واتباع الهوى، فتبعوا الشيطان مع علمهم بعداوته الشديدة لهم.

- اتباع الآباء الضالين.

إن حب الابن لأبيه مغروسٌ في نفسه، وهو من أعراف الأقوام، وآدابهم الاجتماعية، فالطفل «يشعر بأن أباه أعظم الناس وأحقهم بالإجلال والتعظيم»[3].

هذا؛ وقد كان العرب إذا قضوا حجهم وقفوا عند الجمرة، وطفقوا يتفاخرون بالآباء، ويذكرون أيام أسلافهم في الكرم والشجاعة ونحو ذلك، حتى قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠].

إذن فمحبة الابن لأبيه أمرٌ معتبرٌ شرعًا، وقد حث عليه الإسلام في مواضع كثيرة، ولكن يجب ألا تطغى هذه المحبة على الحد الطبيعي، بحيث تكون سببًا في رد الحق، وعدم اتباعه بحجة اتباع الآباء.

وحين تتأمل دعوات الأنبياء؛ تجد أنها بدأت بدعوة الآباء أولًا، وأوضح الأمثلة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم ٦٢٨٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٨٠.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٢٢٦.

على ذلك: دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، وقد صورها القرآن في مواضع كثيرة.

ومن المهم الإشارة إلى أن الراغب الأصفهاني عد العلماء والمعلمين داخلين في مفهوم الآباء، فقال: «الأب: الوالد، ويسمى كل من كان سببًا في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره أبًا،....، وسمي معلم الإنسان أبًا لما تقدم ذكره.

وقد حمل قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢] على ذلك؛ أي: علماؤنا الذين ربونا بالعلم بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]»[1].

وعلى هذا؛ فالمعنى يأخذ بعدًا أوسع من المعنى القريب للأب.

هذا وقد توسع القرآن في الحديث عن هذه ظاهرة اتباع الآباء، عارضًا أقوالهم، ومن هذه المظاهر:

١. اتباع الآباء في الشرك.

لقد كان اتباع الآباء سببًا رئيسًا في رد دعوات الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد؛ فيجيبه الملأ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وحين سأل إبراهيم عليه السلام قومه عن سبب عبادتهم الأصنام؛ أجابوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٣].

ومثل ذلك نبي الله هود عليه السلام دعاهم إلى توحيد الله فأجابوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

وكذا نبي الله صالح وشعيب وموسى عليهم السلام حتى نصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث رد عليه كفار قريش بهذا الرد.

ثم يبين لنا القرآن أن هذه المقولة هي مقولة جميع الأمم لرسلهم، فيقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذا فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلم أن كل ما يلاقيه من صدود وإعراض عن دعوته؛ قد لقيه الأنبياء جميعًا مع أقوامهم، وأن ردهم كان واحدًا، وهو يعكس طبيعة المعرضين: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

٢. اتباع الآباء في التحليل والتحريم.

فاتباع الآباء في الشرك هو اتباع لهم في العقائد، وإذا كانوا قد اتبعوهم في العقائد؛ فمن باب الأولى أن يتبعوهم في الشرائع،

(١) المفردات، الراغب ص ٥٧.

وما يتعلق بها من التحليل والتحريم، والإخلال بالأحكام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٧٠].

جاء الأمر بالاستمتاع بما أحل الله والابتعاد عما حرم، وقد عبرت عنه الآية باتباع خطوات الشيطان.

قال الشاطبي: «فكأنهم استندوا إلى دليل جملي وهو الآباء؛ إذ كانوا عندهم من أهل العقل، وقد كانوا على هذا الدين، وليس إلا لأنه صوابٌ فنحن عليه؛ لأنه لو كان خطأً؛ لما ذهبوا إليه»[(١)].

وبهذا نفهم أن الشرك الذي كان عليه الآباء أصبح في نظر هؤلاء ندًا لاتباع الحق، كما أصبح مصدرًا للتشريع، كما نفهم أن هؤلاء القوم ليس لديهم أدنى استعداد للبحث في شيء خارج عما وجدوا عليه آباءهم ألبتة.

٣. اتباع الآباء في المجادلة بغير علم.

وهي صفة ناشئة عن محبة الابن لأبيه، فإنه سوف يدافع عما يراه حقًا، ودفاعه هذا دفاعٌ بغير علم، إذ كيف يتبع أباه في شيء فيه حتفه؟ ومعلومٌ أن اتباع الآباء لو كان في أمرٍ من أمور الدنيا، ورأوا بطلانه؛ لم يقبلوا به، فكيف بأمرٍ من أمور الدين؟!

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: ٢٠ ـ ٢١].

نعى الله سبحانه عليهم المجادلة بغير علم، وهذه المجادلة «مع كونها من غير علم؛ فهي في غاية القبح؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى كلام الله، وهو يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بونٌ عظيم، فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء»[(٢)].

٤. اتباع الآباء في فعل الفاحشة.

وإذا كان هؤلاء القوم يتبعون آباءهم في التحيل والتحريم؛ فإنهم يتبعونهم فيما يتفرع عن ذلك، ألا وهو فعل الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) الاعتصام، الشاطبي ١/ ١٦٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٣٤.

الفاحشة في الأصل: اسم «للعمل الذميم.. وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضر أو فساد»[1].

وكما تلاحظون؛ فإن القوم لم يكتفوا باتباع آبائهم في فعل الفاحشة، بل تعدوا ذلك إلى أمر عظيم زاعمين أن الله أمرهم بها.

ولا يخفى أن هذين القولين هما النتيجة الحتمية للولاية الشيطانية المذكورة قبل هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

٥. اتباع الآباء في رد دعوات الأنبياء.

تلك أسوأ صفة، وهي سببٌ لجميع الصفات الأخرى، حيث كان اتباع الآباء سببًا في رد دعوات الأنبياء، وحين يرد الإنسان دعوة النبي؛ فلاشك أنه سيقع في ضلال مبين، وتأمل إجابة قوم موسى عليه السلامَ حين جاءهم بالبينات حيث قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦].

وكان لقريش الإجابة نفسها: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: ٤٣].

إن هؤلاء القوم حين واجههم القرآن بحججه وبيناته؛ أحسوا بخطورة ذلك عليهم، لأنهم لا يعتمدون إلا على تقاليد بالية يتمسكون بها، وهي قولهم: إن هذا النبي يريد أن يصد الناس عما كان يعبد آباؤهم، وهم يشعرون أنهم قاوموا الحجة بالحجة، وما دروا أنها حجة ساقطة مرجعها التقليد الأعمى!

ولم يكتف القرآن بعرض ردود القوم؛ بل بين أن الأنبياء والقرآن ردوا عليهم، وأظهروا عوار تفكيرهم من خلال عدة أمور، ومنها المناقشة العقلية والتنزل للخصم، والتذكير بالله تعالى وبنعمه، والتحقير والتوبيخ، والتعجب والإنكار، والتذكير بقدرة الله عليهم وأخيرًا التهديد بالعذاب.

- اتباع الطواغيت من السادة والكبراء.

حين نأتي على دعوات الأنبياء عليهم السلام؛ نجد أن دور الملأ واضحًا في صد الناس عن دين الله، والملأ: «جماعة يجتمعون على رأي فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا»[2].

لقد كان اتباع الطواغيت من الكبراء من أسباب الصدود عن الحق، والتمرد على الأنبياء وعصيانهم، فهاهو ذا نوحٌ عليه السلام يناجي ربه: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١].

لقد عصى القوم نوحًا عليه السلام

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٢.

(٢) المفردات، الراغب، ص ٧٧٦.

فلم يستجيبوا له، على الرغم بأنه وعدهم بالمغفرة وأن يرسل السماء عليهم مدرارًا بالمطر، ويمدهم بالمال والولد وتتحول أراضيهم على جنات وأنهار. وإضافة إلى العصيان؛ اتبعوا رؤساءهم في الكفر وعدم اتباع دعوة نبي الله نوح عليه السلام.

قال الألوسي: «والظاهر أن اتباع عامتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك؛ إشعارٌ بأنهم اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة»(١).

ثم ننتقل إلى هود عليه السلام وكيف كذبه قومه اتباعًا لكبرائهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩] وكما هو واضح؛ فالآية بينت لنا ثلاثة أمور: جحودهم آيات الله، وعصيانهم الرسل واتباع الجبابرة المعاندين.

قال الراغب: «الجبار: في صفة الإنسان: يقال: لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لايستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم»(٢)، وأما العنيد؛ فيقول: «المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده»(٣).

ويتردد مثل هذا الكلام في قصة صالح وشعيب مع قومهما، وقد ساقها القرآن بتفاصيلها، وكانت النتيجة أن هذا التكذيب كان سبب العذاب.

ويبقى أن أشير إلى فرعون الذي بلغ منزلة عالية في الكبر عن الحق، ونتيجة لذلك؛ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

ولذلك يقول تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود: ٩٧].

لقد أرسل الله موسى عليه السلام بالحجج والآيات الباهرة والظاهرة إلى فرعون وملئه، فاتبع القوم أمر فرعون في تكذيب موسى عليه السلام، ورد ما جاء به من الحق، ولذلك رد الله عليهم مباشرة بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ لأن من يكذب الأنبياء ويرد دعوتهم لا يمكن أن يكون أمره رشيدًا، «وإنما هو غيٌّ صريح، وضلالٌ ظاهر مكشوفٌ، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم»(٤).

[انظر: القدوة: الكبراء والرؤساء]

● اتباع الباطل.

الباطل عامٌ في كل ما هو خلاف الحق،

(١) روح المعاني ١٥/ ٧٦.
(٢) المفردات، الراغب، ص ١٨٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٩٠.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٣٣.



والحق راجعٌ للوحيين: الكتاب والسنة، ولذلك؛ فالمؤمن يتبع الحق دائمًا، والكافر يتبع ضده وهو الباطل.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمد: ١-٣].

يبين الله في الآيات حال فريقين من الناس من خلال بيان النتيجة ثم تفصيل السبب الموصل إليها، ففي الأولى؛ يبين الله سبحانه وتعالى إضلال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ثم يبين تكفيره لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم، ثم يبين علة هذا الإضلال بأنه كان بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل.

والملاحظ أنه تكرر الاسم الموصول (الذي) عدة مرات، وهذا له فائدة بلاغية ذكرها الجرجاني، وملخص كلامه: إن الإنسان حينما يؤتى له بصفات رجلٍ ما، فيمدح عليها دون أن يذكر اسمه؛ فإنه لابد أن يتساءل: هل سمع بهذه الصفات؟ وهل حصل معناها؟ وكيف ينبغي أن يكون هذا الرجل حتى يحصل المدح أو يبتعد عن الذم؟[1]

وعليه؛ فالمستحقون للذم هم الذين يتبعون الباطل، واتباعهم الباطل كان سبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ولذلك؛ أضل أعمالهم، بينما المستحقون للمدح متبعو الحق، وسبب ذلك إيمانهم بالله وعملهم الصالح، ولذلك كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

ويرخي ختام الآيات بظلاله على العمل، فبين إضلال العمل، وتكفير السيئات وصلاح البال؛ بونٌ شاسع، حيث يأتي إضلال الأعمال بضياع وضنك وشقاوة في الدنيا والآخرة، بينما يأتي تكفير السيئات وإصلاح البال بسعادة نفسية وبدنية في الدنيا والآخرة.

- اتباع الهوى.

إن أعظم مظاهر الاتباع المذموم؛ اتباع الهوى؛ فكم صد أقوامًا عن الحق، وكم صرف آخرين إلى الباطل، وحين نتأمل سير الأنبياء؛ نجد أن كثيرًا ممن عارضهم من أقوامهم إنما كان بسبب الهوى، ألست ترى أن اتباع الآباء في أصله اتباعٌ للهوى.

والهوى: «ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي ذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، وقد توسع في ذلك، ص ١٨٢-١٨٥.

داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1].

وعرفه بعضهم بأنه: «ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»[2].

وكعادة القرآن في معالجة هذه المواضيع؛ فإنه يطرقها من جميع جوانبها؛ فقد تحدث عن خطورة الهوى في الحكم والقضاء والشهادة، وأنه يؤدي إلى أن يكون إلهًا يعبد.. إلخ، كما تحدث عن أشخاص معينين أضلهم هواهم، وحذر من اتباع الغوى، ولم يغفل بيان خطورة اتباع الهوى، ومن مظاهر اتباع الهوى ما يأتي:

١. اتباع الهوى في الشرك.

إن اتباع الهوى في الشرك أعظم الأنواع، حيث يعبد المرء ما سوى الله سبحانه وتعالى تبعًا لهواه.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ٢٣].

أبانت الآيات أن تلك الأصنام التي عبدت من دون الله، وسميت بأسماء مخترعة ليس عليها دليلٌ ولا برهان؛ إنها لم تأت إلا من قبل الظن والهوى، «لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله، ولا من رسوله الله أخبرهم به»[3].

ومما يزيد أمر اتباع الهوى في الشرك وضوحًا: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٨ ٢٩].

٢. اتباع الهوى في الحكم والقضاء.

القضاء والحكم بين المتخاصمين مظنة وقوع الميل لأحد الأطراف، مالم يعصم الله القاضي من ذلك، وقد يكون هذا الميل لأمر من أمور الدنيا أو لحظ من حظوظ النفس، ولأهمية ذلك.

فقد أمر الله سبحانه نبيه داوود عليه السلام بالحكم بين الناس بالحق وحذره من اتباع الهوى.

فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

(١) المفردات، الراغب، ص ٨٤٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٧.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٨٤.

وإذا جاء الأمر للأنبياء بذلك على أهميتهم وعصمتهم من الخطأ، فما بالك بمن سواهم!.

وفي الآية تقسيم واضح لطريق الحكم بين الناس: إما الحق، وهو الوحي المنزل، وإما الهوى، وهو كل ما سوى الوحي.

ثم بين أن اتباع الهوى علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «تدل على العلية»[1]، ومن ثم؛ فإن الضلال موصلٌ إلى العذاب الشديد يوم القيامة، والمحصلة: «إن متابعة الهوى توجب سوء العذاب»[2].

وكما خاطب الله نبيه داوود عليه السلام بالبعد عن الهوى في الحكم؛ خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومعلومٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس واقعًا في الهوى، لكن القصد أن يتقرر هذا الأمر عند الناس، فلا يقعوا فيه، وهذا فيه تشديد على متبعي الهوى، حتى لو كان ذلك لمصلحة كما قد يرى ويسوغ البعض.

٣. اتباع الهوى في الشهادة.

بعد أن تحدثت عن اتباع الهوى في الحكم؛ آتي إلى أمر مقترن به وهو الشهادة، سواء أكان ذلك أمام القاضي أو الحاكم، أو في التعاملات الأخرى بعيدًا عن الحكم والقضاء من خلال ذم شخص أو جماعة أو مدحهما.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

إن أول ما يقابل القارئ نداء المؤمنين، فهو يخاطبهم بأحب الأوصاف إليهم، ويخاطبهم لأنه قد يقع منهم الجور على الرغم من إيمانهم، وتكون الشهادة حتى على النفس والوالدين والأقربين، ولا شك أن هذا أمر صعب أن تشهد على نفسك ووالديك والأقربين منك، قال الطبري: «وذلك أن يكون عليه حقٌّ لغيره، فيقر لله به، فذلك قيامٌ منه له بالشهادة على نفسه، وهذه الآية عندي تأديبٌ من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين»[3].

ويؤيد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٢٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ١٧٥.
(٣) جامع البيان ٥/ ٣٢١.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ففي الآية الأولى حديث عن العدل مع الأقربين خوف الميل لهم، وفي هذه الآية حديث عن العدل مع الأعداء خوف الجور عليهم، واتباع الحق يضبط ذلك، واتباع الهوى يميل إلى إحدى الطرفين.

٤. اتباع الهوى في العبادة والدعوة.

يوجه الله نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يدعو إلى ملة التوحيد التي شرعها له، ويستمسك بها ويثبت عليها، فكم من إنسان يظهر الدعوة إلى الله وهو في الحقيقة إنما يدعو لنفسه.

ولذلك يقول تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

كما ينهاه عن اتباع أهوائهم؛ لأنها مخالفة للاستقامة على طريق الحق.

ومن خلال الآية؛ يلمس المرء صرامة في النهي عن اتباع الأهواء، وذلك لتبتعد هذه الدعوة عن أماكن الانزلاق ومواضع الاضطراب، وتبقى واحدة موحدة؛ مرجعها الأول والأخير هو الوحي، حيث الصفاء والنقاء والبعد عن الأهواء.

هذا ما كان من أمر الدعوة؛ أما ما كان من أمر الشريعة والعبادة.

فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

هذه الآية - على إيجازها حوت معاني عظيمة؛ وذلك أنها بينت أن شريعة الإسلام أفضل الشرائع؛ لأنها الخاتمة لجميع الشرائع السابقة من جهة، ولأنها من عند الله تعالى من جهة ثانية، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعها، والمقصود بذلك المداومة على اتباعها، ودعوة الأمة إلى ذلك، وعدم التفريط فيها إلى الأهواء الأخرى.

وفي مقابل ذلك؛ فإن كل مالم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فهو باطلٌ وضلالٌ، وهو من أهواء الذين لا يعلمون.

٥. اتباع الهوى في الصد عن الحق.

لا يتوقف اتباع الهوى عند حد، بل يمتد ليشمل الصد عن الحق، لأن الحق نقيض الهوى، فلا يكتفي البعض بعدم اتباع الحق بل يتجاوزون ذلك للصد عنه.

وقد حذر الله نبيه موسى عليه السلام من اتباع الذين يصدون عن الحق: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥، ١٦].

قال ابن كثير: «المراد بهذا الخطاب:

آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في الدنيا، وعصى مولاه، واتبع هواه»[1].

وقد وضحت الآية نتيجة اتباع هؤلاء بكلمة واحدة وهي قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، قال ابن كثير: «أي: تهلك وتعطب»[2].

عبادة الهوى:

إن كثرة اتباع الهوى؛ تصير المرء عبدًا لهواه يعبده من دون الله، ويصدر في أقواله وأفعاله من الهوى الظاهر أو الخفي، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ففي الآيتين نجد الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم -وهو عامٌّ لجميع أفراد الأمة- ينعي على أولئك الذين اتخذوا الهوى إلهًا، والتعبير بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ يفيد الحصر، أي «لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه»[3]، ويقول الزمخشري: «أي هو مطواعٌ لهوى النفس، يتبع ماتدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه»[4].

وتأمل التعقيب في الآيتين، ففي الآية الأولى؛ وصفهم بالأنعام بل أضل منها، وفي الآية الثانية؛ بين أن الله ختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؛ ولأن الله ختم على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة؛ صاروا كالأنعام، بل أضل من ذلك، ولعل هذا سبب عدم سمعهم وعقلهم الذي عبرت عنه الآية الثانية، فهل يتوقع لهم الهداية بعد ذلك؟

[انظر: الهوى: مجالات اتباع الهوى]

- اتباع الظن.

لابد من معرفة الظن المقصود؛ فقد عرفه الراغب بقوله: «الظن: اسم لما يحصل عن إمارة، ومتى قويت؛ أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا؛ لم يتجاوز حد التوهم، والظن في كثير من الأمور مذموم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾»[5][يونس: ٣٦].

والظن يختلف من حيث القوة والضعف[6]، ولكن تبقى الظنون جميعًا تحت سقف اليقين، تقترب منه أو تبتعد عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥٢.
(٢) المصدر السابق.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٧٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٣٩.
(٥) المفردات، ص ٥٣٩.
(٦) الكليات، الكفوي، ص ٥٩٤.

ولقد عرض القرآن الكريم لمظاهر اتباع الظن من جوانبها المختلفة، ومنها:

١. اتباع الظن في الشرك.

إن عبادة الله سبحانه وتعالى ينبغي أن تقوم على اليقين، وبخاصة في أمور العقائد، و ألا يتطرق إليها أدنى شك أو شبهة، لأنها متعلقة في الأصل بالقلب، فما بالك إذا بنيت على ظنون وأوهام وشبهات، وحين يتطرق الظن إلى العقائد؛ بطل كونها من عند الله تعالى، كما بطل الاحتجاج بها؛ لأنها أصبحت مدخلًا لكل طاعنٍ، ومرتعًا لكل مبطلٍ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦].

لقد جاءت الآية بعد مناظرة طويلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين في إثبات من يملك الرزق، ومن يملك الإحياء والإماتة، والهداية.

وقد تبين أن هذه الآلهة المزعومة لا تملك من ذلك شيئًا؛ لأنها ليس لها من حق في التصرف والتدبير، وبذلك حجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم جاءت هذه الآية عقب الآيات السابقة لتبين أن هؤلاء القوم إنما يعبدون ويتبعون الظن، أي: ظنهم بأن هذه الآلهة تنفع أو تشفع، وأنها حقًا آلهة.

وفي مقابل شركهم بالله واتباعهم الظن؛ نجد أنهم يحتجون على هذا العمل بحجة داحضة باطلة ألا وهي القدر، أي: أن الله شاء لهم ذلك: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والمعنى: «هل عندكم بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ماتشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون، على يقين من خبر من يقطع الخبر عذره، أو حجة توجب لنا اليقين من العلم فتخرجوه لنا»[1].

٢. اتباع الظن في الإضلال عن سبيل الله.

لم يكتف هؤلاء المشركون بضلالهم عن سبيل الله؛ بل أرادوا إضلال غيرهم، وهذا كما مر طبيعة كل امريء أن يدعو الناس إلى معتقده، وأن يصد الناس عن اتباع المعتقدات التي تشغب أو تشوش على معتقده، وهؤلاء هم غالبية الناس.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٧٩.

ينهى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة هؤلاء المشركين، وهم أكثر من في الأرض.

قال ابن عباس: «الأرض هنا: الدنيا»[1].

ثم بين سبب النهي عن طاعتهم باتباعهم الظن، «وكثيرٌ من المفسرين يقولون: المراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم، لا إلى تعليلٍ أصلاً»[2].

٣. اتباع الظن في تحريف الأسماء.

وكما في اتباع الهوى؛ ابتدع المشركون بدعة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، أضافوها لاتباع الهوى؛ وذلك بتحريف الأسماء، فمدحوا من لايستحق المدح باشتقاقهم أسماء لآلهتهم من أسماء الله تعلى، وذموا من لايستحق الذم؛ إذ سموا الملائكة تسمية الأنثى، وفي كلا الأمرين لا مستند لهم إلا اتباع الظن.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٧ ٢٨].

ففي الأولى اشتقوا لآلهتهم أسماء من أسماء الله دون دليلٍ، وفي الثانية سموا الملائكة إناثًا دون دليلٍ أيضًا، وكل مستندهم الخرص والظن.

٤. اتباع الظن في عدم التثبت.

إن من يتبع الظن في الأمور العظام وهي أمور العقيدة ولايبني عقيدة على مستمسك صحيحٍ وصريح من الوحي؛ فلا شك أن أعماله يغلب عليها عدم التثبت، وهي نتيجة طبيعية؛ لأنه لا يبحث عن الدليل والبرهان؛ بل مبنى عمله على الحدس والخرص، ويعظم الأمر حين يكون الظن في مسألة العقائد.

وهذا ما توضحه الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ١٥٨].

فالآية تنفي قتل المسيح أو صلبه، وتثبت أنهم في شبهة من ذلك على الرغم من تظاهرهم باليقين.

والحاصل أن كل الغيبيات؛ لا تقبل إلا بنص صحيح صريح، ولا يقبل فيها مجرد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ١٣٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٣٣.

اتباع الظنون والأوهام، أيًا كان مصدر ذلك، وهو ما يورث العقائد الباطلة.

❁ اتباع الشهوات.

إن اتباع الشهوات متفرع عن اتباع الهوى، فما الشهوة إلا بضعة من الهوى وبعض منه، يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: ٥٩].

جاءت هذه الآية بعد جملة من الآيات تحدثت عن الأنبياء وذكرت صفاتهم، ثم ذهب هؤلاء القوم وجاء بعدهم قومٌ أضاعوا الصلاة و نتج عن ذلك أن اتبعوا الشهوات.

قال القرطبي: «الشهوات: عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه، ويلائمه ولا يتقيه»[(١)].

«ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن: الخلف الطيبين لايضيعون الصلاة ولايتبعون الشهوات»[(٢)].

هذا وإنه من المعلوم أن من ابتلي بأمر؛ فإنه يحب أن يكون الناس على شاكلته ومنهجه، ولذلك فإن من ابتلي بالشهوات يود أن يسير الناس كلهم في هذا الطريق، وأن يبتعدوا عن طريق الاستقامة.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

قررت الآية إرادتين: إرادة الله التوبة على عباده، وإرادة الذين يتبعون الشهوات أن نميل إليها، وتأمل في قوله ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقل: «يريد الله أن يتوب عليكم»، حيث «قدم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ ليدل على التخصيص الإضافي، أي: هو الله وحده، وهو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي: يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي»[(٣)].

إذًا؛ هذا مايريده الله منا، إنه يريد أن يلم شعثنا ويجمع تفرقنا، ويقرب بعيدنا، وهذا مراد الله تعالى وتلك مراد أتباع الشهوات والشيطان، فأي الإرادتين أحق بالاتباع؟

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٨٢.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ٣١٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٢١.

الأساليب القرآنية في عرض الاتباع

المتأمل في الآيات القرآنية التي عرضت موضوع الاتباع بشقيه المحمود والمذموم يلاحظ أنها استخدمت أساليب لغوية وبلاغية غاية في الروعة.

ولقد كانت هذه الأساليب تتخذ جانب الحث والدعوة والطلب في جانب الاتباع المحمود، فترغيب فيه مطلقًا.

و تستخدم جانب النهي والزجر والإنكار في جانب الاتباع المذموم، فتحذر منه مطلقًا.

أولًا: أسلوب الطلب للحث على اتباع الخير:

أسلوب الطلب أحد أساليب القرآن الكريم في الحث على الاتباع المحمود، ويتضمن الطلب أنواعًا كثيرة، لكن حديثي سوف يركز هنا على الأمر والاستفهام فقط.

أسلوب الأمر:

جاء في الكليات تعريف الأمر بأنه: «استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء....»[(١)]، وسوف أعرض كيف جاء الأمر بالاتباع.

لقد عرض القرآن آيات الأمر بأساليب كثيرة، ومن هذه الأساليب مايلي:

١. جاء الأمر بالاتباع ردًا على المشركين حين قالوا عن القرآن: إنه تقاليد بالية، وعن محمد صلى الله عليه وسلم بأنه درس الآيات على الآخرين، وكأن في ذلك تحصينًا لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم من النقض والنقد، والدعوة للاعتصام بالوحي فقط.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥ ـ ١٠٦].

ولذلك جاء الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بألا يلتفت ولا يأبه بذلك، وأن يلتزم الوحي واتباعه، ويعرض عن المشركين، ولايلتفت لأقوالهم.

٢. جاء الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم باتباع الوحي في خاصة نفسه، وإذا كان اتباع الوحي أمر به وطبقه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه، فلأن يأمر به الناس من باب الأولى.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩].

٣. قد يجيء الأمر بالاتباع بعد بيان أهمية الدين الذي هو عليه الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ

---

(١) الكليات، الكفوي، ص ١٧٦-١٨١.

﴿فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

«وبين قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ محسن المطابقة بين الأمر والاتباع، والنهي عن اتباع آخر»[1].

٤. إن الله قد اختصنا بأن أنزل علينا أفضل الكتب، وجعل هذا كتاب مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، وكتابٌ هذه صفاته؛ لا بد من اتباعه.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أثنى الله على هذا الكتاب، ولما «بين أن إنزال الكتب رحمة منه، لأن غايتها الدلالة على منزلته، فتمتثل أوامره وتتقى مناهيه وزواجره؛ بين أنه لم يخص تلك الأمم بذلك، بل أنزل على هذه الأمة كتابًا، ولم يرض لها كونه مثل تلك الكتب، بل جعله أعظمها بركة وأبينها دلالة»[2]، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ ولما كان هذا شأنه أمر باتباعه.

٥. وما دامت هذه الشريعة أفضل الشرائع وهذا الكتاب أفضل الكتب؛ فلا بد من اتباعه، ولا يتصور سوى ذلك، حيث لا يحيد عن اتباعه إلا مفتونٌ أو جاهل، لأنه يؤدي إلى الصراط المستقيم، ولا عجب أن نؤمر باتباعه في آياتٍ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال الزمخشري: «ولأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه»[3]، كما جاء في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: ٤٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم لقريش: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [الزخرف: ٦١] وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾ [الزخرف: ٤٣].

٦. ومادام أن هذا النوع من الاتباع يؤدي إلى الصراط المستقيم؛ فهو بالتأكيد يؤدي إلى محبة الله ومغفرته، إضافة إلى هداية العباد للصواب، فأما المحبة والمغفرة؛ فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

وأما الهداية للصواب، ففي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٤٨.
(٢) نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٢٩.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٨.

ثانيًا: أسلوب الاستفهام الإنكاري:

الاستفهام: طلب الفهم، وله عددٌ من الأدوات، وقد تستعمل هذه الأدوات في غير معناها الحقيقي، وتفهم من سياق الكلام بقرينة.

١. ورد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

والسر في هذا الاستفهام الإنكاري «ليتنبه السامع، حتى يرجع على نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب؛ إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل مالا يقدر عليه،... وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، وإما لأنه جوز وجود أمرٍ لا يوجد مثله»[(١)].

كما يبين هذا الاستفهام أنه لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، وإسلام الوجه كناية عن إخلاص العبد لربه، وانقياده وإذعانه له، ثم أردف ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ومع إسلام الوجه والإحسان؛ اتباع ملة إبراهيم حنيفًا، بمعنى أنه «اتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به نبيه من بعده»[(٢)].

واختصاص إبراهيم عليه السلام بالاتباع بوصفه «وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له؛ فإنه انتهى إلى درجة الخلة، التي هي أرفع مقامات المحبة»[(٣)].

وعلى تعريف الجرجاني؛ يتبين أنه لا دين أفضل من دين الإسلام، ولا متابعة أتم من متابعة ملة إبراهيم الحنيفية عليه السلام.

٢. وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢ ٩٣].

فالآية تحكي تعارض مصلحتين:

أحدهما: مصلحة حفظ العقيدة، بما تعني هذه الكلمة من اتباع موسى عليه السلام.

والأخرى: مصلحة حفظ وحدة بني إسرائيل، وعدم تفرق جامعتهم.

وبين هاتين المصلحتين؛ «حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة»[(٤)].

فقدم المصلحة الثانية على الأولى، فغضب موسى عليه السلام؛ «لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح المجتمع»[(٥)]، ووفق كلام الجرجاني الآنف؛ فلعل مراجعة موسى عليه السلام لهارون عليه السلام تنبيه له ليعرف موضع الخطأ.

ومثل ذلك؛ قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَ اللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ

---

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١١٩.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٥/ ٢٩٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٩٣.
(٥) المرجع السابق.

﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢ ١٦٣].

يتعجب المرء من دقة القرآن في عرض هذه المقارنات بطريقة تحبب في أحدهما وتبغض بالأخرى، وهذا أحد معاني «المثاني في القرآن» بذكر الشيء وضده[(١)]، كما في الآية.

وهذا الأسلوب؛ فيه مقابلة بين فريقين، فريق في الجنة، وهم من اتبع رضوان الله، وفريق في السعير، وهم من لم يتبعوا رضوان الله، فباؤوا بسخطه.

وحين يتأمل العاقل الحكيم هذه المتقابلات التي عرضت لحال الفريقين ومصيرهم؛ فإنه بلاشك لابد أن يختار اتباع رضوان الله على ولاية الباطل المؤدية إلى سخط الله ومن ثم جهنم وبئس المصير.

ثالثًا: أسلوب الثناء على الذين يتبعون أحسن القول:

إن من أهم الأساليب التي تحث على فعل شيء ونحبب فيه؛ الثناء على فاعليه، حيث يعطي ذلك قدوة وتأسيًا بهم، يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧ ١٨].

قد يسأل سائل: من هؤلاء الذين وصفهم الله بالهداية وجعلهم أصحاب العقول وضمن لهم البشرى؟ وكيف الطريق لاستحقاق هذه الرتبة؟ فيجاب هم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وفي الآية ثناء على قوم يسمعون كل شيء من القول، لكنهم يتبعون أحسنه.

قال ابن تيمية: «والمحمودون الذين أثنى الله عليهم؛ هم المتبعون لذلك استماعًا وتدبرًا وعملًا»[(٢)].

والتعبير بالفعل المضارع في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ و ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ دالٌ على التجدد، قال الجرجاني: «وبيانه أن موضوع الاسم على أنه يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء، وأما الفعل؛ فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء»[(٣)].

وعليه؛ فالتعبير يدل على تجدد الاستماع، الأمر الذي يؤدي إلى تجدد الاتباع، مما يجعل المرء طيلة عمره متابعًا للوحي.

رابعًا: أسلوب النهي عن اتباع الشر:

النهي: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وقد يخرج النهي عن هذه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية، ١/ ٢٧٧.

(٣) دلائل الإعجاز، ص (١٧٤).

الصيغة إلى صيغ مجازية أخرى[1].

وحين نعود إلى الآيات التي جاء فيها أسلوب النهي؛ نجد نوعين من النهي:

١. النهي غير المعلل، وذلك بأن ينهى عن الاتباع المذموم دون بيان علة النهي أو سببه.

٢. النهي المعلل، وذلك ببيان علة النهي وسببه.

والنهي المعلل يراعي أسلوب الإقناع وحاجات بعض الناس إليه، نظرًا لاعتمادهم على المنطق والحجة والبرهان، وأما غير المعلل؛ فيراعي أن يلتزم المرء بالنهي التزامًا بأمر الله سبحانه وتعالى وإخلاصًا له.

كما نلاحظ على الآيات توجه النهي إلى الأنبياء عليهم السلام قبل أن يتوجه إلى الأمة، وإن كانوا المقصودين بذلك، مع الإشارة إلى وجود بعض الآيات التي توجهت إلى الأمة مباشرة.

النهي غير المعلل:

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢].

يأمر موسى عليه السلام أخاه هارون بأمر وهو: إصلاح الدين بالرفق والإحسان، كما ينهاه عن أمر وهو: عدم اتباع سبيل المفسدين، وهذا تأكيد للأمر بالإصلاح، إذا لايجتمع الإصلاح واتباع سبيل المفسدين.

قال ابن عاشور: «فلا جرم أن كان قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جامعًا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد، وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد إن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته»[2].

وقريبٌ من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾ [يونس: ٨٩] حيث أمرهما بالاستقامة على الحق والبعد عن سبل الضلال.

النهي المعلل:

ورد النهي المعلل في مواضع كثيرة من القرآن، وقد تنوعت العلة، فمنها:

١. النهي عن اتباع الشيطان بسبب عداوته للإنسان.

٢. النهي عن اتباع الشيطان بسبب أمره بالسوء والفحشاء.

٣. النهي عن الاتباع المذموم لكونه سبب التفرق.

وقد مرت جميعها ومر الحديث عنها مفصلًا بما يغني عن إعادته هنا، وحاصل الكلام أن الله سبحانه وتعالى حذر وزجر عن الاتباع المذموم بشتى أنواعه مبرزًا خطورته، وقبح من يسلك هذا المسلك.

(١) انظر: المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ٢/ ١٠٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٨٧.

عواقب الاتباع وآثاره في الدنيا الآخرة

إن من يسر الله له تجريد الاتباع الحق للوحيين الكتاب والسنة وابتعد عن سبل الضلال الأخرى؛ فلاشك أنه سيجد حلاوة ذلك في جملة من الثمرات في الدنيا والآخرة، التي ربما كانت من عاجل بشرى المؤمن.

وبإزاء ذلك؛ فإن من ابتلوا باتباع سبل الغواية؛ سيجدون علقم ذلك ومره في الدنيا والآخرة، وهي ربما تكون من عاجل شؤم المعصية.

وهذه عادة القرآن بل عادة هذه الشريعة أن تثيب الطائع وتعاقب العاصي، وألا تجعلهما في منزلة واحدة في الدنيا والآخرة.

أولًا: آثار الاتباع المحمود:

إن أي إنسان حين يعمل عملًا؛ فإنه ينتظر جزاءًا وأجرة دنيوية من البشر، أو أخروية من الله سبحانه وتعالى.

وانطلاقًا من ذلك؛ فإن أصحاب الاتباع المحمود لابد أن يجدوا نتائج وآثار اتباعهم في الدنيا والآخرة، مع الإشارة إلى صعوبة الفصل في ذلك بين الدنيوي والأخروي لتداخل الأمرين، والتقسيم هنا تقسيم فني بحت.

فمن آثار الاتباع المحمود:

١. الهداية.

وأي شيء يبحث عنه المرء بعد ذلك إن كان الله قد ضمن له الهداية؟ إذ الهداية تشمل تيسير الطريق الصحيح للمرء قولًا وفعلًا، وهذا في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وضح الله في الآية أنه يهدي بهذا الكتاب أقوامًا، لكن من هؤلاء القوم؟ تجيبنا الآية بأنهم ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، وأما من كان همه «تقرير ما ألفه ونشأ عليه، وأخذه من أسلافه، مع ترك النظر والاستدلال؛ فمن كان كذلك؛ فهو غير متبع لرضوان الله»[(١)].

إذن فهذه صفة من يهديهم الله، ولكن يبقى سؤال آخر إلى أين يهديهم: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، فسبيل السلام «استعارة لطريق الحق»[(٢)]، ولا شك أن هذه الطريق موصلة إلى دار السلام «المنزهة من كل آفة والمؤمنة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٥٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٥١.

من كل مخافة»[1].

ثم زاد الأمر وضوحًا فقال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والظلمات هذه كثيرة، تشمل الشرك والبدعة والمعصية والجهل والغفلة، والنور هو نور الإيمان والسنة.

قال ابن كثير: «أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة»[2].

وإذا هداهم الله سبحانه سبل السلام وأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ فقد تكفل لهم بالسعادة والهداية في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع مافيه أن لايضل في الدنيا ولايشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية»[3].

٢. الفلاح.

إن من جرد الاتباع للوحي وللرسول صلى الله عليه وسلم فقد ضمن القرآن الكريم له الفلاح، وهي عامةٌ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويقترب السلام من الفلاح، وربما يشمل سلامًا داخليًا وسعادة للإنسان مع نفسه، كما يشمل السلام في الآخرة، ودخوله دار السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: ٤٧].

وقد اختلف المفسرون في معنى السلام هل هو تحية أم لا؟، وإذا كان ليس بتحية؛ فإن «المقصود من الكلام ترغيب المخاطبين في الاهتداء بتصديق الرسول، واتباع ماجاء به في التكاليف والأحكام، وبشارة المهتدين بكونهم من أهل الجنة»[4]، والحصول على الجنة أعلى مراتب الفلاح بلاشك.

٣. الثبات على الحق.

إن المتأمل لسيرة الأنبياء والمصلحين؛ يجد أن من أهم عوامل ثباتهم على الحق اتباع الوحي، وكلما اقترب الإنسان من الوحي وازداد اتباعًا للحق؛ ازداد ثباتًا وتمسكًا به بتوفيق الله تعالى؛ لأن المرء يأوي إلى ركن شديد.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٧٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٦/ ٢٢٥.
(٤) حاشية زاده على البيضاوي، ٣/ ٣١٨.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: لما فوضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه؛ أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا، فرضاهم عنه، ورضي عنهم»[١]، وهذا يوضح أن الاتباع سببٌ رئيس للثبات على الحق.

٤ . الكفاية والنصرة.

إن من كان الله وليه فحسبك بهذه الولاية، حيث سيجد النصرة والغلبة على أعدائه، سواء أكان هؤلاء الأعداء الشيطان أم غيره.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

ففي الآية دلالة على أن الله كافٍ رسوله صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين «وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين»[٢].

«وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شروطها»[٣].

وإذا حصلت الكفاية؛ فأي قوة من البشر يمكنها الوقوف أمام قوة الله سبحانه وتعالى؟.

وقد حصل ذلك مع رسول الله موسى عليه السلام وهارون حين أخذ الله على نفسه العهد بنصرة هذين النبيين، ومنع عدوهما من الوصول إليهما، وهكذا كان.

قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

فقد قطعت الآية الشك والتردد في قلوب بعض الذي لايزالون يترددون في وعود الله تعالى، وأنه ناصرٌ عباده المؤمنين، ومعلٍ كلمته لامحالة.

٥ . الدخول في ولاية الأنبياء.

إن الناس يبحثون عن شخص ذي قوة أو مال أو جاه ليدخلوا في ولايته ويلجؤوا إليه، مع العلم أن ولاية البشر قد يعتريها النقص والتقلب والضعف أحيانًا، لكن هناك من ولايته لا تعادلها ولاية في القوة، ولايعتريها التغير، وشرطها الوحيد: الاتباع.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٠٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٧. وفي الآية خلاف، وللاستزادة يمكن الرجوع إلى: بدائع التفسير، ابن القيم ٢/ ٣٤١، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤١٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٣/ ٩٠.

﴿الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال ابن عاشور: «و(أولى) اسم تفضيل، أي: أشد وليًا، أي: قربًا،... أي: أخص الناس بإبراهيم وأقربهم منه»[1]، فمن ياترى هؤلاء الذين اختصوا بالقرب من نبي الله إبراهيم عليه السلام وولايته؟ إنهم الذين اتبعوه، «يعني: الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنوا سننه، وشرعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به»[2]، ثم لا تقتصر هذه الولاية على أتباع إبراهيم عليه السلام، حيث ختام الآية يقول ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فمن كان الله مولاه؛ فأي ولاية يحتاج بعد ذلك؟

٦. عدم الخوف والحزن.

كل هذه المقدمات السابقة تؤدي إلى نتيجة مثمرة لمتبعي الوحي، وهي عدم الخوف والحزن، وهي عبارة عن علاج نفسي للإنسان، فالخوف هو من شيء قد يقع، والحزن هو من شيء وقع، والمرء في حياته يعيش بين هذين الأمرين، فإذا ضمن له أحدٌ عدم حصول ذلك؛ حاز السعادة، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

ففي الآية إخبار بأن من اتبع هدى الله؛ فلاخوف عليه ولن يحزن.

والتعبير بقوله: ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ و﴿هُدَايَ﴾ فيه إشارة إلى أن الهدى إنما هو من الله سبحانه وتعالى؛ «لأن الهدى بالنظر إلى ذاته موجب الاتباع، وبالنظر إلى أنه أضيف إليه تعالى - إضافة تشريف أحرى وأحق أن يتبع»[3]، والنتيجة أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال ابن سعدي: «فرتب على هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن...، فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا؛ ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه؛ حصل له المن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن، والضلال والشقاء»[4].

٧. التوبة والمغفرة.

هي نتيجة لكل من ألزم نفسه السير في طريق الاتباع الحق، والبعد عما سواه من طرق الغواية والضلال، حيث يرضى الله عنه، ويرزقه التوبة والمغفرة، ولأهمية ذلك؛ هاهم الملائكة يطلبون المغفرة من الله تعالى لمن اتبع الهدى وآمن به.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٣٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٥.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

قال الطبري: «فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك، فرجع إلى توحيدك، واتبع أمرك ونهيك...، وقوله ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ يقول: وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام»[1].

وقد استجاب الله دعاء الملائكة، فغفر لمتبعي الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما قول الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

قال ابن القيم: «هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عندالله، وأنها غاية كمال المؤمن؛ فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات[2]، بعد أن قضوا نحبهم وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم ان تاب الله عليهم، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلميوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم[3]، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله وعرف حقوقه عليه، وعرف ماينبغي له من عبوديته»[4].

إذًا فقد ضمن لهم التوبة في الآية، وما كانوا ليستحقوا هذه المنزلة وهم المهاجرون والأنصار - إلا بسبب اتباعهم للرسول صلى الله عليه وسلم في أشد الحالات، والتي عبر عنها بساعة العسرة.

ثانيًا: آثار الاتباع المذموم:

إذا كان لاتباع الحق ثمرات كثيرة، كما مر بنا؛ فإن عدم اتباع الحق يؤدي إلى عقوبات ومفاسد كثيرة في الدنيا والآخرة، وهو ما سوف نستعرضه في السطور القادمة، ومن هذه العواقب:

١ . المعصية والفساد.

لاشك أن اتباع غير الحق يؤدي إلى معصية الله، ولأن سبل غير الحق كثيرة ومتعددة، فإنها تملأ الأرض، وحين يكثر أتباع الباطل، تكثر المعاصي ويعم الفساد الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

(١) جامع البيان، ٢٤/ ٤٤.

(٢) يقصد غزوة تبوك.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم ٤٤١٨.

(٤) بدائع التفسير ٢/ ٣١٨.

[المؤمنون: ٧١].

وقد اختلف العلماء في معنى (الحق) في الآية، فقيل: إن الحق هو الله سبحانه وتعالى، وقيل: هو الصواب[١].

وأيًا ماكان المعنى يتبين أنه لو ورد الشرع به لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ لأن الهوى مبني على الشهوة، وعند ذلك تختلف أمزجة الناس، فيضطرب هذا الكون العظيم المحكم؛ لأنه قام على العدل.

قال ابن عاشور: «وعلم من قوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أن كراهة أكثرهم للحق ناشئة عن كون الحق مخالفًا أهواءهم، فسجل عليهم أنهم أهل هوى، والهوى شهوةٌ ومحبةٌ لما يلائم غرض صاحبه»[٢].

وحين يكثر الفساد؛ يكون ذلك سبب طبع الله على قلوب العباد، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]

يتعجب المرء من فعل هؤلاء القوم، فيأتيه الجواب مباشرة: إن سبب ذلك؛ طبع الله على قلوبهم نتيجة اتباع الهوى.

قال ابن سعدي: «أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل»[٣].

٢. التكذيب والضلال.

إن من عواقب الاتباع المذموم أنه يؤدي إلى التكذيب، فهو علةٌ له، والتكذيب مؤدٍ إلى الضلال لا محالة؛ لأن المرء حين يكذب الحق فسوف يضل بلاشك.

قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٣].

فالآية تثبت أن القوم كذبوا، وهذا التكذيب «لا دافع لهم إليه إلا اتباع ماتهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه»[٤]، وإلا فقد ظهر لهم من البراهين والحجج القواطع على يديه مايدل على صدق نبوته وأن الواجب الإيمان به واتباع دعوته، ولذلك؛ جاء في موضعٍ آخر تأكيد هذا الأمر، وهو أن اتباع الهوى مؤدٍ إلى التكذيب.

فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم اتباع أهواء الذين كذبوا.

فقال تعالى ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

إن هذا الهوى - وكما ظهر - أنه أدى إلى التكذيب وإنكار البعث وأدى إلى الشرك،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٨٠٤-٨٠٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٩٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٨٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/ ١٧٢.

وهذا عين الضلال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقد أكد النهي عن اتباع الهوى بقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾، فإنه إن اتبعتكم على أهوائكم فلاشك أنني ضال، «وتقديم جواب (إذًا) على (إذًا) في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أكد بـ (قد) مع كونه مفروضًا، وليس بواقع، للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه إذًا»[(١)].

٣. الحرمان من ولاية الله.

باديء ذي بدء؛ يمكن القول: إن الله جعل ولاية أتباع الباطل وسلطانهم مقرونة بالشياطين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وحين يتولى الشيطان الإنسان؛ يوقعه في سوء عمله.

لكن ذلك فحسب؛ بل إنه نزع ولايته سبحانه وسلطانه عن متبعي أهواء المبطلين، ومتبعي غير الحق.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

إن الأمر في الآيتين للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة من باب الأولى، بالتحذير من اتباع الهوى، وحين يستبدل المؤمن الهوى بالهدى؛ فهذا مؤذنٌ بنزع ولاية الله عنه.

قال الطبري: «ليس لك من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله، فيدفع ماينزل بك من عقوبته ويمنعك من ذلك إن أحل بك ذلك ربك»[(٢)].

ويرى ابن عاشور أن هذه الجملة أكدت بعشر مؤكدات[(٣)]. وقد أفادت هذه المؤكدات عظم التحذير وخطورته.

وكما نزع عنهم الولاية في الآية الأولى؛ نزع عنهم الوقاية من العذاب في الثانية، وعلى المرء أن لا يأمن بعد ذلك مكر الله، فإنه إن تنزع عنه ولاية الله؛ تنزع عنه وقايته من العذاب.

٤. الاحتكام إلى الهوى.

حين يحدث كل الذي سبق؛ يصبح

(١) المصدر السابق ٧/ ٢٦٢.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥١٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٦٩٥.

المرء أسيرًا لهواه وشهوته، يسير معها كيف سارت، ويدور معها حيث دارت، وهنا يحدث الفساد؛ لأن الهوى هو الذي يسير الناس.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

تحكي الآية صنفًا من الناس ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يقرب إلى الآخرة، واشتغل بالمال والملذات وأمور الدنيا والرئاسة، وعند ذلك لم ينفعهم نصح الناصحين ولا وجود المصلحين؛ لأنهم ساروا خلف أهوائهم التي عبرت عنها الآية بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾، وكان هذا الأمر سببًا في استئصالهم، وتأمل قوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾ إذ يعني: الانقطاع للترف، والإقبال عليه، إقبال المتبع لمتبوعه[1].

٥. التخاصم.

وكل الذي ذكرته آنفًا؛ إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة؛ فإن ظاهرة التخاصم بين المتبوعين وأتباعهم واضحة جلية، ذكرها القرآن في مواضع كثيرة على شكل حوار بين الضعفاء والمستكبرين تارة، وبين القرناء وقرنائهم أخرى، وبين أول من يدخل النار وآخر من يدخلها ثالثة.

ولنتأمل هذا الحوار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

لاشك أن صدق المتبوعين قد وضع على المحك في هذا الموقف؛ لأنه سوف يظهر هزالهم وافتضاح أمرهم، وخجلهم أمام أتباعهم، وانظر إلى مذلة الأتباع أمام متبوعيهم، حتى في هذا الموقف الذي تنقطع فيه الوشائج والصلات تجدهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فهم يظهرون تبعيتهم لهم، ليكون ذلك أدعى لشفاعتهم لهم عند الله، وما دروا أن كبراءهم بحاجة إلى من يشفع لهم، وهم مشغولون عنهم بما هم فيه من العذاب، عندها يجيب الكبراء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، فهم يعتذرون لأتباعهم بأنهم لو استطاعوا النفع لنفعوا أنفسهم، أما وإنهم لم يستطيعوا ذلك؛ فإنهم لن يقدروا على نفع غيرهم، وهذا الاعتراف من السادة يدل على قدر من الذل والهوان، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ فإن العذاب واقعٌ لامحالة، ولايغني عنه الجزع والصبر.

(١) انظر: المصدر السابق، ١٢/ ١٨٥.

ولم تكف الخصومة في الموقف؛ بل أعادوها في النار، حيث نجد كلًا من الفريقين يدلي بحجته؛ لعلها تنقذه من النار: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر: ٤٧ ٤٨].

إن اللجوء إلى الكبراء في مثل هذا الموقف يدل على طبيعة قد تأصلت في الأتباع، حيث إنهم يلجؤون إليهم في ملمات الأمور ومهماتها، فيقفون معهم؛ عندها ظنوا أنهم سيقفون معهم هنا، فكان الرد صاعقًا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ «تتنزل بمنزلة بدل الاشتمال من جملة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، فكلتا الجملتين جوابٌ لهم مؤيسٌ من حصول التخفيف عنهم، والمعنى: نحن مستورون في العذاب، وهو حكم الله، فلا مطمع في التفصي من حكمه، فقد جوزي كل فريق بما يستحق»[(١)].

٦. التبرؤ.

هذا الأثر مبنيٌّ على سابقه ونتيجة طبيعية له، فإنه لا تكفي الخصومة، وحين تحدث الخصومة؛ يحدث التبرؤ، ويرمي كل فريق على الآخر بالتهمة ظانًا منه أنه سوف يسلم منها، وستكون له حجة أمام الله تعالى، فضلًا عن تبرئه من العمل أصلًا.

وقد صور القرآن مشاهد كثيرة في ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

لقد حدثت الخصومة وعاين القوم العذاب، وكان للفريقين، فلم يخص أحد دون الآخر بشيء، وعند ذلك تبرأ المتبوعون من الأتباع، وتنصلوا من جميع الوعود التي وعدوهم إياها، ولعل سبب التبرؤ تقطع الأسباب، وذلك أن «الآيس من كل وجه يرجو به الخلاص مما نزل به وبأوليائه من البلاء؛ يوصف بأنه تقطعت به الأسباب»[(٢)]، لأنه خاب أمل القوم، ولم يتوقعوا ذلك من متبوعيهم، كما أن المتبوعين لم يحسبوا حسابًا لهذا العذاب والنكال.

إن هذه الثمرة هي ثمرة العلائق التي قامت على الباطل، فقد رأوا أعمالهم حسرات، وخلدوا في نار جهنم.

وقريب من ذلك ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٦٠.
والتفصي: التخلص.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ١٨٩.

﴿بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

وغيرها كثير.

وكما عرضت لنموذج الخصومة الجماعية والتبرؤ الجماعي، فثمة نموذج للتبرؤ الفردي، وهو تبرؤ الشيطان من أتباعه الذين أغواهم وأضلهم، ثم حين يشاهد عذابهم يوم القيامة؛ فإنه يتبرأ منهم، ويلقي باللائمة عليهم، ويبرز لهم عدم قدرته على نفعهم في هذا الحال، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبعد تلك الخصومة والتبرؤ؛ يقوم الشيطان الذي هو أصل كل فساد خطيبًا في أتباعه يوم القيامة بعد أن حقق ما يصبو إليه، وضمن دخولهم جنة، فيتحدث إليهم ويزيدهم حسرة وهمًا على حسرتهم وهمهم، وتبدو صورتهم مثيرة للاشمئزاز، وصورته واضحة أمامهم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، فقد بين لكم الطريق في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأظهر لكم أن ثمة جزاءً وحسابًا، وجنة للمطيع وعذابًا للعاصي، فصدقكم، ووعدتكم فأخلفتكم، ولكن الخطأ خطؤكم، حين اتبعتموني واستجبتم لوساوسي! ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

كانت هذه كلمات الشيطان لهم، في الوقت الذي يقوم نبينا محمدٌ صلى الله عليه وسلم فيشفع للأمة بإخراجها من النار، أو تخفيف العذاب عن العصاة.

٧. حبوط العمل:

بعد كل ما مضى من اتباع طرق الباطل والهوى، والبعد عن طريق الحق والهدى، ماذا نتوقع أن تكون النتيجة؟ ليست إلا سخط الله تعالى، وحبوط أعمالهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: ٢٨].

هذا الأثر نتيجة حتمية لأعمال هؤلاء القوم؛ لأن حبوط العمل يعني: الخسران في الآخرة، وماذا يبقى للمرء بعد حبوط عمله؟ وبمن يستغيث؟ إنه والحالة هذه ليس أمامه

سوى العاقبة الأخيرة من عواقب الاتباع المذموم، ألا وهي:

٨. الحسرة والندم.

هذا الذي تبقى لهم، مع أنه لن يغني عنهم من الله شيئًا، لكنه محاولة لإلهاء النفس عما أحاط بها من العذاب، ومحاولة لتسويغ الماضي سيء الذكر، ولذلك فقد نقل لنا القرآن تحسرهم وندمهم في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ٢٩].

لقد وصل التحسر والندم بهذا الرجل الظالم درجة بلغت أن يعض على يديه من شدة ندمه على مافات، حين ترك اتباع طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، واتبع بعض قرناء السوء من شياطين الإنس والجن الذين أضلوه وصدوه عن ذكر الله.

والعض: «عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك»[(١)].

ولا شك أن ظاهر الآية وسبب النزول يوحيان بأن المقصود شخصٌ واحدٌ، إلا أن الأولى تعميمه في كل من هذه حاله، كما رجحه ثلة من المفسرين.

يقول الرازي: «كما بينا أن الظلم غير مخصوص بشخص واحد، بل يعم جميع الظَلَمَة؛ فكذا المراد بقوله: (فلانًا) ليس شخصًا واحدًا، بل كل من أطيع في معصية الله»[(٢)].

والحاصل: ندم هؤلاء القوم على عدم متابعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم متابعة توصلهم إلى النجاة لو لزموها، وهذا كافٍ في إبراز مدى العقوبة التي سوف تحل بكل ما من هذه شأنه.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، التقليد، الشيطان، القدوة، الهوى، الوحي

(١) المفردات، الراغب، ص ٥٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٤/ ٦٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الاتخاذ	٢٨٨
الاتخاذ في الاستعمال القرآني	٢٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٠
الاتخاذ في حق الله تعالى	٢٩١
أنواع الاتخاذ	٢٩٦
أسباب الاتخاذ	٣٠٤
أساليب القرآن في عرض الاتخاذ	٣٠٨
عاقبة الاتخاذ	٣١٥



مفهوم الاتخاذ

أولًا: المعنى اللغوي:

الاتخاذ مصدر من تخذ يتخذ، كعلم يعلم: بمعنى: أخذ، تخذت الشيء واتخذته، وقرئ: (لتخذت) و(لاتخذت)، وهو افتعل من تخذ، فأدغم إحدى التاءين في الأخرى[(١)]، يقال: تخذت مالًا، أي: كسبته، ألزمت التاء كأنها أصلية، والأصل من الأخذ[(٢)].

ورأى ابن الأثير أنها ليس من الأخذ في شيء، فإن الافتعال من الأخذ: ائتخذ؛ لأن فاءه همزةٌ، والهمزة لا تدغم في التاء[(٣)]. والأكثرون على أن أصله من الأخذ، ومعنى الأخذ والتخذ واحدٌ، وهو حوز الشيء وتحصيله[(٤)].

ومن خلال ما سبق يتبين أن الاتخاذ يتمركز معناه اللغوي حول الكسب والحوز والتحصيل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاتخاذ اصطلاحًا: هو «الاقتناء»[(٥)]، «والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل الدار يتخذها مسكنًا، والدابة يتخذها قعدة»[(٦)].

والمتدبر في المعنيين اللغوي والاصطلاحي يجد اتصالًا بينهما؛ حيث إن المعنى الاصطلاحي أخذ الشيء والاستمرار فيه، وهذا مرتبط بمعنى الاتخاذ اللغوي الذي هو الكسب والحوز والتحصيل مع الاستمرار في الأخذ، وهذا هو الاقتناء.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ١/ ٣٣١، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٤٦، مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٤١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٤/ ٢٩٨.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ١٨٣.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٧٠، ٩/ ٣٧٨.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٣٧.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.



الاتخاذ في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أ خ ذ) في القرآن (٢٧٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦٦	﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]
الفعل المضارع	٥٣	﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]
فعل الأمر	٥	﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨]
المصدر	١	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٥٤]
اسم فاعل	٣	﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف:٥١]

وجاء الاتخاذ في القرآن بمعناه في اللغة، وهو: الافتعال من الأخذ، وهو: التناول للشيء والحوز والاختيار والجعل[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. يعني: اختار الله إبراهيم مصافيًا[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٦-٢٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٥٠- ٥٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأخذ:

الأخذ لغة:

الأخذ مصدر أخذ، الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرع منه فروع متقاربة في المعنى، يقال: أخذت الشيء آخذه أخذًا، أي: تناولته[(١)].

الأخذ اصطلاحًا:

الأخذ خلاف العطاء، وهو حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول، وتارة بالغلبة والقهر، ومنه أخذته الحمى، وفلان يأخذ مأخذ فلان يذهب مذهبه ويسلك مسلكه[(٢)].

الصلة بين الأخذ والاتخاذ:

الأخذ هو تحصيل الشيء، أما الاتخاذ فهو أخذ الشيء والاستمرار فيه مثل الدار يتخذها مسكنًا[(٣)]، فالاتخاذ اقتناء واجتباء.

٢ الإبعاد:

الإبعاد لغة:

الإبعاد بكسر الهمزة وسكون الباء من أبعد، والأصل بعد بالضم بعدًا فهو بعيد، أي: تباعد، وأبعده غيره، وباعده، وبعده تبعيدًا، والبعد ضد القرب[(٤)].

الإبعاد اصطلاحًا:

التنحية[(٥)]، وترك الشيء بعيدًا.

الصلة بين الإبعاد والاتخاذ:

الإبعاد من الألفاظ المقابلة للاتخاذ، فالاتخاذ أخذ الشيء وقصده واعتماده والاستقامة عليه، أما الإبعاد تنحية الشيء وتركه بعيدًا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٦٧، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٥٣، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٣٩.
(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٣٩.

الاتخاذ في حق الله تعالى

إن المتأمل في الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الاتخاذ، يجد أن الاتخاذ في حقه سبحانه، منه ما هو مثبت في حقه، ومنه ما هو منفي، وسنوضح ذلك فيما يلي.

أولًا: الاتخاذ المثبت في حق الله تعالى:

إن المستقريء لآيات الاتخاذ في حق الله سبحانه وتعالى يجد أن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه اتخاذ الخليل واتخاذ الشهداء، ولم ينسب لنفسه اتخاذًا سوى ذلك، فالاتخاذ المثبت في حق الله بمعنى الاختيار، فالله عز وجل اختار إبراهيم خليلًا، ويختار من يشاء من عباده ليكون شهيدًا.

١ . اتخاذ الخليل.

لقد اتخذ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام خليلًا، والخلة كمال المحبة، وسيدنا إبراهيم عليه السلام أهلًا لذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ مجاز يفيد اصطفاءه واختياره واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

والخليل: هو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو يسايرك في طريقك، أو يسد خللك كما تسد خلله، وهو المحب لمن يحبه، من الخلة وهي المودة والمحبة التي تتخلل النفس وتمازجها[(١)].

فالآية الكريمة تدل على اختيار الله إبراهيم خليلًا، وفيها تأكيد على وجوب اتباع ملته؛ لأن من كانت له هذه المنزلة من الزلفى عند الله بأن اتخذه خليلًا، كان جديرًا بأن تتبع ملته وطريقته، فالله امتن على إبراهيم بسلامة الفطرة والاعتقاد، وقوة العقل وصفاء الروح، وكمال المعرفة بالله، وشدة العزيمة وعلو الهمة في محاربة الوثنية والشرك، حتى صار من أولي العزم، فهو خليل الرحمن، عدو الشيطان[(٢)].

إن اتخاذ الله سبحانه وتعالى إبراهيم خليلًا لشدة محبة ربه سبحانه وتعالى له؛ لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها، لا لحاجته إلى مخالته وللتكثر به والاعتضاد، وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٦٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٣٧، تفسير المراغي، ٥/ ١٦٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٦٩، التفسير المنير، الزحيلي، ٥/ ٢٨٧.

العباد له، حتى انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال أيضًا: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧][(١)].

يقول ابن القيم: «ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله -سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده، لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد -سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره فامتحنه بذبح ولده، والمراد: ذبحه من قلبه لا ذبحه بالمدية، فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد، خلص مقام الخلة وفدى الولد بالذبح، وقيل: إنما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح»[(٢)].

ولم يختص إبراهيم عليه السلام بخلة الرحمن سبحانه وتعالى ، بل شاركه فيها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا...)[(٣)]، وقد استحق كلا النبيين عليه السلام هذه المنزلة؛ لما لهما من الصفات، والأفعال العظيمة الجميلة.

٢. اتخاذ الشهداء.

إن الحق سبحانه المتعال الغني عن الخلق غنى مطلق في سياق تكريمه للشهداء، يجعلهم ممن يتخذهم، فقد أثبت الله لنفسه اتخاذ الشهداء.

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فالله يميز بين المؤمنين والمنافقين، ويكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة[(٤)]، فالشهادة اختيار وإكرام واصطفاء من الله، والشهداء اتخاذ من الله يتخذهم لنفسه.

والشهداء جمع شهيد، وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة، واختلفوا في معنى الشهيد: فقيل: الشهيد الحي؛ لأن أرواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها، وأرواح غيرهم لا تشهدها، وقيل: سمي شهيدًا؛ لأن الله تعالى شهد له بالجنة، وقيل: سموا شهداء؛ لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٤٠٢.
(٢) روضة المحبين، ١/ ٤٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم٥٣٢، ١/ ٣٧٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٤٣.

على الأمم؛ لأن الشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة؛ لأن منصب الشهادة منصب عظيم، ولفضل الشهداء العظيم يتخذهم الله، والاتخاذ دائمًا هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته[1].

«﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص، إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه سبحانه، ويخصهم بقربه، ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله، يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس.

يطلب الله سبحانه منهم أداء هذه الشهادة على أن ما جاءهم من عنده الحق؛ وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه، وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق، وعلى أنهم هم استيقنوا هذا فلم يألوا جهدًا في كفاح الباطل، وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج الله في حكم الناس، يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون، وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت، وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال، وكل من ينطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقال له: إنه شهد، إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله.

ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد صلى الله عليه وسلم، بما أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعتمد مصدرًا آخر للتلقي إلا هذا المصدر، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، كما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم، فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢١٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٢، تفسير الشعراوي، ٣/ ١٧٨٤.

فهو إذن شهيد، أي: شاهد، طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها، واتخذه الله شهيدًا، ورزقه هذا المقام، هذا فقه ذلك التعبير العجيب، ويتخذ منكم شهداء، وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[(١)].

ثانيًا: الاتخاذ المنفي في حق الله تعالى:

كما أن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه اتخاذًا، فقد جاءت آيات قرآنية أخرى تنفي صورًا من الاتخاذ عن الله سبحانه وتعالى، ومنها اتخاذ الزوجة والولد والظهير والمعين.

١ . اتخاذ الزوجة.

لقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه اتخاذ الزوجة، فهو منزه عن المماثلة بخلقه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

فالآية الكريمة تنفي عن الله اتخاذ الصاحبة أي: الزوجة، تعالت عظمة ربنا وجلاله، ما اتخذ زوجة ولا ولدًا[(٢)].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «والمعنى: أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية، فلا تكون له صاحبة ولا ولد؛ لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفًا ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد»[(٣)]، ويؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فماذا يريد الحق من الصاحبة؟ إنه لا يريد شيئًا، فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق، ولا حكمة ترتب، ولا علمًا يدبر، ولا أي شيء، وخلاف هذا التصور عبث[(٤)]، فالله منزه عن اتخاذ الزوجة سبحانه وتعالى ذلكم الله لا إله إلا هو، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص.

٢ . اتخاذ الولد.

الأدلة على نفي اتخاذ الله سبحانه وتعالى للولد كثيرة، منها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: ٣٥].

فالله سبحانه وتعالى منزهٌ عن اتخاذ الولد، وهو غني عن العالمين؛ إذ اتخاذ الولد افتقار إليه، والله سبحانه وتعالى هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨١.
(٢) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ٥٧٢.
(٣) جامع البيان، ٩/ ٣٣٠.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٨٣٨.

الغني فلا يفتقر إلى أحد، فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين[(١)].

ونفى القرآن الكريم ما ينسبه المشركون لله سبحانه وتعالى من اتخاذه الولد، تعالى الله عز وجل عما يقولون علوًا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[البقرة: ١١٦].

قال أهل الكتاب والمشركون من اليهود والنصارى وغيرهم: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله!!

سبحانه وتعالى وتنزيهًا له عما يدعون، بل له كل ما في السماوات والأرض ومنهم هؤلاء، الكل قد خلقهم الله، كلٌّ له منقادون إن طوعًا وإن كرهًا، وهو الذي أبدع السماوات والأرض وما فيهن، وإذا أراد أمرًا -فلا راد لقضائه- كان وتحقق من غير امتناع، فمن له كل ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا، ومن له كل ما في الكون كائنًا ومنقادًا، ومن أبدع السماء والأرض والوجود كله، ومن إذا أراد أمرًا كان ووجد من غير امتناع أو إباء، من كان هذا شأنه أيحتاج إلى الولد أو الوالد؟ ومن كان هذا شأنه يكون له جنس؟ أم هو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد؟!»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨- ٨٩].

والإد: هو المنكر العظيم والأمر الفظيع[(٣)].

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] فهو الغني فلا يفتقر إلى أحد، وهو الملك فكل ما سواه مملوك، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الوارث الباقي، تعالى ربنا وتقدس[(٤)].

٣. اتخاذ الظهير والمعين.

وإن من الاتخاذ المنفي عن الله سبحانه وتعالى: اتخاذه الظهير والمعين.

قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالله ينفي اتخاذه الشياطين والكفار أنصارًا وأعوانًا، والعضد يستعمل كثيرًا في معنى العون؛ لأنه قوام اليد، والاعتضاد: التقوي وطلب المعونة، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد[(٥)].

ومعنى الآية: «أي ما أحضرت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض، حين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٣٠٨، شرح العقيدة الواسطية، محمد الهراس، ١/ ٨٣.

(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٧٠.
(٣) انظر: المفردات، الراغب، ص ٦٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٥٨.
(٥) انظر: المصدر السابق ١١/ ٢.

خلقتهما، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وما أشهدت بعضهم أيضًا خلق بعض منهم، ونفي الإشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر أبلغ؛ إذ من لم يشهد فأنى يستعان به؟ فأنى يصح جعله شريكًا؟ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: وما كنت متخذهم أعوانًا لخلق ما ذكر، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، أي: وإذا لم يكونوا عضدًا في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة؟ واستحقاق العبادة من توابع الخالقية»[1].

وخص سبحانه وتعالى المضلين بالذكر، زيادة في ذمهم وتوبيخهم، وتقريعًا لأمثالهم؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس له أعوان ولا أنصار لا من المضلين ولا من المهتدين[2].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

أي: ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالإيجاد، فهو الذي يعبد، وعبادة غيره محال، والظهير: هو المعين الذي يسند ظهر من يستعين به، فهم ليسوا شركاء لله، ولا أعوانًا له، وإنما هم عبيد مسخرون لجلاله وقدرته[3].

أنواع الاتخاذ

إن المتأمل في معاني الآيات التي تحدثت عن الاتخاذ في حق المخلوق يجد أن الاتخاذ إما أن يكون محمودًا وإما أن يكون مذمومًا، فالمحمود مدحه الله ومدح أهله، ودعا إليه، والمذموم ذمه الله وذم أهله، وحذرنا منه.

أولًا: الاتخاذ المحمود:

اشتملت كثير من الآيات التي تتحدث عن الاتخاذ في القرآن الكريم على معنى الاتخاذ المحمود، وفيما يلي نذكر بعض صور الاتخاذ المحمود.

١ . اتخاذ الله سبحانه وتعالى وكيلًا.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه، وهو أمر للمسلمين جميعًا باتخاذ الله وكيلًا.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فهذا اتخاذ محمود، فالله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العالم، لا ينبغي أن يعبد إله سواه، فهو المستحق للعبادة، ولا وكيل سواه؛ لذا أمرنا الله باتخاذه وكيلًا ومدبرًا في كل أمورنا، نعتمد عليه ونلجأ إليه ونفوض إليه الأسباب[4].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٤٢.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٢٧٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٩٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١١/ ٨٠٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٩، تيسير

يقول الشوكاني: «﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلًا، أي: قائمًا بأمورك، وعول عليه في جميعها، وقيل: كفيلًا بما وعدك من الجزاء والنصر»[1].

٢. اتخاذ مقام إبراهيم مصلى.

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يتخذوا مقام إبراهيم عليه السلام ؛ تكريمًا له لإخلاصه، وليكون قدوة للناس، وهذا اتخاذ محمود، فهو أمر من الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: ١٢٥].

على إرادة القول، أي: وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وقيل: الحرم كله مقام إبراهيم[2].

ويطلق مقام إبراهيم على الكعبة؛ لأن إبراهيم عليه السلام كان يقوم عندها يعبد الله تعالى، ويدعو إلى توحيده، ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار، وقد ثبتت آثار قدميه في الحجر، وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام، وكان إبراهيم عليه السلام قد وضع المسجد الحرام حول الكعبة ووضع الحجر الذي كان يرتفع عليه للبناء حولها، فكان المصلى على الحجر المسمى بالمقام، فذلك يكون المصلى متخذًا من مقام إبراهيم على كلا الإطلاقين، ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصًا بصلاة عنده، ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام، ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم[3].

٣. اتخاذ النحل للجبال بيوتًا.

لقد أوحى الله للنحل أن تتخذ الجبال بيوتًا، وهنا أكثر من كونه أمرًا فهو وحي، إذًا هو اتخاذ محمود.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أودع الله في النحل إدراكًا لصنع محكم مضبوط منتج شرابًا نافعًا: إنه العسل، فقد افتتحت الآية بفعل أوحى لما في أوحى

(١) فتح القدير ٥/ ٣٨١.
الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٢.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٨٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٧١٠.

من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملًا متقنًا وهندسة في الجبلة[(١)]، ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: اجعلي لك بيوتًا في الجبال تأوين إليها، واتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتًا بنظام دقيق، وأشير إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى؛ وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة[(٢)].

يقول سيد قطب: «والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه، وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى، وهي تتخذ بيوتها -حسب فطرتها- في الجبال والشجر وما يعرشون، أي: ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق»[(٣)].

٤ . اتخاذ الشيطان عدوًا.

أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يتخذوا الشيطان عدوًا؛ لأنه يسعى دائمًا لإيقاعهم بالفساد، فاتخاذ الشيطان عدوًا هو اتخاذ محمود، يجنب العبد الوقوع في مكائد الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

أمر الله باتخاذ العدو عدوًا، وتلك عداوة مودعة في جبلته كعداوة الكلب للهر؛ لأن جبلة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسنة مزينة، ومن لوازم اتخاذه عدوًا العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده ولمقته بالعمل الصالح، حيث أعقبت الآية الأمر باتخاذ الشيطان عدوًا بتحذير من قبول دعوته، وحث على وجوب اليقظة لتغريره، وتجنب توليه بأنه يسعى في ضر أوليائه وحزبه، فيدعوهم إلى ما يوقعهم في السعير[(٤)].

يقول سيد قطب: «الشيطان يغر ويخدع؛ فلا تمكنوه من أنفسكم ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لا تركنوا إليه، ولا تتخذوه ناصحًا لكم، ولا

(١) انظر: المصدر السابق، ١٤/ ٢٠٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٠٦، تفسير المراغي، ١٤/ ١٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٨١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٢٦٠.

تتبعوا خطاه، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير، ولا ينتهي بكم إلى نجاة: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟! إنها لمسة وجدانية صادقة، فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات، يتحفز لدفع الغواية والإغراء، ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم! وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير»[1].

ثانيًا: الاتخاذ المذموم:

اشتملت كثير من الآيات التي تتحدث عن الاتخاذ في القرآن الكريم على معنى الاتخاذ المذموم، نذكر منها ما يلي:

١. اتخاذ الأولياء والآلهة من دون الله.

إن اتخاذ الأولياء من دون الله هو اتخاذ مذموم، ذمه القرآن الكريم، فلما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به واتخذ من دونه وليًا.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فالذين يتخذون من دون الله آلهة يتولونهم بعبادتهم ودعائهم لتشفع لهم وتقربهم لله، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص والتوحيد، وتجرأوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، فهؤلاء وصفهم الله بالكذب والكفر[2]، وقد ضرب الله مثل من اتخذ من دون الله وليًا معتمدًا عليه يحتمي بحماه، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وهو لا يجلب له نفعًا ولا يدفع عنه ضرًا، بحال العنكبوت اتخذت بيتًا؛ لتحتمي به من الأخطار، وهي لا تدري أن هذا البيت لا يقي حرًا ولا بردًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

«فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٢٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٧.

باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم»[1].

ومن الاتخاذ المذموم اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، وهذا شرك بالله، فلا يجوز طاعتهم.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

هذه الآية في اليهود الذين اتخذوا علماءهم، والنصارى الذين اتخذوا رهبانهم سادة لهم يطيعونهم في معصية الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما حرمه الله، ويحرمون ما حرموه لهم مما أحله الله، بالإضافة لاتخاذهم المسيح ابن مريم ربًا من دون الله، والله أمرهم ألا يعبدوا ويطيعوا إلا إلهًا واحدًا هو الله سبحانه وتعالى ، وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله، وهذا الأمر من الله دليل على بطلان اتخاذهم[2].

وكذلك نهى الله عن اتخاذ الأصنام شفعاء من دون الله، فهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، فالشفاعة لله وحده.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤].

أي: قل لهم يا محمد: أتتخذون الأصنام والقربان شفعاء من دون الله، وهي لا تملك شيئًا ولا تعقل؛ لأنها جمادات، فهذا استفهام إنكاري لهذا الاتخاذ الباطل، فالشفاعة لله وحده، ولا شافع إلا من شفاعته[3].

٢. اتخاذ الكفار واليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين.

فقد نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين من اتخاذ الكفار أولياء بموالاتهم ونصرتهم ومحبتهم، بل لابد من التبرؤ منهم، واتخاذ المؤمنين أولياء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

هذا نهي من الله لعباده المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون

(١) المصدر السابق ص ٦٣١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢٠٨، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٧٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٢٦٣.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه، فيقول لهم -جل ثناؤه-: لا توالوا الكفار فتؤازروهم من دون أهل ملتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وهذا نهي من الله لعباده المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أعوانًا وأنصارًا يبادلونهم المحبة والمناصرة على إخوانهم المؤمنين، وأعلمهم تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ الله تعالى منه، وذلك لكفره وردته، حيث والى أعداء الله وعادى أولياءه[(٢)].

ونهى الله سبحانه وتعالى أيضًا من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وحلفاء، فهذا الاتخاذ المذموم يسبب سخط الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فيتوجب على أهل الإيمان عدم اتخاذ أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاءً، وألا يسروا إليهم بأسرارهم ولا يطمئنوا لمودتهم، فهم لن يخلصوا لهم؛ لأنهم أولياء بعضهم بعضًا، ثم توعد من يواليهم أو يعينهم أو يستنصر بهم، فإنه في الحقيقة منهم، أي: من جملتهم، وكأنه مثلهم، وليس من صف المؤمنين الصادقين، وهذا تغليظ من الله وتشديد على المنافقين الذين يتصادقون مع اليهود والنصارى المخالفين في الدين؛ لأن موالاتهم تستدعي الرضا بدينهم[(٣)].

٣. اتخاذ الدين والرسول لهوًا ولعبًا.

إن من الاتخاذ المذموم ما يفعله الكفار من اتخاذ دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهوًا ولعبًا، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم يستهزؤون برسول الله صلى الله عليه وسلم متى رأوه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وهذا القول صدر عن أبي جهل، على سبيل التنقص والازدراء والاستهزاء -قبحهم الله-، فهذا اتخاذ مذموم[(٤)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣٣٦.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ٢٢٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٥.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من أسباب دخول النار الإعراض عن دين الله والاستهزاء به، واتخاذه لهوًا ولعبًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

ومعنى: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي: بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام، لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها، واعتقادهم أنها الغاية القصوى، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أي: نتركهم في العذاب[(١)].

٤ . اتخاذ القرآن مهجورًا.

القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة، أمرنا الله بالتعبد بتلاوته وحفظه وتطبيق أوامره ونواهيه، واتخاذه دستورًا ومنهج حياة؛ لذا كان هجرانه اتخاذًا مذمومًا، سواء هجرانه بعدم الإيمان به، أو ترك تلاوته أو الغفلة عنه، أو بهجر العمل به والاحتكام إليه، وقد اشتكى رسولنا صلى الله عليه وسلم قومه إلى الله سبحانه وتعالى لهجرانهم القرآن وتكذيبهم له.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٠.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

الآية تتضمن شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم حال قومه مع القرآن، والمعنى: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه وأرسلتني به مهجورًا، أي: متروكًا بالكلية لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه، ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثروا بوعظه ووعيده، بل أعرضوا عنه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، وقالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر، وهذا هجران مذموم[(٢)].

وقد عبر في الآية بالاتخاذ مع أن الهجر ترك؛ لأن «فعل الاتخاذ إذا قيد بحالة يفيد شدة اعتناء المتخذ بتلك الحالة، بحيث ارتكب الفعل لأجلها وجعله لها قصدًا، فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال: إن قومي هجروا القرآن. واسم الإشارة في هذا القرآن لتعظيمه، وأن مثله لا يتخذ مهجورًا، بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به»[(٣)]، فحري بنا أن نقبل عليه، ونتخذه صاحبًا وأنيسًا، لا مهجورًا، فحق

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٧، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٢، البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ١٧.

المؤمن أن يكون كثير التعهد له، عاملًا به؛ ليكون شفيعًا له يوم القيامة.

٥. اتخاذ الأخدان.

لقد شرع الله لنا الزواج ونهانا عن اتخاذ الأخدان، فالمباح لنا هو الزواج بالحرائر المؤمنات العفيفات، وكذلك الكتابيات، بشرط إتيانهن مهورهن، بقصد الإحصان والإعفاء، لا بالسفاح وارتكاب الفواحش والزنى العلني، أو الزنى السري، وهو اتخاذ الاخدان[١].

قال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

أي: عاقدين عليهن عقدة النكاح المتوقفة على المهر والولي والشهود وصيغة الإيجاب والقبول، لا مسافحين بإعطاء المرأة أجرة وطئها فقط بدون عقد مستوف لشروطه، ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ أيضًا بأن تنكحوهن سرًا بحكم الصحبة والصداقة والمحبة، إذ ذاك هو الزنى، فلا يحل بأجرة، ولا بغير أجرة[٢].

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يعيرون من يزني في العلانية ولا يعيرون من يزني سرًا، فحرم الله زنى السر والعلانية[٣]، كما شرط ديننا على النساء أن يكن محصنات، وألا يتخذن الأخدان.

قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

أخدان جمع خدن، وهو الخليل، وكان من نساء الجاهلية من تتخذ خدنًا تزني معه خاصة، ومنهن من كانت لا ترد يد لامس، ومعنى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: غير مجاهرات بالزنا، ولا مسراتٍ له، وكان الزنا في الجاهلية منقسمًا إلى هذين القسمين[٤].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ٩٥.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٥٩٥.
(٣) تفسير السمرقندي،، ١/ ٣٧١.
(٤) انظر: التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ١/ ١٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٦٧.

أسباب الاتخاذ

إن لكل اتخاذ أسبابًا تؤدي إليه، حري بنا أن نميز بينها، ونتبع كل اتخاذ محمود، ونأخذ بأسبابه ونسلك كل سلوك يؤدي إليه، ونتجنب كل اتخاذ مذموم، ونبتعد كل البعد عن أسبابه، والتي من شأنها أن تجلب غضب الله وعقابه.

أولًا: أسباب الاتخاذ المحمود:

إن للاتخاذ المحمود أسبابًا حريٌّ بنا اتباعها، نذكر أهمها:

١ . الإيمان.

إن من أهم أسباب الاتخاذ المحمود هو الإيمان، فالإيمان يدفع صاحبه لكل أمر محمود، ولكل فعل أمر به الشرع ودعا إليه، والمؤمن أكثر الناس حبًا لله، وحبه لربه يدفعه للإخلاص له في عبادته وعدم الشرك معه.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فالآية الكريمة تبرز أن المؤمنين أشد الناس حبًا لله، وهذا مدح لأهل الإيمان؛ لأن إيمانهم دفعهم لهذا الحب الخالص، وهذا الحب يدفعهم لتوحيده واتخاذ الله إلهًا واحدًا، لا شريك له، ويدفعهم أيضًا للابتعاد كل البعد عن اتخاذ الند كبعض الناس يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم ويشركون مع الله في حبهم، فيسوونهم مع الله في المحبة والطاعة، فهم مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمن موحد؛ لأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره[1].

إنه الإيمان الصادق بالله الذي يدفع المؤمن للاتخاذ المحمود، «فإن المؤمنين لا يحبون شيئًا حبهم لله، لا أنفسهم ولا سواهم، لا أشخاصًا، ولا اعتبارات، ولا شارات، ولا قيمًا من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أشد حبًا لله، حبًا مطلقًا من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حبًا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي، صلة المودة والقربى، صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠، تفسير المراغي، ٢/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٩.

الودود»[1].

٢. اتباع سبيل الهدى.

وإن من أسباب الاتخاذ المحمود اتباع سبيل الهدى، وطاعة الله فيما أمر والامتناع عما نهى، فالله سبحانه وتعالى أمرنا باتخاذه وكيلًا.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

هذا أمر من الله باتخاذه وكيلًا، وعدم اتخاذ الأولياء والآلهة والشفعاء من دونه، فمن أطاعه واتبع سبيل الهدى فاز وربح بهذا الاتخاذ المحمود، فإن من دلالة هذه الآية أن من حقق التوحيد واتبع سبيل الهدى اتخذ الله وكيلًا.

يقول ابن عاشور: «وإذا كان الأمر باتخاذه وكيلًا مسببًا عن كونه لا إله إلا هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلًا»[2].

«وهكذا المؤمن الكامل لا يتوكل إلا عليه سبحانه وتعالى ولا يعتمد على سواه، ولا ينقطع عن كل ذلك؛ لأنه رب المشرق والمغرب وما بينهما، لا إله غيره، وكيف يكون غير ذلك؟! وكل ما في الكون شرقه وغربه شاهد عدل على وحدانية الله، وأنه لا إله غيره، ولا معبود سواه، إذا كان الأمر كذلك فاتخذه وكيلًا»[3].

٣. الانتفاع بالتذكر.

إن الانتفاع بالتذكرة سبب يدفع للاتخاذ المحمود، فالإنسان مدعو للانتفاع بالتذكرة والموعظة، فمن ينتفع بالتذكرة والموعظة فإنه سيتخذ سبيل الإيمان والرشاد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩] أي: من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلًا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة، والتذكرة هي الموعظة؛ لأنها تذكر الغافل عن سوء العواقب، فالانتفاع بالتذكرة سبب للاتخاذ المحمود[4].

ثانيًا: أسباب الاتخاذ المذموم:

١. الكفر.

إن من أهم أسباب الاتخاذ المذموم هو الكفر بالله والنفاق -والعياذ بالله-، فالكافر كفره يصرفه إلى كل مذموم، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك، ففي سياق ذكر صفات منافقي أهل الكتاب وما استحقوه من لعنة من الله؛ لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبين الله سبحانه وتعالى أن سبب هذا الاتخاذ المذموم أنهم لم يؤمنوا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٥٤.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٦٧.
(٣) التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٧٦٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٢٧٧.

بالله ولا بنبيه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١].

فالآية تبين أن عدم إيمان الذين يتولون المشركين سبب في اتخاذهم المشركين أولياء، فإن الإيمان بالله ورسوله وازعٌ عن توليهم قطعًا، ومانع لهم عن هذا الاتخاذ المذموم[(١)].

٢. مخالفة أوامر الله واتباع سبيل الضلال.

إن مخالفة أوامر الله توقع المرء في الاتخاذ المذموم، فلما خالف اليهود والنصارى أوامر الله سبحانه وتعالى، وقد أمرهم بعبادته وعدم الشرك به، وقعوا بالشرك.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فالآية توضح أن مخالفتهم لأمر الله وعدم التزامهم بأمره كان سببًا في هذا الاتخاذ المذموم وهو اتخاذ الأحبار، أي: العلماء، وعيسى ابن مريم أربابًا وآلهة من دون الله.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذي يتكبر عن آياته ولا يؤمن بها ويتبع سبيل الضلال، ويعرض عن سبيل الهداية، فإنه سيتنكب الطريق، فيصبح لا يميز طريق الحق من طريق الباطل، فيتخذ سبيل الغي طريقًا ويترك طريق الرشد؛ لأنه كذب بآيات الله، وغفل عن معطيات الإيمان.

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

يقول الشعراوي: «وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلًا؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم؛ لأنها تمكنت منهم، ولكن سبيل الغي يطلق العنان لشهوات النفس، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذي يحرمه من شيء ليعطيه أشياء

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٧٠.

أثمن»[1].

ويقول السعدي في بيان سبب اتخاذهم سبيل الغي، وعدم اتخاذهم سبيل الرشد، «﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها، هو الذي أوجب لهم سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشد»[2].

٣. اتباع غواية الشيطان.

وإن من أسباب الاتخاذ المذموم: اتباع غواية الشيطان، فالشيطان يسعى في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم؛ ليضلهم، وقد نهانا الله عن اتباع غواية الشيطان، وعن اتخاذه وليًا، بل دعانا لاتخاذه عدوًا؛ لأنه يضل الناس ليكونوا من حزبه ثم يكونوا من أصحاب السعير.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

يقول ابن عاشور: «وأعقب الأمر باتخاذ الشيطان عدوًا بتحذير من قبول دعوته وحثٍ على وجوب اليقظة لتغريره وتجنب توليه بأنه يسعى في ضر أوليائه وحزبه، فيدعوهم إلى ما يوقعهم في السعير، وهذا يؤكد الأمر باتخاذه عدوًا؛ لأن أشد الناس تضررًا به هم حزبه وأولياؤه، وجملة ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ تعليل لجملة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾»[3].

فإن اتباع غواية الشيطان تسبب اتخاذه وليًا من دون الله، وتوقع العبد في اتباع كل مذموم، «ذلك الشيطان الذي لعنه الله، والذي صرح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية، من لذة كاذبة، وسعادة موهومة، ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة، وشعائر سخيفة، من نسج الأساطير، كتمزيق آذان بعض الأنعام؛ ليصبح ركوبها بعد ذلك حرامًا، أو أكلها حرامًا -دون أن يحرمها الله- ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الإنسان، كخصاء الرقيق، ووشم الجلود، وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرمه الإسلام»[4].

قال تعالى: ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

(١) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٣٥٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠٢.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٦١.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٦٠.

«وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسة بين الإنسان والشيطان، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه، وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها؛ لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده، والمؤمن لا يغفل عنها، ولا ينسحب منها، وهو يعلم أنه إما أن يكون وليًا لله، وإما أن يكون وليًا للشيطان وليس هنالك وسط، والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات، ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة، والمسلم يكافحه في ذات نفسه، كما يكافحه في أتباعه، معركة واحدة متصلة طوال الحياة، ومن يجعل الله مولاه فهو ناجٍ غانم، ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك»[(١)].

أساليب القرآن في عرض الاتخاذ

استعمل القرآن الكريم أساليب متعددة في عرض الاتخاذ، نذكر هذه الأساليب خلال السطور الآتية مع ذكر أمثلة على كل أسلوب.

أولًا: الخبر:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الخبر في عدد من الآيات القرآنية؛ للإخبار عن موضوعات عدة منها:

١. الإخبار عن اتخاذ المنافقين مسجد ضرار؛ لإلحاق الأذى والضرر بالمؤمنين، والتفريق بينهم، وتقوية للكفر[(٢)]، وهذا اتخاذ مذموم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

٢. الإخبار عن حرمة اتخاذ الأخدان للمسلمين والمسلمات، والإرشاد للزواج[(٣)].

قال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٦١.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١١/ ٢٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٧٤، ٢٢١.

وقال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[النساء: ٢٥].

٣. الإخبار عن اتخاذ مريم للحجاب ساترًا لها؛ للتفرغ للعبادة[1].

قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

٤. الإخبار أن الله غني عن اتخاذ الولد، وتنزهه سبحانه وتعالى عن الشريك والولد والصاحبة، وأن الملائكة هم عباد لله مكرمون.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

٥. الإخبار عن شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قومه باتخاذهم القرآن مهجورًا، تلاوة وعلمًا وعملًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

٦. الإخبار عن المشركين الذين اتخذوا آلهة يتولونها من دون الله، فالله يحصي أفعالهم ويجازيهم بها يوم القيامة[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

٧. الإخبار عن اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية وسترًا يستترون بها من نسبتهم إلى النفاق؛ لحفظ أموالهم وحقن دمائهم[3].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

ثانيًا: النهي:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب النهي في عدد من الآيات القرآنية؛ للنهي عن أفعال عدة، هي من الأفعال المذمومة التي نهى القرآن الكريم عن اتخاذها، ومن أمثلة ذلك:

١. النهي عن اتخاذ آيات الله هزوًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾[البقرة: ٢٣١].

٢. نهي المؤمنين من أن يتخذوا من الكفار بطانة وأخلاء.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨].

٣. النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

---

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٢/ ٤٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٠٢.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٨/ ١٠٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٦٤.

﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

٤. نهي المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

٥. النهي عن الشرك مع الله، واتخاذ الآلهة مع الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

٦. النهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة خداع ومكر، بإظهار الوفاء بالعهد وإبطان النقض[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

٧. نهي المؤمنين أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢١٣.

ثالثًا: الأمر:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الأمر في عدد من الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١. أمر الله للمسلمين بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢. أمر الله للمسلمين أن يتخذوا الشيطان عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٣. أمر الله لنبيه أن يتخذه وكيلًا، فيتوكل عليه وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فهذا أمر بتخصيص الله بالتوكل عليه[2].

وبذلك نرى أن الآيات أمرت باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، واتخاذ الله وكيلًا، وكذلك اتخاذ الشيطان عدوًا، وهذه من أمثلة الاتخاذ المحمود، الذي أرشدنا القرآن إليه.

رابعًا: النفي:

استعمل القرآن الكريم أسلوب النفي في

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٥٥.

عرض الاتخاذ، في:

١. نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١].

«والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكد، فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس»[(١)].

وكذلك نفى الله عن نفسه الولد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الفرقان: ٢].

حيث نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة بنات الله، وعما قالت اليهود: عزير ابن الله، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله، تعالى الله عن ذلك[(٢)].

وجاء النفي أيضًا عن اتخاذه الولد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ [مريم: ٣٥].

ففي هذه الآية «نفى سبحانه وتعالى عن نفسه الولد، أي: ما كان من نعته اتخاذ الولد»[(٣)].

٢. نفي اتخاذ المجاهدين الخلص بطانة من الكفار.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

«والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه؛ حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة، أي: بطانة، من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين»[(٤)].

خامسًا: الثناء على أهل الاتخاذ المحمود:

من الأساليب التي استعملها القرآن الكريم في عرض الاتخاذ: هو الثناء، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالثناء عليه لتنزهه عن اتخاذ الولد، فالله سبحانه وتعالى له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل نقص.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

ومعنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الثناء عليه بما هو أهله[(٥)]، «وقل: الحمد لله والثناء بالجميل على الفعل الجميل لله سبحانه وتعالى الذي لم يتخذ ولدًا فهو ليس محتاجًا إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث وهو

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٣٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٣/ ٦٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢٥٣.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٣٩.

منزه عنها، ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه غير محتاج إليه، ولو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، ولم يكن له ولي من الذل، أي: لم يكن له ناصر من الذل ومانع له منه، ولم يوال أحدًا من أجل الذل؛ إذ هو القادر المقتدر الخالق صاحب النعم جل جلاله وكبره تكبيرًا، وعظمه تعظيمًا يتناسب مع جلاله وقدسيته، والله أكبر ولله الحمد»[1].

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المؤمنين من الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

يقول ابن عاشور: «هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفاهم الله حقهم من الثناء عليهم»[2].

يقول الزمخشري في بيان قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾: «ألا إنها شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنتين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان، إذا خلصت النية من صاحبها»[3].

وبذلك نرى أن الآيات مدحت من يستحق المدح من أهل الاتخاذ المحمود.

سادسًا: ذم أهل الاتخاذ المذموم:

لقد ذم الله سبحانه وتعالى أهل الاتخاذ المذموم، ومثال ذلك ذم الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون مغرمًا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨].

فهذه الآية تبين أن من الأعراب من يعد نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده ﴿مَغْرَمًا﴾، أي: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا[4].

وهذا اتخاذ مذموم، ذمه الله بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ والسَّوْء -بفتح السين- مصدر ساءه يسوءه سوءًا، إذا فعل به ما يكره، وقيل: المفتوح بمعنى الذم، والمضموم بمعنى العذاب والضرر، والدوائر جمع دائرة، وهي ما يحيط بالإنسان

(١) التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٢/ ٤٠٢.
(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ١٥.
(٣) الكشاف، ٢/ ٣٠٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٤٣٠.

من مصيبة ونكبة، تصورًا من الدائرة المحيطة بالشيء من غير انفلاتٍ منها، وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة، وفي هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين؛ لأنه سبحانه وتعالى جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم، وتدور بهم، فلا تدع لهم مهربًا أو منجاة من عذابها وضررها[1].

وذم الله الذين يتخذون الصلاة هزوًا ولعبًا، بتحقير عقولهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

يقول ابن عاشور: «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ تحقير لهم؛ إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء فجعله موجبًا للاستهزاء سخافة لعقولهم»[2].

فهذا ذم للاتخاذ المذموم وأهله، وهو تسفيه لهؤلاء الذين يحادون الله ورسوله، ويهزءون ممن يولي وجهه إلى الله، راكعًا وساجدًا، ولو عقلوا لعلموا أنهم بعملهم هذا، يحاربون الله ويصدون الناس عن أداء حقه عليهم من الولاء لجلاله، والشكران لنعمه، إنهم ظلموا أنفسهم ظلمًا فوق ظلم[3].

يقول ابن كثير: «هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزوًا يستهزئون بها، ولعبًا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد»[4].

وكذلك ذم الله قوم موسى الذين اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

«أكد سبحانه وتعالى ذمهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: اتخذوا العجل معبودًا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأي كلام، ولا يرشدهم إلى أي طريق، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله، وبوضعهم الأمور في غير مواضعها»[5].

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠/ ١٨٢، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٦/ ٣٨٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٤٢.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ١١٢٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٤٠.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٥/ ٣٨٠.

سابعًا: الاستفهام الإنكاري:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الاستفهام الإنكاري في عدد من الآيات، ومن أمثلة ذلك:

- الاستنكار على الذين ادعو أنه لن تمسهم النار، أتخذوا عهدًا عند الله حتى لا يعذبهم[(١)]؟

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

- استنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه آزر لاتخاذه أصنامًا آلهة من دون الله، وهي لا تضر ولا تنفع[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

- أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنكر على الذين اتخذوا من دونه -وهو الخالق- أولياء لا يملكون النفع والضر لأنفسهم، فكيف سينفعون غيرهم؟[(٣)].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

- الاستنكار على من اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، واستبدال من خلقهم وأنعم عليهم بعدوهم[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

- استنكار الرجل الصالح ناصح أهل القرية على نفسه أن يتخذ آلهة من دون الله، وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين استنكارًا عليهم بجعل الأوثان آلهة لا تدفع ضر ولا تشفع[(٥)].

قال تعالى: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وهكذا نجد أن الاستفهام في المواضع السابقة جاء لإنكار اتخاذ مذموم فعله المتخذون؛ فاستحقوا استنكار فعلهم.

---

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٧٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ٣١٢.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١٢.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٢٢٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٦٨.

عاقبة الاتخاذ

إن الاتخاذ أمر اختياري يتخذه المتخذ، ولما أمرنا الله باتخاذ كل محمود ونهانا عن اتخاذ كل مذموم، جعل لكل اتخاذ عاقبة، إما ثواب وإما عقاب، فمن اتخذ اتخاذًا محمودًا أفلح وفاز، ومن اتخذ اتخاذًا مذمومًا خسر وخاب.

أولًا: عاقبة الاتخاذ المحمود:

إن أهل الإيمان الذين التزموا أوامر الله وانتهوا عما نهى، هم أصحاب الاتخاذ المحمود، الذين يتخذون الله وليًا ووكيلًا، ويتخذوا القرآن دستورًا ومنهج حياة، ويتبعوا سبيل الهدى ويتخذوه طريقًا، هؤلاء عاقبتهم الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، فيحيون حياة طيبة في الدنيا، ويظلهم الله برحمته في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

وقد بين الله سبحانه وتعالى عاقبة أهل الإيمان من الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله، فقد أثنى على فعلهم، ووعدهم برحمته.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

فهذا وعد من الله سبحانه وتعالى لهم، بإدخالهم في رحمته التي هي الجنة، فإنه يغفر ذنوبهم أولًا، ويدخلهم الجنة ثانيًا، هذه سنته -تعالى في أوليائه، يطهرهم ثم ينعم عليهم بجواره[(١)].

يقول الشعراوي: «ورحمة الله هي نعيم مقيم، وهي دائمة وباقية ببقاء الله الذي لا يحد، أما الجنة فباقية وخالدة بإبقاء الله لها، إذن: فدخولك في رحمة الله أعلى من دخولك جنته، فحين يقال: «دخل في الرحمة» فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية»[(٢)].

وعاقبة أهل الإيمان، أصحاب الاتخاذ المحمود، مغفرة من الله، حيث بين الله هذه العاقبة الحسنة بعد أن دعا إلى اتخاذ الشيطان عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٤١٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٤٤١.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[فاطر: ٦- ٧].

فالآيات تبين أن الناس انقسموا إلى مؤمنين وكافرين بحسب اتخاذهم للشيطان عدوًا أو وليًا، فالذين كفروا ولم يلتزموا أوامر الله، واتخذوا الشيطان وليًا لهم عذاب شديد في نار جهنم، أما الذين آمنوا وعملوا بمقتضى الإيمان بالتزامهم بأمر الله، واتخذوا الشيطان عدوًا، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير يحصل به المطلوب، وهذا أجر كل من اتخذ اتخاذًا محمودًا، أرضى به ربه جل جلاله (١).

إن أهل الاتخاذ المحمود هم أهل الفردوس، ونعم العاقبة لهم، فلما بين الله سبحانه وتعالى في كتابه عاقبة الكافرين وأن جزاءهم جهنم وبئس المصير، الذين اتخذوا آيات الله ورسله هزوًا، بين عاقبة أهل الإيمان أصحاب الاتخاذ المحمود، الذين آمنوا بآيات الله واتخذوها دستورًا، وآمنوا برسل الله واتخذوهم أنبياء وقدوة لهم.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٥- ١٠٧].

يبين الله في الآيات بطريق الوعد لا الوعيد مآل المؤمنين الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة، فالذين آمنوا وعملوا بمقتضى إيمانهم من الأعمال الصالحة، ولم يتخذوا آيات الله ورسله هزوًا كما فعل الكفار، هم أهل الفردوس جعلها الله لهم نزلًا وإكرامًا(٢).

«والمراد بجنات الفردوس: أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها: جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٨٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٤٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٥٠.

والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم!! فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانًا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية»[(١)].

اللهم اجعلنا من أهل الفردوس يا رب العالمين.

ثانيًا: عاقبة الاتخاذ المذموم:

كما أن لأهل الاتخاذ المحمود عاقبة حميدة وحسنة، فإن أهل الاتخاذ المذموم لهم عاقبة سيئة، فالجزاء من جنس العمل، فلا يستوي من اتخذ الله وليًا ووكيلًا، ومن اتخذ آلهة من دونه، ولا يستوي من اتخذ القرآن دستورًا، ومن اتخذه مهجورًا.

وأول عاقبة لصاحب الاتخاذ المذموم الذي ظلم نفسه، هو الندم، فيوم القيامة يندم الظالم ويعض على يديه؛ لأنه لم يتخذ مع الرسول سبيلًا، واتخذ طريق الغي سبيلًا له، واتخذ من أهل الشر أخلاء، أضلوه عن طريق الحق.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧-٢٨].

وعض الظالم على يديه، كناية عن الحسرة والندم، على ما فاته من خير، ولا يمكنه حينها دركه، وسبب الحسرة التي تملأ قلب الظالم في هذا اليوم، وهو أنه قد كان على طريق مخالف لطريق النبي، وأنه دعي إلى الإيمان فأبى، ولم يتخذ مع الرسول سبيلًا، بل اتخذ سبيله مع الضالين من أمثاله، الذين أغووه، وأغواهم، فكانوا حزبًا على النبي والمؤمنين[(٢)].

فالعبد مدعو ليتدارك ما فاته، قبل الوقت الذي لا يمكنه ذلك، وليتخذ كل ما من شأنه أن يكون سعادة له، لا ما يجلب له الندم وغضب الله سبحانه وتعالى ، فالذين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٨٨.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٠/ ١١.

يتخذون كل مذموم ينالهم غضب من ربهم عاقبة وجزاء على عملهم، فالذين اتخذوا العجل إلهًا من دون الله يعبدونه، سينالهم غضب من الله، وذلة في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

«إنه حكم ووعد، إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته، وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة، وهكذا كان، فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ويسامحهم الله المرة بعد المرة، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ كل المفترين إلى يوم الدين، فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، من بني إسرائيل، ومن غير بني إسرائيل، ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة»[(١)].

هذا هو مصير كل من اتخذ كل مذموم ومحرم نهانا شرعنا أن نتخذه، غضب من الله، وعذاب في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ٩-١٠].

فكل مستكبر مكذب بآيات الله ومستهزئ بها، يناله عذاب الله، هذا ما بينته الآيات وهي تصف مصير كل من اتخذ آيات الله هزوًا، واتخذ من دون الله وليًا، بأن لهم عذابًا ذا إهانة، يتكافأ مع استكبارهم واستهزائهم، فالجزاء من جنس العمل، ومن ورائهم جهنم، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا من الأموال والأولاد، فتلك مواقف لا ينفع فيها مال ولا بنون، بل يفر المرء فيها من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ولا يغني عنهم ما اتخذوهم أولياء من دون الله كالأصنام وسائر المعبودات الباطلة، ولهم في جهنم عذاب عظيم لا يعرف قدره أحد من الخلق[(٢)].

والآيات في كتاب الله كثيرة تبين أن عاقبة كل اتخاذ مذموم، هو العذاب والعقاب الرباني، وبئس العقاب الذي يستحقه من خالف أمر ربه، واتبع طريق الضلال، وهذا ترهيب من هذا السبيل، فحريٌّ بنا تجنب هذا السبيل المذموم، وكل ما من شأنه أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٧٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٤٢٦.

يجلب غضب الله وسوء العاقبة، والسعي دائمًا لكل ما يرضي الله، ويكون سببًا في النجاة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

الأخذ، الصحبة، المحبة





عناصر الموضوع

مفهوم الاجتماع	٣٢٢
الاجتماع في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٤
أسباب الاجتماع	٣٢٦
أنواع الاجتماع	٣٤٨
معوقات الاجتماع المحمود	٣٦٣
الاجتماع يوم القيامة	٣٧٠



مفهوم الاجتماع

أولًا: المعنى اللغوي:

(جمع) الجيم والميم والعين أصل واحد، يدل على تضام الشيء، يقال: جمعت الشيء جمعًا، وجمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعًا، وجمعه وأجمعه فاجتمع.

واجتمع القوم واستجمعوا بمعنى: تجمعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واتحدوا واتفقوا.

و(الجماعة) العدد الكثير من الناس، والشجر والنبات، وطائفة من الناس يجمعها غرض واحد.

و(الاجتماع) علم الاجتماع، علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموها وطبيعتها وقوانينها ونظمها، ويقال: رجل اجتماعي مزاول للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس.

و(المجتمع) موضع الاجتماع.

و(المجمع) موضع الاجتماع والملتقى، ومنه: مجمع البحرين، ومؤسسة للنهوض باللغة أو العلوم أو الفنون ونحوها (محدثة)[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاجتماع بأنه: تقارب أجسام بعضها من بعض[2].

وعرفه السيوطي بقوله: الاجتماع: وجود أشياء كثيرة يعمها معنىً واحد[3].

وقال المناوي: الاجتماع: مجاورة جوهرين في حيزين، ليس بينهما ثالث، وضده الافتراق، وهو وقوع جوهرين بينهما حيز[4]. وكذا قال الكفوي[5].

ولا يختلف معنى الاجتماع في الاصطلاح عن المعنى الذي يفيده في أصل اللغة، وإن كان مقصود الشرع من الاجتماع هو ما يحمد شرعًا، وهو أن يلتقي المسلمون، وينضم بعضهم إلى بعض، ولا يتفرقوا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٤٧٩ لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٥٣، تاج العروس، الزبيدي، ٢٠/ ٤٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ١٣٦.

(٢) التعريفات، ص١٠.

(٣) معجم مقاليد العلوم، ص١٣٧.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٨.

(٥) الكليات، ص٤٦.



الاجتماع في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الاجتماع) في القرآن، ولكن ورد جذره، وهو: (جمع)، والذي يعني: تأليف المتفرق وانضمامه[1].

ولكن القرآن الكريم تحدث عن الاجتماع والتوحد وجمع الكلمة، من خلال الحديث عن الائتلاف، ونبذ الفرقة، والاعتصام بحبل الله.

(١) ١ انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللقاء:

اللقاء لغةً:

الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلين، ولقيته لقوةً، أي: مرةً واحدةً، ولقاءةً، ولقيته لقيًا ولقيانًا، واللقية فعلةٌ من اللقاء، والجمع لقى[1].

اللقاء اصطلاحًا:

قال الرازي: وصول أحد الجسمين إلى الآخر؛ بحيث يماسه بشخصه[2].

وقال الراغب: مقابلة الشيء ومصادفته معًا، وقد يعبر به عن كل منهما[3].

الصلة بين الاجتماع واللقاء:

اللقاء حسي، أما الاجتماع فقد يكون حسيًا، وقد يكون معنويًا.

وأيضًا فاللقاء: هو الاجتماع على وجه المقاربة والاتصال، والاجتماع قد يكون على غير المقاربة والاتصال[4].

٢ الاعتصام:

الاعتصام لغةً:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]. أي: تمسكوا بعهد الله[5].

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[6].

الاعتصام اصطلاحًا:

ولا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٦٠، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٨٤، تاج العروس ، الزبيدي، ٣٩/ ٤٧٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٩٢.

(٣) المفردات، ص٧٤٥.

(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٦٧.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٢٠٥.

(٦) المفردات، الراغب، ص ٥٦٩ ، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي، ٣٣/ ١٠١.

الصلة بين الاجتماع والاعتصام:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، والمقصود: الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع.

٣ الاختلاف:

الاختلاف لغةً:

ضد الاتفاق[(١)]، وهو منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حقٍ أو لإبطال باطل[(٢)].

الاختلاف اصطلاحًا:

عرفه الراغب بقوله: «والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله»[(٣)].

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الخلاف والاختلاف هو المضادة والمعارضة، وعدم المماثلة، وهو بهذا المعنى ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في نصوص القرآن الكريم.

٤ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[(٤)].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدَده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[(٥)].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الاجتماع والتفرق:

التفرق خلاف التجمع، وهو ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في القرآن الكريم.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٠٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٣) المفردات، ص ٢٩٤.
(٤) انظر: المخصص، ابن سيده، ٣/ ٣٦٠.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٩١٨.

أسباب الاجتماع

أسباب الاجتماع التي يجتمع الناس عليها كثيرة، منها:

أولًا: الاجتماع لهدف واحد:

من أسباب الاجتماع أن يجتمع الناس على هدف واحد، ومن هذه الأهداف:

١. الاجتماع للعبادة.

حث الله تعالى على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين؛ ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء، أو يجلب لهم السراء[1].

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

ومما يدل على فضل الاجتماع على هذه العبادة، وهي الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

قال ابن كثير: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك»[2].

والحاصل أن الله تعالى جعل للمسلمين مناسبات دينية يومية وأسبوعية وسنوية يجتمعون فيها، ومن هذه الاجتماعات الأسبوعية يوم الجمعة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩].

فأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، من حين ينادى لها، والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها، والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع إذا

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٠٠.

نودي للصلاة، وامضوا إليها، فإن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة(١).

وإنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل جميع الخلائق(٢). أو لأنه جمع في هذا اليوم خلق آدم(٣). وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع الجماعات فيها(٤). وهذه الأقوال كلها صحيحة.

فالحاصل: أن يوم الجمعة يوم يجتمع المسلمون، وما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع، وقد اشترط العلماء العدد في صلاة الجمعة، واختلفوا في أقل عدد تنعقد به الجمعة، على أقوال كثيرة، بلغت ثلاثة عشر قولًا، ومحل بسطها كتب الفقه.

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة التي لا تصح إلا جماعة، وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون، ويلتقوا، ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد، وفي العبادة الواحدة، وكلاهما عبادة، وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية...، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة، والحث عليها، والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب(٥).

وأمر الله المسلمين بالسعي إلى ذكر الله؛ لأن الغالب في الجُمع أن يكون فيها ذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر جنته وناره، وفي قوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: من أجل الاجتماع والصلاة وذكر الله.

وفيه: تذكرة بأمر أعظم، وهو أنه سيأتي يوم عظيم يجتمع الناس فيه، وهو يوم المعاد، وهذا اليوم نعته الله جل وعلا بقوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] فيترك الإنسان البيع في الدنيا، ويلجأ إلى الله في مثل هذا اليوم العظيم تذكرة لنفسه باليوم الذي يغدو الناس فيه بين يدي رب العالمين، والإنسان لا بد أن يكون له باعث من نفسه.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٤٣٤.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٨٤.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٥٦٩.

ومن صور الاجتماع: الاجتماع في الحج، ففي الحج يجتمع المسلمون من جميع أقطار العالم، في مكان واحد، وزمان واحد، وقد أمر الله قريشًا أن يفيضوا من حيث تفيض جماعة الناس حرصًا على الاجتماع، واقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩].

فالحج هو مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة، ولا يميز فردًا عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة، ولا جنسًا عن جنس، إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة، ونسب الإسلام هو وحده النسب، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة[1].

والمقصود: أن الاجتماع مقصد عظيم، يظهر فيه وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، ووحدة صفهم، وهذا المقصد العظيم يظهر جليًا في صلاة الجماعة التي تتكرر في اليوم خمس مرات في المساجد، فهي اجتماع مصغر، يلتقي فيه أصحاب الحي في اليوم خمس مرات في بيت من بيوت الله عز وجل، يؤدون فريضةً من فرائض الله، ثم يأتي اجتماع أكبر وهو يوم الجمعة، وهو اجتماع أسبوعي، ثم يأتي اجتماع في السنة مرتين وهو الاجتماع لصلاة العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) ثم يأتي الحج، وهو الاجتماع السنوي للمسلمين، وهو واجب في العمر مرة، وفي هذا الاجتماع منافع كثيرة.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى كثيرًا من المنافع التي تترتب على الاجتماع في الحج، فمنها: تعرف المسلمين على بلاد بعضهم، وعلى أحوالهم، ويتعرف التاجر على مواطن التجارة في البلدان المختلفة، ويتعرف على ما يحتاج إليه المسلمون في كل مكان من بقاع الأرض، بالإضافة إلى أن هذا الاجتماع مظهرٌ من مظاهر وحدة المسلمين؛ لأنهم يظهرون بلباس واحد، ويجتمعون في مكان واحد، يدعون ربًا واحدًا، ويقومون بأعمال واحدة، ولا فرق بين غنيهم وفقيرهم، فهذا مظهر أيضًا من مظاهر اجتماعهم، ووحدة كلمتهم.

ومن الاجتماعات الموسمية، والمناسبات العبادية العظيمة: صوم رمضان، فهو عبادة موسمية من مواسم الخير، تكون في شهر رمضان، تقترب فيه القلوب إلى بارئها، وتفتح فيه أبواب الجنة، وانظر كيف جاء الأمر به بشكل جماعي، حيث قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣] أي: فُرِضَ

(١) انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٠٠.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والأمم، وأولهم آدم عليه السلام[1].

وفي هذه الآية: إشعار بوحدة الدين أصوله ومقصده، وتأكيد لأمر هذه الفرضية، وترغيب فيها.

والمقصود: أن الله سبحانه يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون، ودفع واستجاشة لتنهض به، وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكمة ونفع، حتى تقتنع به، وتتعود عليه؛ ولهذا فإن كثيرًا من العبادات اتخذت طابع الجماعية.

ففي هذه الفريضة -الصوم- نجد أن التكليف بدأ بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة، ثم يقرر لهم بعد ندائهم ذلك النداء أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين، وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى، والشفافية والحساسية، والخشية من الله[2].

٢. الاجتماع لقتال الكفار.

أمر الله تعالى بالاجتماع عند قتال الكفار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء:٧١] أي: مجتمعين جيشًا واحدًا.

ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك.

وثُباتٍ: جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، وفرقة بعد فرقة، إظهارًا للجرأة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين، كركبة واحدة...، والغرض النهي عن التخاذل، وإلقاء النفس إلى التهلكة[3].

قال القاسمي: «﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ إيقاعًا للمهابة بتكثير السواد، ومبالغة في التحرز عن الخطر، قال الحاكم: اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهاد الإمام»[4].

وقال الألوسي: «قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين جماعة واحدة»[5].

ومما جاء في الاجتماع في القتال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤] أي: صافين أنفسهم[6].

والصف: عدد من أشياء متجانسة منتظمة الأماكن، فيطلق على صف المصلين، وصف الملائكة، وصف الجيش في ميدان القتال، فالجيش إذا حضر القتال كان صفًا،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٦٨ بتصرف.

(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤٤٦.
(٤) محاسن التأويل ٣/ ٢٢١.
(٥) روح المعاني ٣/ ٧٨.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.

من رجالة أو فرسان، ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات، فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر، وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق، وكر وفر، وانتصب (صفًا) على الحال، بتأويل: صافين، أو مصفوفين[1].

ثم قال: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض، وقيل: أريد به استواء نياتهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض، وهو حال أيضًا[2].

وقد اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص، فنقل بعضهم عن الفراء: أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته، والجمهور: أنه المتلاصق المتراص المتساوي.

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء، لا في تلاحمه بالرصاص، وعدم انفكاكه، ولا تساويه وتراصه؛ لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها.

قال الشنقيطي: «والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن وجه الشبه المراد هنا: هو عموم القوة والوحدة»[3].

والحاصل: أن في الآية الحث على الجهاد في سبيل الله صفًا متراصًا متساويًا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل المساواة بين المجاهدين، والتعاضد وإرهاب العدو، وتنشيط بعضهم بعضًا، والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض، والتشبيه في الثبات، وعدم الانفلات.

فليس هو مجرد القتال؛ ولكنه هو القتال في سبيله، والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف، والقتال في ثبات وصمود ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

٣. الاجتماع على إبطال الحق.

لما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالمعجزة، وكانت قلب العصا ثعبانًا، وإظهار اليد البيضاء، جمع فرعون السحرة، وحشروهم من المدائن، يعني من القرى، واختار الطاغية الكافر وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة، وادعى كون موسى ساحرًا، فتشاور مع كبار رجال دولته، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة مصر المهرة وبين موسى.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٧٦.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.
(٣) أضواء البيان، ٨/ ١٠٦.

(٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٩].

وتم جمع السحرة من أنحاء المملكة، قيل: كانوا سبعين رجلًا أو ثلاثة وسبعين، ودل قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

فقرر أن يكون مكان الاجتماع -للمناظرة والمغالبة في زعمه- مكانًا سوى، وأصح الأقوال في قوله: ﴿سُوًى﴾ على قراءة الكسر والضم: أنه مكان وسط، تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا للجنوب من الشمال، وهذا هو معنى قول المفسرين مكانًا سوى، أي: نصفًا وعدلًا؛ ليتمكن جميع الناس أن يحضروا[1].

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: بأيسر أمر؛ لما له عندهم من العظمة ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ واليوم المعلوم: يوم الزينة، وميقاته: وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى -صلوات الله عليه- من يوم الزينة في قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩][2].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كافة؛ حثًا لهم على الإسراع إلى الاجتماع بأمر فرعون، وامتحانًا لهم هل رجعوا عن دينه ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا، وعبر بالاستفهام حثًا على الاجتماع.

كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحركه، ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم، إن غلبوا موسى[3].

وهدف هذا الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلبًا أن يكون بمجمع من الناس، حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين، والانقهار للمبطلين[4].

ولعل معنى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتماعًا أنتم راسخون فيه؛ لكونه بالقلوب كما هو بالأبدان، كلكم ليكون أهيب لكم[5].

والحاشرون: هم الذين يتولون جمع السحرة وحشدهم وحشرهم إلى ساحة فرعون، والتعبير بالحشر هنا يشير إلى أن الأمر عظيم، وأنه لا بد له من حشر الناس

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣١١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٥.
(٥) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٣١.

إليه، ويبعثهم سراعًا من كل أفق، ليلقوا موسى، ويقفوا في وجه هذا الخطر الذي دهمهم به.

وحُشر السحرة على عجل، وأقبلوا من كل أفق، وغصت بهم ساحة فرعون، وما كانوا قد رأوا رأي العين ما كان من فعل موسى بعصاه ويده مع فرعون، وإن كانوا قد سمعوا به، وتصوروه على ما روي لهم، ومن هنا وقع في أنفسهم أنه ساحر مثلهم، وأنه إذا كان على شيء من القوة بالنسبة لهم، فإن في جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة.

ومن هنا أيضًا وقع في أنفسهم أنهم أصحاب الموقف المنتظر بينهم وبين موسى، فكانت لهم بذلك دالة على فرعون، وقد أطمعهم فيه ما وجدوه عليه من ذلة وانكسار، فجاءوا إليه يسألونه الأجر مقدمًا، ويسألونه الجزاء الذي لهم عنده، بعد أن يكون لهم الغلب! ولا يملك فرعون في هذا الموقف إلا أن يستجيب لهم، ويترضى مشاعرهم، حتى يبذلوا كل ما يملكون من حول وحيلة، إنهم الآن لا يعملون إلا بأجر، وقد كانوا من قبل هذا الموقف عبيدًا مسخرين! فليس الأجر وحده، ولا المال وحده هو الذي سيبذله لهم، إن هم انتصروا على موسى، وأبطلوا كيده، وأفسدوا تدبيره، ولكن لهم إلى هذا المال الوفير الذي سيغدقه عليهم أن يقربهم إليه، ويدنيهم منه، ويجعلهم أعوانه، وأصحاب الكلمة والرأي عنده، ولا يذكر القرآن هنا اجتماع السحرة بموسى، والاتفاق معه على موقع المعركة وزمانها؛ فذلك متروك لتقدير من يتلو هذه القصة، وتصوره لملء هذا الفراغ الذي لا يغيب عن فطنته[(١)].

والحاصل: أن هذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موّه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر، فيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن، من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوًا وضلالًا وتماديًا في غيه وعنادًا، فقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء:٤٩] يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩] هذا وهو

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٤٥٣.

الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح، والآيات الباهرة؛ لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه على خلاف حقيقته صدقوه[1].

ثانيًا: الاجتماع على قاسم مشترك:

ومن أسباب الاجتماع بين الناس وجود قاسم مشترك يجمع بينهم، ويؤلف بين قلوبهم، ومن هذه القواسم المشتركة:

١ . الدين.

الدين من أعظم الأسباب الموحدة بين الناس، بل هو السبب الأول، وقد أمر الله عباده أن يتمسكوا به، ويجتمعوا عليه، وعلى هذا بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين، والألفة والجماعة، وترك الفرقة.

قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣].

أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

فذكر في هذه الآية الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، وهي إقامة الدين، وعدم التفرق فيه.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه:

الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس، وتوافقت على واحد قوي التأثير.

الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت، وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود.

الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج، والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال:٤٦][2].

فالعقيدة أقوى الروابط التي تربط بين الناس، وبخاصة إذا سلمت وصحت وقويت في نفس صاحبها، ومنشأ ذلك أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.

صاحب العقيدة القوية يرى نفسه مفردًا بسبب هذه العقيدة عن الناس، وحيدًا بينهم، غريبًا فيهم، فهو في مسيس الحاجة إلى من تسكن إليه نفسه، ويأنس به قلبه، ويشتد به أزره، وليس في ذلك إلا رجل اعتقد مثل عقيدته، وآمن بمثل ما آمن به، هنالك تلتئم الروحان، ويتحد القلبان، وتسكن ثائرة النفس، ويستشعر كل منهما بالآخر روح الأنس، ويود أحدهما لو يفتدي الآخر بالدنيا وما فيها، وما قيمة الدنيا وما فيها إذا خلت من أنيس يرتاح إليه القلب، وتسكن معه النفس؟! هذا هو منشأ الوحدة والارتباط في نفوس أهل العقيدة الواحدة، والمبدأ المتفق.

وإنك لترى بين الناس روابط كثيرة من نسبية وعصبية؛ وصداقة ومعرفة، واشتراك في تجارة؛ أو مصلحة؛ أو غاية مما يرتبط بهذه الأغراض الزائلة، فترى كل الروابط سريعة الزوال، وشيكة الانحلال، على حين ترى أهل العقيدة الواحدة على قلب واحد، وشعور واحد[(١)].

والحاصل: أن من الأسباب التي تربط بين الناس الدين والعقيدة المشتركة؛ ولهذا عظم الله أمر الاجتماع عليه، وأتبع ذلك التعظيم بالنهي عن الافتراق فيه، فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: في الدين، تفرقًا عظيمًا؛ بما أشار إليه إثبات التاء، وكأن ذلك إشارة إلى التحذير من التفرق في الأصل.

فإن التفرق سبب الهلاك، والاجتماع سبب النجاة[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنها على شيء، وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين، في قديم الدهر وحديثه»[(٣)].

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك، يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها؛ فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه الاجتهاد، واختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد؛ فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعًا متعادين متفرقين، يلعن بعضهم بعضًا، ويذيق بعضهم بأس بعض»[(٤)].

والمقصود: أن الله تعالى أوجب علينا إقامة الدين، بالتمسك بكتابه وسنة نبيه،

(١) انظر: نظرات في كتاب الله ص ٤٥٠ بتصرف.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ٢٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣١٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢١/ ٩٦.



والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف.

ومع أهمية الاجتماع يبقى أن الاجتماع المأمور به إنما هو بالقلوب الجاعلة لهم كالجسد الواحد، ولا يضر فيه صرف بعض الأوقات إلى المعاش، وتنعيم البدن ببعض المباحات.

ويبين الشافعي رحمه الله أن اجتماع الأبدان ليس بمعتبر ولا مقصود، بل المقصود والمعتبر الاجتماع على طاعة الله ورسوله، والاجتماع على الحق، فيقول بعد أن بين أن الأمر بلزوم جماعة المسلمين ليس له إلا معنى واحد؛ ذلك أنه: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين؛ ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم، والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها[1].

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

فأخبر الله عز وجل في هذه الآية أن الناس كانوا أمة واحدة، أمة مجتمعة على ملة واحدة، ودين واحد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[2].

وقيل: إن وقت كون الناس أمة واحدة على دين التوحيد يوم استخرج ذرية آدم من صلبه، فعرضهم على آدم، يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: «كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرهم يومئذٍ على الإسلام، وأقروا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم، ثم اختلفوا من بعد

(١) الرسالة، ١/ ٤٧٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٦.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٩.

آدم[1].

فالله سبحانه إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب عند الاختلاف، فالأصل في البشرية هو الاجتماع على التوحيد الخالص لله عز وجل، والأصل أن الناس كانوا مجتمعين على الدين الواحد، دين التوحيد، وأنه ما إن دب الشرك في الأمة إلا وقارنته الفرقة، فاستلزم بعثة الأنبياء والرسل رحمة من الله تعالى بالناس، وإعذارًا لهم، فهو سبحانه كما في الحديث: (لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين)[2].

٢. الإيمان.

ومن القواسم المشتركة التي تجمع بين الناس: الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠].

يعني: كالإخوة في التعاون؛ لأنهم على دين واحد[3].

وفي الآية بيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب، والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها، ولم يتقاصر عن غايتها، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح، وبثًا للسفراء بينهما، إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه، وما استشن[4] من الوصال من يبله، فالأخوة في الدين أحق بذلك، وبأشد منه[5].

و(إنما) للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع؛ ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين، ولا يكون لأخيه الكافر[6].

قال الزجاج: «أَعْلَمَ الله عز وجل أن الذين يجمعهم وأنهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا في الاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، ولو اختلفت أديانهم لافترقوا في النسب، وإن كان في الأصل أنهم لأب وأم»[7].

فالصلة التي ينبغي أن تقوم بين المؤمنين هي صلة أخوة ومودة، دون نظر إلى لون أو جنس أو وطن، فقد جمعهم الإسلام في نسب يعلو على نسب الدم والجنس

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا شخص أغير من الله، ٩/ ١٢٣، رقم ٧٤١٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٧.
(٤) قوله: «استشن» في الصحاح: تشنن الجلد يبس، واستشن الرجل: هزل.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٦.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٧.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٦.

والوطن، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وإنه لمن قلب الأوضاع أن ينعزل المؤمن بشعوره هذا من المودة والأخوة عن إخوانه المؤمنين، وينحاز إلى الكفار، يعطيهم ولاءه ومودته وأخوته، والإسلام الذي يدعو إلى الحب والسلام إذ يدعو أتباعه إلى التراحم والتواد والتآخي فيما بينهم، لا يجعل ذلك على حساب الصلات الأخوية التي ينبغي أن تكون بين المسلم وبين سائر الناس[1].

يقول القاسمي: «وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة تشبيه بليغ، أو استعارة شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد؛ لأن كلًا منهما أصل للبقاء؛ إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان»[2].

والحاصل: أن المؤمنين بسبب إيمانهم إخوة، أي: في التوالي والتعاضد والتراحم؛ ولهذا فالمؤمنون قلوبهم على قلب رجل واحد فيما يعتقدونه من الإيمان، وأما المنافقون فقلوبهم مختلفة، كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤] فإذا كان المؤمنون إخوة أمروا فيما بينهم بما يوجب تآلف القلوب واجتماعها، ونهوا عما يوجب تنافر القلوب واختلافها، وهو إصلاح ذات البين.

حتى الملائكة يجمعهم بالمؤمنين الإيمان؛ ولهذا يستغفرون للذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] وفي هذا تنبيهٌ على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة وأن تخالف الأجناس؛ لأنها أقوى المناسبات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وهذه الأخوة الدينية مما يحسدنا عليها جميع أهل الملل، فهي لا تزال أقوى فينا منها فيهم ترافدًا وتعاونًا، وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية، وأثرة المادية وغيرها، على ما منيت به شعوبنا من الضعف، واختلال النظام، واختلاف الجنسيات والأحكام[3].

ومما يترتب على هذه الأخوة: أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف؛ وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك[4].

ومما يبين هذه الصلة الإيمانية: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٤٢٩.
(٢) محاسن التأويل، ٨/ ٥٢٩.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٢ بتصرف.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٣.

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير، ودفع الشر.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير، ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا، لا تدخل بينها عوامل الفرقة، وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة، ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التي يقررها العليم الخبير ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض[1].

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة، إن الجاهليات تجعل الرابطة آنًا هي الدم والنسب، وآنًا هي الأرض والوطن، وآنًا هي القوم والعشيرة، وآنًا هي اللون واللغة، وآنًا هي الجنس والعنصر، وآنًا هي الحرفة والطبقة! تجعلها آنًا هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك، وكلها تصورات جاهلية -على تفرقها أو تجمعها- تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي! والمنهج الرباني القويم -ممثلًا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه، قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير، والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق[2].

٣. الهدى.

ومن القواسم المشتركة التي يجتمع الناس عليها: الهدى.

قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠].

وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

فهؤلاء صنفان وجمعان، فالأولون اجتمعوا على الهدى، والآخرون اجتمعوا على الضلالة، وشتان بين الجمعين والفريقين.

والفريق يصدق بالجماعة الكثيرة[3].

وهذا كله إنذار من الوقوع في الضلالة، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٥ بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٨٣.

دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾.

فيعلم السامعون أنهم إذا رجعوا إليه فريقين، كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وأن الفريق الخاسر هم الذين حقت عليه الضلالة، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩][1].

إنها لقطة واحدة عجيبة، تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى، ونقطة النهاية، نقطة الانطلاق في البدء، ونقطة المآب في الانتهاء...، وقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه، والشيطان وقبيله، وكذلك سيعودون، الطائعون سيعودون فريقًا مع أبيهم آدم، وأمهم حواء، المسلمين المؤمنين بالله، المتبعين لأمر الله، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس، وولايته لهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون.

لقد هدى الله من جعل ولايته لله، وأضل من جعل ولايته للشيطان، وها هم أولاء عائدين فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وهذا فيه إشارة إلى أن الهدى من الأمور التي تجمع بين الناس.

فقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿لَجَمَعَهُمۡ﴾ جميعًا ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ وَالْهُدَى هنا بمعناه الخاصِ؛ لأن الْهُدَى يُطلَقُ في القرآنِ إطلاقين: يطلق إطلاقًا عامًا، ويطلقُ إطلاقًا خاصًا، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانةُ الطريقِ وإيضاحُها وتوضيحُ الخيرِ من الشرِ، ومنه بهذا المعنى في القرآنِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصلت:١٧] أي: أَوْضَحْنَا لهم طريقَ الخيرِ وَالشرِ بَيِّنَةً على لسانِ نَبِيِنَا صالحٍ، وليس هذا الْهُدَى (هُدَى تَوْفِيقٍ) وإنما هو (هُدَى بَيَانٍ) فَقَطْ، بدليلِ قولِه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]

وأما الْهُدَى بمعناه الخاصِ فهو: التوفيقُ إلى ما يُرْضِي اللَهَ.

والحاصل: أن من العوامل المشتركة بين الخلق الاجتماع على الهدى، كاجتماع الملائكة، والأنبياء وأتباعهم.

وسلب الاجتماع على الهدى لا ينافي اتباع البعض لهذا الهدى، فالاجتماع على الهدى مطلوب شرعًا، وحاصل واقعًا، إلا أن تحقق ذلك بيد الله الهادي سبحانه ﴿وَلَوۡ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٨١.

﴿شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]

أي: ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه، إما بأن يجعل الإيمان ضروريًا لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير، لا متفاوتي الاستعداد، مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات؛ ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت، وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار[(١)].

وقيل: لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيَهم بآيةٍ ملجئةٍ إليه، ولكن لم يفعلْه لخروجه عن الحِكْمة[(٢)].

٤ . الكفر.

ومن القواسم المشتركة: الكفر، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار بعضهم من بعض، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣].

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين، وإن كانوا مللًا كثيرة، يعادي بعضها بعضًا؛ إلا أن بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله، وإنما جعل بعضهم من بعض؛ لأن دينهم واحدٌ، وطريقتهم واحدة.

قال ابن جرير: «قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم، معرِفًا بذلك عباده المؤمنين أن من كان لهم أو لبعضهم وليًا فإنما هو وليُّهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَرْب، فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضًا بعضكم أولياء بعض، ولليهودي والنصراني حربًا؛ كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء؛ لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحربَ، ومنهم البراءة، وأبان قطع وَلايتهم»[(٣)].

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ هو تقرير لحكم واقع بين الكافرين، وهو أنهم على ولاء فيما بينهم، وأنهم حزب واحد، مجتمع على عداوة المؤمنين، ناصب لحربهم، راصد للفرصة الممكنة له منهم، وليس في هذا

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٢٩.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٣٩٩.

الذي يقرره القرآن الكريم دعوة لجماعات الكافرين أن يكونوا على هذا الولاء الذي بينهم، وإنما هو تقرير لأمر واقع، يرى منه المؤمنون كيف يجتمع أهل الضلال على الضلال؟! وكيف يقوم بينهم الولاء والتناصر؟! فأولى للمؤمنين ثم أولى لهم أن يجتمعوا على الإيمان، وأن يتناصروا على الحق والخير[1].

فالكفار -كما نعلم- وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض، فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا، ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام، وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط، نجد قول الحق تحذيرًا لهم من هذا ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧].

فالمنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان، وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم؛ ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا وغمزًا ولمزًا[2].

فقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ يعني: في الاجتماع على الضلال، كما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] أي: في الاجتماع على الهدى[3].

قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق»[4].

فالمنافقون والمنافقات وصفهم الله بقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع، فهم يقلدون بعضهم بعضًا، وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر فكلهم شر، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير، أو يحاول رَدّهم عن النفاق، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى.

ولما كان مرضهم واحدًا، وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابهًا، قال الإيجي في تفسير هذه الآية: أي: هم على دين وطريق واحد، وبعضهم مشابه ومقارب من

(١) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٦٨٦.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٣.

(٤) معالم التنزيل، ٤/ ٧١.

بعض، كأبعاض الشيء الواحد[1].

والحاصل: أن المنافقين يربط بينهم عامل مشترك، وهو أن بعضهم يشبه بعضًا في الشك والنفاق والارتياب، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف؛ إذ الولاية والصلة والأخوة هي من صفات المؤمنين أصحاب العقائد الراسخة.

فإن قيل: لمَ قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وقال في وصف المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ما الحكمة في ذلك؟

أجيب: بأنه لما كان نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، قال فيهم: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة، وهوى النفس، وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض، فظهر الفرق بين الفريقين، وظهرت الحكمة[2].

والمقصود: أن الكفر صفة مشتركة قد جمعت بين الكافرين، كما أن الشك والنفاق والارتياب صفة مشتركة قد جمعت بين المنافقين، كما أن المؤمنين بعضهم من بعض، أي: بعضهم أولياء بعض في الاجتماع على الهدى.

٥. العاقبة.

ومما يجمع الناس العاقبة المشتركة، سواء كانت خيرًا أو شرًا، وقد أخبر الله تعالى أن المجرمين تجمعهم عاقبة واحدة، وهي أنهم جميعًا في العذاب، التابع والمتبوع.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف:٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصافات:٣٣].

فذكر العذاب الذي سيحل بهم جميعًا رؤساء ومرؤوسين، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: إن الفريقين المتسائلين حينئذٍ مشتركون في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والغواية.

فَحُقَّ لهؤلاء أن يجتمعوا ويشتركوا هم وقرناؤهم في العذاب، كما كانوا مشتركين ومجتمعين في سببه، وهو الكفر والمعاصي، فقد اجتمعوا واشتركوا؛ ولكنه بئس الاجتماع والاشتراك.

ولا يخفف هذا الاجتماع والاشتراك عنهم شيئًا من العذاب؛ لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب[3].

فكأن الله تعالى منعهم التأسي بما يُسَهِل

(١) جامع البيان، الإيجي ٢/ ٨٠.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٦٣١.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٧٣ بتصرف.

على الإنسان المصيبة والعقوبة، فإنه إذا كان في مصيبة فرأى غيره في مثلها سهل عليه، كما قالت الخنساء في أخيها صخر[1]:

وَلَوْلا كَثْرة البَاكِين حَوْلي
على إخْوانِهم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُون مثلَ أخِي ولكِنْ
أُسلِي النَّفْس عَنهُ بالتَّأسِي

ففي هذا حرمان التأسي، وهي نعمة يسلبها الله أهل النار؛ ليكون أشد لعذابهم، فإن التأسي قد يخفف كثيرًا عن المتأسي من حزنه[2].

وقد بين الله تعالى أن حصول الشركة في هذا العذاب لا يفيد التخفيف، كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه:

الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم أن الشركة لا تفيد الخفة.

الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه، فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة.

الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة، فبين تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة، وخفة العقوبة[3].

(١) البيتان في ديوانها ص ٧٢.
(٢) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ١٠٦٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٣.

بل إن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرته؛ ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم التي أضلتهم.

قال معمر عن سعيد الجريري: بلغنا أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبر شفع بشيطانه فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار، فذاك حين يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

وقد أخبر الله تعالى عن حنق الكفار على من أضلهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت:٢٩].

فإذا قرن أحدهم بمن أضله في العذاب كان أشد لعذابه، فإن المكان المتسع يضيق على المتباغضين باقترانهما في المكان الضيق، وأخبر الله تعالى عن اختصام الكفار مع من كان معهم من الشياطين، ومن عبدوه من دون الله تعالى[4].

ومع اشتراكهم في العذاب إلا أن للمتبوعين عذابًا زائدًا للإغواء، ولكن الزيادة لا تنافي الاشتراك في أصل الشيء كما دلت عليه أدلة أخرى؛ لأن المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصله.

قال السعدي: «ولكنه من المعلوم أن

(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٩٩.

عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون في العذاب، مشتركون فيه، وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة»[1].

والمقصود: أن المجرمين اجتمعوا على هذه العاقبة السيئة، وهي الاشتراك في العذاب، كما اشتركوا في سببه في الدنيا، ولكن لن ينفعهم اشتراكهم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها؛ لتعاونِهم في تحملِ أعبائِها، وتقسمِهم لعنائِها؛ لأنَ لكل منهم ما لا تبلغُه طاقتُه كما قيلَ؛ لأنَ الانتفاعَ بذلكَ الوجهِ ليسَ مما يخطرُ ببالِهم.

بل إن في هذا الاجتماع تعذيب وحسرة، فمن قذفه عصيانه لله ولرسوله في النار، فإن له من العذاب ما يمنعه عن الأنس بغيره، فهو وحيد لا يجد لذة في الاجتماع بغيره ولا أنسًا، فلما كان لا يتمتع بمنفعة من منافع الاجتماع كان كأنه وحيد.

فالعذاب إذن كامل، لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون! ولهذا تقع الملاحاة بين الأتباع والمتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، وتتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل، ويترامون بالعداوة والبغضاء! والأتباع والمتبوعون هنا: هم جميعًا من أهل الضلال، أما الأتباع فهم العامة، وأما المتبوعون فهم العلماء وأصحاب القيادة الدينية فيهم؛ إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال، وهم الذين حرفوا لهم الكلم عن مواضعه، فأهلكوهم وهلكوا معهم جميعًا.

فالمشهد هنا بين الأتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التي يساق إليها الأتباع والمتبوعون معًا؛ ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذي أوردهم موارد الهلاك، فقد وقع في أنفسهم حين رأوا العذاب الذي ينتظرهم أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم، ويسوقونهم للقصاص منهم، بتهمة التحريض والغواية لهم، عندئذٍ بادر هؤلاء المتبرعون، وتبرؤوا من أتباعهم، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم!

وحين يجد الأتباع أنهم وقادتهم حصب جهنم، كما يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يتضاعف حزنهم، وتشتد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٨.

حسرتهم، ويقطع اليأس نياط قلوبهم، حين لم ينالوا منالًا من هؤلاء الذين غرروا بهم، وأوردوهم هذا المورد الوبيل!

وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظًا ويأسًا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].

فهم إنما يتمتمون -في يأس مغلق- أن يردوا هم ورؤساؤهم إلى هذه الدنيا ليراجعوا حسابهم معهم، على ضوء ما تكشف لهم في هذا الموقف؛ وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها، أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدى نفعًا، فقد دعوا إلى الضلال وأجابوا.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الخطاب هنا للفريقين، التابعين والمتبوعين، إنه لن ينفعهم اشتراكهم جميعًا في العذاب، ولن يشفى ما بصدور الضالين من نقمة وحنق على من كانوا سببًا في إغوائهم وإضلالهم، أن يلقى هؤلاء المغوون ما يلقون من عذاب وبلاء[(١)].

٦. التناسب.

ومن العوامل المشتركة التي تجمع بين الناس: الاشتراك في صفة واحدة أو أكثر، سواء أكانت حسنة أم سيئة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

يعني: الغالب أن المائل إلى الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله، أو مشركة، والمسافحة لا يرغب في نكاحها الصلحاء، وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها، أو مشرك، فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع، كما أن المخالفة سبب الوحشة والافتراق.

وقدم الزاني في هذه الآية لأن الرجل أصل في النكاح من حيث أنه هو الطالب، ومنه تبدأ الخطبة؛ ولأن الآية نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كانت بالمدينة من بقايا المشركين لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية، فاستأذنوا رسول الله في ذلك فنفر عنه ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغب إلا في نكاح إحداهما، والزانية لا يرغب في نكاحها إلا أحدهما، فلا تحوموا حوله، كيلا تنتظموا في سلكهما، أو تتسموا بسمتهما[(٢)].

فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٣/ ١٣٣ بتصرف..

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١١٦.

الدال على شدة الاستبعاد: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة(١).

والحاصل: أن الزاني لا يطأ إلا زانية، أي: لا يتهيأ له الحصول على من يشاركه هذا الإثم إلا امرأة فاسدة فاسقة مثله، فهو فاسد فاسق، لا يستجيب له إلا فاسدة فاسقة، أو مشركة لا تؤمن بالله، ولا تخشى حسابًا أو جزاء، فهي لهذا مستخفة بكل معنى من معاني الخلق والفضيلة؛ إذ لا ترجو بعثًا، ولا تطمع في ثواب، ولا تخشى من عقاب، وكذلك الشأن في الزانية، إنها لا تدعو إليها إلا فاسدًا فاسقًا، يستجيب لها، ويواقع المنكر معها، أو مشركًا لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، وفي هذا تغليظ لهذا الجرم، واستخفاف بأهله، وأنهم أهل سوء، يجتمع بعضهم إلى بعض، فليس فيهما صالح وفاسد، وإنما هما كائنان فاسدان، ينجذب بعضهما إلى بعض، كما ينجذب الذباب إلى القذر والعفن.

فالآية الكريمة تحكي بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس في التآلف والتزاوج، وتبين أن المشاكلة في الطباع علة للتلاقي، وأن التنافر في الطباع علة للاختلاف.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: **(الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)**(٢)(٣).

ومن الأدلة على أن من أسباب الاجتماع التناسب والتجانس في بعض الصفات: قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي: إن الخبيثات لا يرغب فيهن إلا الخبيثون، والآية مبنية على الآية السابقة: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لأن الخبيثات والخبيثين هم الزواني ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وهم العفائف؛ فلا يجوز أن يتزوج عفيف إلا عفيفة مثله، ولا أن تتزوج عفيفة إلا عفيفًا مثلها، وهذه هي سنة النفوس الفاضلة، والخلق الكامل، هذا ولم تخرج أوامره تعالى وإرشاداته لخلقه عن أسمى الأخلاق التي تصبو إليها الإنسانية، وتنتظم بها الأسر، فلا يختلط الخبيث بالطيب، ولا يدنس العفيف نفسه بمخالطة البغي، ولا تنزل العفيفة إلى درك الزاني الفاجر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الطيبون والطيبات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٨٠.



﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: مما يقوله فيهم الخبيثون والخبيثات، الوالغون في الأعراض، الطاعنون في الكرامات[1].

وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال:٣٧] أي: ويجعل الله الخبيث بعضه منضمًا متراكبًا على بعض، بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، واختلاف المتناكرات[2].

فقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ أي: الفريق الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعه متراكمًا بعضه على بعض[3].

فيجمع الله الخبيث على الخبيث فيلقي به في جهنم، وتلك غاية الخسران، والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جِرم ذو حجم، وكأنما هو كومة من الأقذار، يقذف بها في النار، دون اهتمام ولا اعتبار ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعًا أعمق في الحس، وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير والتأثير[4].

فيجمع الله بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الباطل، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا ويجتمعون على ذلك؛ فيجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من مات منهم على الكفر ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] أي: يجمعون، وعلة هذا الجمع أن يميز الله تعالى الخبيث من الطيب، فالطيبون وهم المؤمنون الصالحون يعبرون الصراط إلى الجنة دار النعيم، وأما الخبيث وهم فريق المشركين فيجعل بعضه إلى بعض فيركمه جميعًا كومًا واحدًا، فيجعله في جهنم.

(١) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٤٢٦ بتصرف.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٢٠٦.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٥٦٩.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

أنواع الاجتماع

ليس كل اجتماع محمودًا شرعًا، ولا كل فُرقة منهي عنها شرعًا، فهناك اجتماع محمود، واجتماع مذموم، وهناك فُرقة محمودة، وفرقة مذمومة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الاجتماع بالإخوان قسمان، أحدهما: على مؤانسة الطبع، وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت، الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة، والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها»[(١)].

وقد ذكر العلماء أن الاجتماع على ضربين: اجتماع أجسام، واجتماع معانٍ، وهي الأخلاق والأهواء، وجعل افتراق الأهواء كافتراق الأجسام[(٢)]، وهذه تنقسم إلى ما هو محمود، وما هو مذموم.

وقد سميت سورة من القرآن باسم سورة (الزُمر)، أي: الجماعات، وفيها ذُكر الاجتماع بنوعيه المحمود والمذموم، وفيها عرض لحال من اجتمعوا في الدنيا على الخير زُمرًا، وحال من اجتمعوا في الدنيا على الشر زُمرًا، وحال الفريقين حين يردون الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١].

وقال في الفريق الآخر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: ٧٣].

و﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعات، والواحد: زمرة، ويقال: تزمر القوم إذا اجتمعوا، وزمرتهم، أي: جمعتهم، وأصله: أن يساق كل فريق على ما أحبوا، وكانوا في الدنيا جماعة جماعة، وأمة أمة، وعلى ما يجتمعون في هذه الدنيا، أهل الخير على أهل الخير، وأهل الشر على أهل الشر، وسروا بالاجتماع في ذلك، لكن أهل الخير يساقون إلى الجنة على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا مسرورين، وأهل الكفر يساقون إلى النار على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الشر حزنين مغتمين[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل ما في سَوْقِ الفريقين إلى الدارين ﴿زُمَرًا﴾ من فرحة هؤلاء بإخوانهم، وسيرهم معهم كل (زمرة) على حدة، كلُ مشتركين في عمل، متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين، أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك

(١) الفوائد، ص ٥٢.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٣٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٧١٠.

يؤنس بعضهم بعضًا، ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله: ﴿زُمَرًا﴾[1].

أولًا: الاجتماع المحمود:

الاجتماع المحمود هو الذي يكون على الحق، والتعاون عليه ونصرته، والاجتماع على الأعمال الصالحة، ويمكن القول: إن الاجتماع المحمود هو كل ما تتحقق به المصالح والواجبات الشرعية، وتندفع به المضار والمفاسد، وقد أمر الله تعالى في القرآن بالاجتماع والائتلاف والاتفاق، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣] يريد بذلك: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

والحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، والمعاني كلها متقاربة متداخلة، وذكر ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن حبل الله هو: الجماعة، وذكر بأسانيده أقوالًا أخرى عن السلف في تفسير معنى (حبل الله) منها: القرآن، والإخلاص لله وحده، والإسلام[2]، وهذه الأقوال مؤداها واحد، ونتيجتها واحدة، فإن الاعتصام بالقرآن، والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها مما ينتج عنه تآلف المسلمين، واجتماعهم، وترابطهم، وتماسك مجتمعهم.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة»[3].

وزاد الله الأمر تأكيدًا حيث قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع، قال الراغب الأصفهاني: قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ حث على الألفة والاجتماع الذي هو نظام الإيمان، واستقامة أمور العالم[4].

ثم أمرهم بتذكر نعمته عليهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٥٩.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٦٨.

قال الزمخشري: «كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة، فتحابوا، وتوافقوا، وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم، وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله»(١).

وقال السيوطي: «إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فآخى به بينكم، وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلا هو إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب»(٢).

وهذا يدل على أن الاعتصام والاجتماع أصل عظيم في الإسلام.

يقول شيخ الإسلام: «وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة»(٣).

وفي قوله: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ دليل على أن الاجتماع المطلوب والمرغوب، والثابت والدائم، هو الاجتماع على الدين، فدين الله دين الاجتماع والخير، فإذا خرج الناس عن هذا الدين إلى الآراء الهدامة، والأفكار المنحرفة تفرقوا شيعًا وأحزابًا، وصار بعضهم عدوًا لبعض، يكفر بعضهم بعضًا، ويفسق بعضهم بعضًا، ويبدع بعضهم بعضًا.

فالمذاهب الهدامة، والآراء الضالة، والأفكار المنحرفة كلها تدعو إلى الفرقة والاختلاف، فتحول الأمة إلى كيانات متناحرة، يعادي بعضهم بعضًا، كما وصف الله اليهود، حيث قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

لكن المؤمنين خلاف ذلك تمامًا، فهم أهل مودة وتناصح ومحبة في الظاهر والباطن، يحب بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا.

ونهى الله تعالى عن ضد الاجتماع، وهو الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا، المؤدي إلى العداوة والبغضاء والفشل والإتلاف، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهذه الآية تحض على الاجتماع، وقد بينَ القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض منشؤه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في اليهود: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٥.
(٢) الدر المنثور، ٢/ ٢٨٧.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٥٩.

﴿يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾ [الحشر: ١٤].

ثم كأن قائلًا قال: ما الموجب الذي صير قلوبهم شتى، أي: مختلفة متنافرة؟! وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض؟ فبين العِلة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، وإنما نفي كمال العقل، يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، أما هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء، وهذا يدل على أن هذه الفِرَق -التي تدعي الإسلام- المختلفة، التي يبغض بعضها بعضًا، وإن تجاملت في ظاهر الأمر أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها، وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل يَفِر من تلك الطريق ويخالف، فهذا من ضعف العقل[(١)].

فواضحٌ جدًا أن التنازع هو أحد أسباب الهزيمة الرئيسة، كما أن تجنبه من أسباب النصر الرئيسة، ومن ينظر إلى الواقع، ويعتبر بمسيرة التاريخ يدرك أن الفشل والخذلان الذي لحق بالأمة كان سببه الفرقة والخلاف، فهذه الآية تأتي ضمن عوامل النصر الحقيقية: من الثبات، وذكر الله، وطاعة الله ورسوله، وتجنب الشقاق والنزاع والصبر، والحذر من البطر والرياء.

ولا يتنازع الناس إلا بسبب تعدد القيادات، وبسبب الهوى، حينما يجعل كل واحد من نفسه قائدًا وموجهًا، ولا يقبل من غيره ذلك، ثم يركبه الهوى في تحسين ذاته ونفسه، فيرى من نفسه الحق المطلق، أما مجرد اختلاف أوجه النظر في المسألة الواحدة فليس من أسباب التنازع، لو تجرد صاحب النظر عن الهوى والإعجاب بالنفس.

فإذا وقع التنازع بسبب الهوى والعُجب تغيرت النفوس، وخُدش صفاء الأخوة، فكان الانتصار للنفس لا للحق والصواب، وللذات لا للجماعة والأمة، فتذهب القوى بتشتيتها، وتضعف بتمزيقها، فلو وقعت الهزيمة لم يكن أمرًا عجبًا.

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت منهم بريء، وهم منك براء، أي: لم تتلبس بشيء من مذاهبهم، والعرب تقول: إن فعلت كذا فلست مني ولست منك، أي: كل واحد منا بريء من صاحبه[(٢)].

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ٥٣٤ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط للواحدي ٢/ ٣٤٢.

وفي هذا غاية الحث على الاجتماع، ونهاية التوعد على الافتراق[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفًا له؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق؛ فمن اختلفوا فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه»[2].

وقال السعدي: «دلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أصل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية»[3].

وكذلك نهانا الله أن نكون ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم:٣٢].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣].

وهذا نهي عن التفرق، وهو في نفس الوقت أمر بالاجتماع والتوحد على الحق والدين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران:١٠٥].

وانظر كيف جمع بين ﴿تَفَرَّقُوا﴾ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ قال بعضهم: تفرقوا واختلفوا معناهما واحد، وذكرهما للتأكيد، وقيل: بل معناهما مختلف، ثم اختلفوا فقيل: تفرقوا بالعداوة، واختلفوا في الدين، وقيل: تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه، والثالث: تفرقوا بأبدانهم؛ بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيسًا في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل[4].

وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا: الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق، وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق، وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام، وذكر الأشياء مع مقارناتها...، وفيه: إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق هو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضًا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار

(١) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٣٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٨٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣١٦.

والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد، وإذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقًا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة[1].

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الدين في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[2].

قال السعدي: «ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل، وتحزبكم أحزابًا، وتكونون شيعًا، يعادي بعضكم بعضًا مع اتفاقكم على أصل دينكم، ومن أنواع الاجتماع على الدين، وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها، وعدم التفرق»[3].

ومن الآيات التي تحث المؤمنين على الاجتماع قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:١٠].

وهذه الأخوّة لا يمكن أن تتحقق إلا بالاجتماع، ونبذ الفرقة.

فالمسلمون مأمورون بالاجتماع، وبمحبة بعضهم بعضًا، والسعي إلى ما تأتلف به القلوب، يقول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

فالمؤمن ولي للمؤمن، ولاية تقتضي المحبة والمودة والنصيحة والتوجيه والدعوة للخير.

والحاصل: أن هذه الآيات تدل على وجوب الاجتماع والائتلاف وفضله، والحث عليه، وتحريم التفرق والاختلاف، وسوء عاقبته، فقد أوجب الله على المسلمين أن يكونوا إخوة مجتمعين على الحق، متحابين متعاونين على البر والتقوى،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٤٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٤.

متناهين عن الإثم والعدوان، وشرع لهم ما يقوي هذه الأخوة والمحبة من الاجتماع على الصلوات والخمس والجمع والأعياد والحج، كما شرع لهم تبادل التحية والسلام والمصافحة، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة والنصيحة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتبادل الهدايا، وكل هذا من أسباب المحبة والألفة، وإزالة العداوة والبغضاء.

وقد ذكر القرآن أنواعًا من الاجتماعات المحمودة، منها:

١ . الاجتماع على طاعة الله تعالى.

فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والأمر لأمته أيضًا: أن يجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود -رضي الله عنهم-؛ وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك[1]، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء[2].

والحكمة من الحث على الاجتماع على الطاعة: أن الاجتماع على الهدى تثبيتٌ وقوة، وأن كثرة السائرين على الطريق تورث الأُنس، وتهون مشقة السير، بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة، ويستجلب الملل، فالإنسان إذا كان معه سالكون لم يستوحش، وكلما كثر السالكون شاع الأمن، ورسخت الطمأنينة، أما السالك وحده فإنه قد يستوحش، وقد يضعف، وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية، وهذا الأمر حاصل لمن سلك سبل الدنيا، ولمن سلك سبل المبادئ والقيم سواء بسواء، وهو في الثانية أظهر وأخطر[3].

فالاجتماع على الهدى، وسير المجموعة على الصراط دليل قوة، فإذا كثر السالكون يزيد الأنس، ويقوى الثبات، وكلما كثر السالكون كان ادعى للاطمئنان

---

(١) أخرج هذه الرواية الطبري في تفسيره ١١/٣٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/٩٦، رقم ١٠٠٠٩، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٢.

(٣) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص ٥٧.

والاستئناس، والاجتماع رحمة، والفرقة عذاب، ومما يشير إلى الأنس بالاجتماع، وطبيعة حب النفس للاجتماع، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء:١٣].

فـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ جاءت بصيغة الجمع؛ لأن المؤمنين في الجنة يستمتعون بالأنس ببعضهم.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

فـ﴿خَٰلِدًا﴾ جاءت بصيغة المفرد، فيزيد على عذاب الكافر عذاب الوحدة، فكأنما عذبه الله تعالى بشيئين: النار، والوحدة[(١)].

والمقصود: أن الاجتماع لا يحمد إلا إذا كان على الحق.

ولهذا لما شرع الله تعالى لعباده أحسن شرع وأكمله وأعظمه أمرهم بالاجتماع عليه، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قال ابن كثير: «أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[(٢)].

فالأنبياء كلهم والأمم -أمم الأنبياء- مأمورة بذلك، كلهم مأمورون بالاجتماع، لكن المراد هنا: الاجتماع على الحق والخير، فإذا اجتمعت الأمة على الحق الذي هو لا إله إلا الله، ومنافاة البدع جملة وتفصيلًا، ومنافاة الشر والفجور، حينئذٍ هذا هو الاجتماع المطلوب، وليس الاجتماع على أيِ بدعة أو على أيِ باطل وشر.

٢. الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله.

ومن الاجتماعات المحمودة: الاجتماع على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي: جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

وسواء أكان الأمر موجهًا إلى الأمة الإسلامية كلها، أو إلى جماعة منها، فإن معطيات هذا الأمر واحدة، حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة فيها، وهي

(١) المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٩٥.

جماعة العلماء العاملين بعلمهم، الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.

فالأمة في هذه الآية بمعنى الجماعة، والمعنى: ولتكن منكم أيها المسلمون أمة لها كيان ونظام، أمة مؤتلفة الأعضاء، موحدة الجهات، لا ترهب أحدًا، ولا تخاف شيئًا، دينها قول الحق، ورفع الظلم، ولو كان عند سلطان جائر، لا تخشى في الله لومة لائم، لها رئاسة وقانون، كل ذلك قد أشارت إليه كلمة واحدة وهي (أمة) إذ هناك فرق بين قولك: جماعة وأمة، فعلى المسلمين جميعًا واجب تكوين تلك الأمة؛ لتكون بهذا الوضع، وعلى الأمة المكونة واجب أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والذب عن حياض الدين، ورفع منارة الحق والعدل.

فالمسلمون جميعًا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين، وهذا أشبه بمجلس الأمة! وعلى الأمة جميعًا اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة على سبيل الوجوب، وفي سبيل قيامها بواجبها يجب أن تتوافر فيها شروط العلم الديني، والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس، ويؤثر فيهم مع التقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء، وأن يكون الداعية مثلًا أعلى في الخلق الكامل، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المسلمون ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ اختلافًا كثيرًا، كما حصل لليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحات التي تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير، وترشدهم إلى الطريق[1].

والمقصود: أن من الاجتماعات المأمور بها الاجتماع على الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا مستفاد من قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾. والأمة مأخوذة من أَمَّ بمعنى قصد؛ والجماعة من الناس التي تربطها رابطة، وتجمعها جامعة تسمى أمة؛ لأن كل واحد منها يؤم المجموع ويقصده، ويعتمد عليه في مدلهم الأمور.

ولقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني في معنى الأمة ما نصه: «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها

(١) التفسير الواضح، حجازي ١/ ٢٦٢.

أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُّرْفة[١]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع»[٢].

وفي الآية إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله، وإرشاد الخلق إلى دينه، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ الخ، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة.

ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء، وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير ووسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين[٣].

فلا بد إذن من جماعة مجتمعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك (دعوة) إلى الخير، ولكن هناك كذلك (أمر) بالمعروف، وهناك (نهي) عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها، وترتبط بحبل الله، وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي (دعوة) إلى الخير، يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر فتطاع[٤].

---

(١) السُّرْفة: بضم السين، وسكون الراء: دويبة تتخذ بيتًا من دقاق العيدان، فتدخله وتموت، ومنه المثل: أصنع من سُرْفة.
انظر: القاموس المحيط ص ٨١٩.

(٢) المفردات، ص ٨٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٤ بتصرف.

ثانيًا: الاجتماع المذموم:

الاجتماع وإن كان مطلوبًا شرعًا، ومحمودًا عقلًا، إلا أنه لا يختلف عاقلان في أن التفرق والتبدد أولى من الاجتماع على الشرور، والاتفاق على الفجور؛ وعلى الباطل والبدع والضلال، وقد حكى لنا القرآن أمثلة كثيرة على الاجتماع على الباطل والشر، ومن هذه الأمثلة:

١. الاجتماع على المكر والخداع.

كاجتماع بني يعقوب، حين أجمعوا أمرهم على المكر بيوسف عليه السلام، وجعله في غيابة الجب.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

والاجتماع والإجماع هو الإعداد والعزيمة على الأمر، فهؤلاء اجتمعوا على رأي واحد، واتفقوا على فكرة واحدة، ولكنها في خانة الباطل، وفي المكر والخداع، وبمن؟! بأقرب الناس إليهم! اجتمعوا صفًا واحد ضد أخ لهم؛ حسدًا وبغيًا، فما أقبحه من اجتماع! ويا ويله من تلاقٍ!

ومعنى الآية: وما كنت لدى إخوة يوسف في الوقت الذي أجمعوا فيه أمرهم على التخلص من يوسف بأي ثمن، وهم يحتالون على إخراجه من بين يدي أبويه؛ ليلقوه في غيابة الجب؛ تخلصًا منه، حيث رأوا أنه حجب عنهم وجه أبيهم، وذهب بعطفه وحنانه دونهم.

قال ابن جرير: أي: وما كنت حاضرًا عند إخوة يوسف إذ أجمعوا واتفقت آراؤهم، وصحت عزائمهم، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب؛ وذلك كان مكرهم الذي قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1].

فهم قد تشاوروا كثيرًا، وتعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، واستقر رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به، واتفقوا عليه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أن يصل أحد إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها.

٢. الاجتماع على الإفساد في الأرض.

من الاجتماع المذموم الاجتماع على الفساد.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل:٤٨-٤٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٨٣.

«يقول تعالى ذكره: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعة أنفس، يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خص الله -جل ثناؤه- هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين؛ لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود»[1].

فهؤلاء اجتمعوا على الإفساد في الأرض، وقتل الناقة، وتعاهدوا وتقاسموا على ذلك، قال ابن كثير: «يقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضًا -قال ابن كثير-: قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤]. وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]. وقال: ﴿فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف:٧٧]. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم»[2].

وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة، فكأنه قيل: تسعة أنفس، والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة...، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام، وكانوا من أبناء أشرافهم، وقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح؛ مع أنك قد تجد بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح[3].

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد، بحيث لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، وبيتوا فيما بينهم أمرًا، وهو قتله عليه السلام.

ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا لشر المنكر الذي يبيتونه! وهو قتل صالح وأهله بياتًا، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله! وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل:٤٩] ولا حضرنا مقتله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فقد قتلوهم في الظلام، فلم يشهدوا هلاكهم، أي: لم يروه بسبب الظلام! وهو احتيال

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٤١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٢.

سطحي، وحيلة ساذجة، ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم، الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله، نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم، كذلك دبروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، ويطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل:٥٠][(١)].

وكما في كل جماعة رأس أو رؤوس تقودها، وتتولى تدبير أمرها، فكذلك كان في هذه الجماعة أكثر من رأس، لقد كان فيها تسعة رؤوس، كلهم فاسد، لا يدعون إلا إلى الشر، ولا يعملون إلا فيما هو شر.

والحاصل: أن هؤلاء النفر قد اجتمعوا وائتمروا فيما بينهم، على أن يهلكوا صالحًا وأهله، فأقسموا على ذلك، وجعلوا لتنفيذ هذه المؤامرة وقتًا هو الليل، ثم اتفقوا كذلك على الموقف الذي يلقون به ولي الدم لصالح وأهله؛ وذلك بأن ينكروا أنهم شهدوا مصرع صالح ومن معه.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٥.

٣. الاجتماع على الكفر والاستهزاء بدين الله.

ومن الاجتماعات المذمومة التي ذمها الله في القرآن: اجتماع الكفار والمنافقين على السخرية والاستهزاء بدين الله.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾ [النساء:١٤٠].

ونظيره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

فهؤلاء اجتمعوا على الكفر، وهو الاستهزاء بالدين، والخوض في آيات الله بالباطل، فنهى الله عز وجل عن مجالستهم، وحضور اجتماعهم المشؤوم.

ثم زاد الأمر تخويفًا بقوله: إن جالستموهم ورضيتم باستهزائهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ أي: في الكفر[(٢)].

قال أبو جعفر: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم[(٣)].

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٢١.

وفي الآية وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله، أو بحججه، أو برسله، وأن لا يقعد معهم؛ لأن في القعود إظهار عدم الكراهة؛ وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يجب الإعراض، وترك الجلوس معهم إذا لم يطمع في قبولهم، فإذا انقطع طمعه إذًا فلا فائدة في دعائهم، ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سببًا في ترك الخوض، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة[1].

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ نهي للمسلمين عن الجلوس في هذا المجلس القائم على تلك الصفة، وليس نهيًا عامًا مطلقًا على تجنب الجلوس مع المنافقين والكافرين، ففي ذلك إعنات للمؤمنين، فقد تستدعي أحوالهم أن يكونوا بحيث لا منصرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة، وتبادل المنافع معها!

على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع، فإذا مست هذه المجالس دينه بما يسوء كان أمرًا لازمًا عليه أن يتحول عن هذه المجالس في الحال، ولا يخلط نفسه بها، وإلا حمل وزره من الإثم الذي يتعاطاه فيها أهل النفاق والكفر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: لا فرق بينكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأثمة الذين يهزءون بآيات الله، ويسخرون منها، إذا أنتم استمعتم إلى هذا المنكر ولم تنكروه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين، ومن يلوذ بالكافرين والمنافقين، ويركن إليهم، ويستمع للزور الذي يدور بينهم[2]. يريد: كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا؛ فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة[3].

وهذا هو حضور الزور المنهي عنه، والزور كلُّ مَا خالف الحق، فمعنى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢] أي: لا يحضرون الباطل، في أي لون من ألوانه، قولًا أو فعلًا أو إقرارًا.

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ إشارة إلى ما نزل قبل هذا من

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٩٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٤٧.

قرآن في مثل هذا الموقف، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

فهذه الآية هي توكيد لهذا التنبيه الذي سبق نزول القرآن به من قبل، وتحذير جديد لأولئك الذين لم ينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في الآية موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أمر ملزم لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان النبي إمامهم وقدوتهم(١).

٤ . الاجتماع على الخمر والميسر.

ومن الاجتماع المذموم الاجتماع على الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

فلما كان الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه، ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش؛ وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة، وبالآخرة انقلب الأمر، وحصلت نهاية العداوة والبغضاء.

وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوبًا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبًا فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال...، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرًا مسكينًا، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم(٢).

والمقصود: أن كل اجتماع لم يؤسس على طاعة الله، ولم يكن على نور من الله، فهو اجتماع مذموم، واجتماع يؤول إلى الحسرة والندامة، وتنقلب الألفة إلى نفرة، والمحبة إلى عداوة، والكثرة إلى قلة.

وقد أخبر الله تعالى عن بعض أهل الأعراف أنهم ينادون رجالًا من المشركين يعرفونهم بعلاماتهم، فيقولون لهم: ﴿مَا

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

﴿أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٨] يعني: ما أغنى عنكم جمعكم واجتماعكم وكثرتكم، ولا استكباركم عن الإيمان.

قال الرازي: والمراد بالجمع: إما جمع المال، وإما الاجتماع والكثرة ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحقين، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام، ثم زادوا على هذا التبكيت وهو قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ [الأعراف:٤٩] فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة، كانوا يستضعفونهم، ويستقلون أحوالهم، وربما هزأوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفًا عنده قلق لذلك، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه[1].

معوقات الاجتماع المحمود

١ . اتباع الهوى.

من أسباب عدم الاجتماع ومعوقاته: اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [الشورى:١٥].

فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فيه إشارة إلى أن الأهواء والبدع تفرق؛ ولقد جاء الأمر صريحًا لمحمد صلى الله عليه وسلم باتباع الشرع الحنيف، والنهي عن اتباع الهوى كما في الآية السابقة، وكما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية:١٨].

ولهذا كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك.

قال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء»[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: ذم الكلام وأهله، الهروي ٥/ ١٧.

وصدق أبو العالية رحمه الله، فهذه الأهواء المذمومة قد فرقت الأمة، وفككت كيان الجماعة المسلمة، والمتأمل لأسباب الفرقة يجد أنها تدور في رحاها بين الجهل وبين اتباع الهوى، والظلم؛ لذلك لا اجتماع للأمة إلا بوحدتها على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه الكريم، والتزام صراطه المستقيم علمًا وعملًا، حقًا وعدلًا، وترك الأهواء.

٢. اتباع السُبُل:

ومن معوقات الاجتماع: اتباع السبل المتفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ الإشارة إلى معهود لدى المخاطبين، أو إلى ما جاء في السورة، وهو الإسلام والقرآن، وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونلحظ إضافة الصراط إلى الله في كثير من الآيات، كما في هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٢٦].

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]. وكأنه يقول: ولأن هذا صراطي فهو علة للاتباع[(١)].

و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال من ﴿صِرَٰطِي﴾ مؤكدة لمعنى إضافته إلى الله[(٢)].

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ والسُبُلَ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات[(٣)].

فذكر تعالى أن له سبيلًا واحدة سماها: صراطًا مستقيمًا؛ لأنها أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام، وأن هناك سبلًا متعددة، يتفرق متبعوها عن ذلك الصراط، وهي طرق الشيطان، فطريق الحق هو الوحدة والإسلام، وطرق الشيطان هي مثارات التفرق والخصام، وهي معروفة في كل الأمم، ولكن الشيطان يزين طرقه، ويسول للناس المنافع والمصالح في التفرق.

قال القاسمي: «فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٤٨.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٦٢.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨٩.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها»(١).

وقد بين العلة في ذلك ابن القيم في أحسن بيان، حيث قال: وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين:

- تعريفًا باللام.
- وتعريفًا بالإضافة.

وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له...، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله(٢).

وكذلك وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨].

إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه(٣).

والحاصل: أنه تعالى وحَد لفظ (صراطه) و(سبيله) وجمع (السبل) المخالفة؛ ووجه المناسبة في ذلك أنه لما كان الهدي شيئًا واحدًا غير متشعِب السبل ناسبه التوحيد؛ ولما كان الضلال له طرقٌ متشعبةٌ ناسب الجمع.

والمقصود: أن من الأسباب المانعة من الاجتماع اتباع السبل، وهي الطرق المختلفة في الدين، وأن السبيل الوحيد للنجاة من ذلك هو اتباع صراط الله الذي وصفه بالاستقامة، فلا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده، ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه، وهي كثيرة، فتتفرق بكم عن سبيله، بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها إلى الهلكة؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمام تارك النور إلا الظلمات.

---

(١) محاسن التأويل، ١/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القيم ص ١٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٥ بتصرف.

٣. التحزَب.

ومن معوقات الاجتماع: التحزب والتعصب.

قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣]

وقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣٢].

يعني: كان الناس أمة واحدة على دين واحد، وهو دين الإسلام، كما قال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون:٥٢].

والمعنى: وإنَ دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد، وهو الإسلام، وأنا ربكم، فاتقوني بامتثال أوامري، واجتناب زواجري، فتفرَق الأتباع في الدين إلى أحزاب وشيع، جعلوا دينهم أديانًا، بعدما أُمروا بالاجتماع، كل حزب معجب برأيه، زاعم أنه على الحق، وغيره على الباطل، وفي هذا تحذير من التحزب والتفرق في الدين.

ولهذا قال هنا: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والتقطع يقتضي التحزب، وقديمًا كان التحزب مسببًا لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق، والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه[1].

وجيء بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم بقولهم: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون:٥٢].

بل تقطعوا أمرهم بينهم سريعًا، فاتخذوا آلهة كثيرة، فصار دينهم متقطعًا قطعًا، لكل فريق صنم، وعبادة خاصة به.

والكلام مسوق مساق الذم؛ ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي: فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجبًا من حالهم، ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: وهم ليسوا بحال من يفرح[2].

والتفرق والتباين يُعد من العذاب الذي تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذي أصاب أهل الإسلام-، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] هذا عذاب للأمم يحل وحدتها، وينثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع، وإعجاب كل امرئ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣.

﴿فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] فعندئذٍ تنفك العرى، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق[1].

والحاصل: أن التحزب يؤدي إلى التعصب، وهو من أسباب عدم اجتماع الأمة، وتفرقها إلى جماعات وأحزاب، وكل طائفة وفرقة من هؤلاء تحدث بدعًا وأفكارًا، تفرح بها، وتظن أنها على الحق، وأن الصواب معها دون غيرها.

حتى يصير أمرهم بينهم كما قال الله: ﴿زُبُرًا﴾ والزبر: جمع زبرة، والزبرة قطعة من الحديد، وقد شبهت الجماعات المختلفة في نزاعها بزبر الحديد، من حيث إن كل واحدة شديدة في التمسك بما عندها؛ كأنها صلب الحديد، لا تترك رأيها، كما لا تتفرق زبر الحديد.

أي: اختلفوا متقطعين متنابزين غير مجتمعين في أمرهم، بحيث لا متسع للالتقاء فيما بينهم، يتحزبون في تفكيرهم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل جماعة متحزبة متعصبة لما عندها، فرحة به، وتحسب أنه الحق الذي لا ريب فيه، وهو الضلال المبين، وإن التحزب لفكرة يدفع إلى التعصب لها، والتعصب يعمي ويصم، وتقديم الجار والمجرور ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ لبيان أهميته عندهم[2].

٤ . البغي.

ومن معوقات الاجتماع: البغي، وقد اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيًا بينهم، وظلمًا وعدوانًا من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

فقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بغيًا: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، أو بسبب أنهم بغى بعضهم على بعض حدثت الفرقة بينهم.

فهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة؛ ولكنهم فعلوا ذلك للبغي، وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبعية على أن ذهب كل طائفة إلى

(١) زهرة التفاسير ٥/ ٢٥٣٧.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ١٠/ ٥٠٨٤ بتصرف.

مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه؛ طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل[1].

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: «والمقصود من هذه الجملة التعجب من أحوالهم؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وها هنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف؛ وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي»[2].

ومعنى الآيات: أي: لم يكن اختلاف هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل في كتاب الله الذي أنزله عن جهل منهم به، بل كان اختلافهم فيه، وخلافُ حكمه من بعد ما ثبتت حجته عليهم بغيًا بينهم، وطلبَ الرياسة من بعضهم على بعض، واستذلالًا من بعضهم لبعض[3].

وقال بعض العلماء: خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم العلم، فالمفترض أن يكونوا على علم، فإن تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف، وأولى بوصف الكفر، والإعراض عن دين الله تبارك وتعالى.

والحاصل: إن من أسباب التفرق وعدم الاجتماع البغي، والبغي: تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء، يقال: بغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه؛ ولهذا قال ها هنا في هذه الآيات: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتوحيد، فهم ما اختلفوا بسبب عدم الحجة أو البيان، وإنما ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسدًا وظلمًا وعدوانًا.

فقد بغى بعضهم على بعض، وظلم بعضهم بعضًا، وعلا بعضهم على بعض، وغار بعضهم من بعض، وحسد بعضهم بعضًا على ما أعطاهم الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

فطلبوا الدنيا بالدين، فضاع منهم دينهم، وضاعت منهم دنياهم وأخراهم.

ولولا بغيهم ونصرهم مذهبًا على مذهب، وتضليلهم من خالفهم؛ بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوى، وتأويل بعضه أو تحريفه؛ لما حدث هذا الاختلاف[4].

والعبرة من هذا القصص: أن نبتعد عن الخلاف في الدين، والتفرق فيه إلى شيع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٤٦٧ بتصرف.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨١ بتصرف.
(٤) تفسير المراغي ٣/ ١٢٠.

ومذاهب، كما فعل من قبلنا، ولكن وا أسفاه! وقعنا فيما وقع فيه السالفون، وتفرقنا طرائق قددًا، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئن منه، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته، ويمدنا بروح من عنده، فيسعى أهل الإيمان الصادق في نبذ الاختلاف والشقاق، والعودة إلى الوحدة والاتفاق، حتى يعود المسلمون إلى سيرتهم الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان.

٥. كيد الأعداء.

ومن الأسباب الصارفة عن الاجتماع: كيد الأعداء وتربصهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧].

فقوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يفرقون به جماعتهم؛ لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وجاءوا يخدعون النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ربما جاء السيلُ، فيقطع بيننا وبين الوادي، ويحول بيننا وبين القوم، ونصلي في مسجدنا، فإذا ذهب السيل صلينا معكم! وبنوه على النفاق[(١)].

والمنصوبات المتعاطفة هنا ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ هي مفعول لأجله، تكشف عن السبب الذي لأجله بني هذا المسجد، وهو للمضارة، لا للنفع، وللكفر لا للإيمان، ولإيواء من حارب الله ورسوله، لا لدعوة من آمن بالله ورسوله.

وليكون مأوى يأوي إليه المنافقون، ويدارون نفاقهم بالاجتماع فيه، والاستظلال بظله، ثم ليفرقوا بين المؤمنين، حيث لا تجتمع جماعتهم في مكان واحد، بل يتوزعهم المسجدان المتجاوران، فيقل بذلك جمعهم، وتصغر في الأعين جماعتهم، الأمر الذي يخالف ما يدعو إليه الإسلام من جمع المسلمين في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، لتتوحد مشاعرهم، وتمتلئ العيون مهابة، وإجلالًا لهم[(٢)].

والحاصل: أن هؤلاء المنافقين عملوا على التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون، وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، ومن ثم كان تكثير المساجد، وتفريق الجماعة منافيًا لأغراض الدين ومراميه، ومن الواجب أن يصلي المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فإن تفرقوا عمدًا كانوا آثمين.

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٦/ ٨٩٥.

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة.

فهؤلاء الأعداء سعوا جاهدين بمكر وكيد ليشقوا صف المؤمنين، ويفرقوا جماعتهم بهذه الخطة، وهذا الكيد العظيم، وهو بناء هذا المسجد، الذي من أعظم البواعث من بنائه هو تفريق المؤمنين.

ولذا قال تعالى في الباعث: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن ذلك التفريق هو إبعاد فريق من المؤمنين عن الجماعة التي يؤمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، يغرونهم بالتأثير فيهم، رجاء أن يقتطعوا من المؤمنين من يضمونهم إليهم؛ إذ بعدوا عن النور الكاشف لخداعهم، وإفسادهم، فيخلو لهم الجو ليخادعوهم، وينجح خدعهم.

والمقصود: أن من معوقات الاجتماع بين المؤمنين سعي الأعداء في التفريق بينهم، كما أراد هؤلاء المنافقين من بناء المسجد، وهو أن يفرقوا بين المؤمنين وبين رسول الله، حتى إذا جاءهم العدو وجدهم متفرقين، فيكون أيسر وأهون عليهم في الكسر عليهم، والظفر بهم من أن كانوا مجموعين.

وهكذا أعداء اليوم يعدون العدة، ويرسمون الخطط، ويعقدون اللقاءات والمؤتمرات والدراسات للتفريق بين المسلمين، وضرب بعضهم ببعض، ويمكرون ليل نهار في تقطيع أوصال هذه الأمة.

الاجتماع يوم القيامة

سمي يوم القيامة يوم الجمع لاجتماع الخلائق فيه في مكان واحد للحساب؛ فإن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين إلى عرصات القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذٍ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد؛ وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون(١).

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٧.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧].

وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩].

وقد بَيَّنَ تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة[1].

فيوم القيامة يوم الجمع، والعجيب أنه أيضًا يوم الافتراق.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم:١٤].

فهو يوم الجمع في أول ما يبعثون ويحشرون، ثم يفرق بينهم تفريقًا لا اجتماع بينهم أبدًا؛ قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

فهو يوم الجمع في حال ووقت، ويوم الافتراق في حال ووقت آخر، وبعض أهل التأويل يقولون: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، بعدما كانوا مجتمعين في الدنيا، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

فهذا تفرقهم على قول بعضهم، والوجه فيه ما ذُكر بدءًا[2].

والمقصود: أن أعظم الاجتماعات على الإطلاق اجتماع هذا اليوم، وهو المعاد الأعظم؛ ولهذا سمي يوم الجمع الذي لا أكبر منه جمعًا.

وسمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر[3].

وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد.

وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله[4].

وقيل: يجتمع فيه أهل السماوات وأهل

(١) أضواء البيان ٧/ ٤٦.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٢٥٧ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٠.

الأرض، أو يجمع بين الظالم والمظلوم[1].
وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته.
وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات، وعقاب أهل المعاصي[2]. وكلها أقوال صحيحة، تحتملها الآية.

١. يوم الجمع: جمع المخلوقات في أرض المحشر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

ومعنى الجمع لهذا اليوم: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة؛ مثل قوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، كقوله: في محفل من نواصي الناس مشهود، أي: كثير شاهدوه، ولو جعل اليوم مشهودًا في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه، فإن سائر الأيام كذلك[3].

ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدل على معنى الثبات، أي: ثابت، جمع الله الناس لأجل ذلك اليوم، فيدل على تمكن تعلق الجمع بالناس، وتمكن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتى لقب ذلك اليوم يوم الجمع في الآية السابقة...، وعطف جملة: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ على جملة ذلك يوم مجموع له الناس لزيادة التهويل لليوم بأنه يشهد، وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون؛ إذ ليس القصد إلى شاهدين معينين، والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنهم يشهدونه شهودًا خاصًا، وهو شهود الشيء المهول؛ إذ من المعلوم أن لا يقصد الإخبار عنه بمجرد كونه مرئيًا؛ لكن المراد: كونه مرئيًا رؤية خاصة، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقق، أي: مشهود بوقوعه، كما يقال: حق مشهود، أي: عليه شهود، لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشاهدين إياه لشهرته، كقولهم: لفلان مجلس مشهود[4].

فما أعظمه إذن من جمع! وما أكبره من حشر! حتى الملائكة التي تملأ السماء، والتي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك، والسماء التي بهذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودًا، والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء! فهل هذا يقرب شيئًا للتصور البشري عن عدد الملائكة؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن!

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٦.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٦١.

٢. الجمع بين المتخاصمين.

وأخبر الله تعالى أنه يجمع بين عباده المتخاصمين يوم القيامة، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه، ولا يظلم مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

أي: قل لهم: إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب، ثم يقضي بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وهنالك يُجزى كل عامل بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وستعلمون يومئذٍ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية(١).

فهذا الجمع يوم القيامة في صعيد واحد من أجل إقامة العدل الإلهي، ووضع الموازين القسط، كما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

ولهذا قال سبحانه ها هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من المبطل.

ففي أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليلتقي الحق بالباطل وجهًا لوجه؛ وليدعو أهل الحق إلى حقهم، ويعالج الدعاة دعوتهم، وفي أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك، ويصطرع الحق والباطل، وقد تقوم الشبهات أمام البراهين، وقد يغشى الباطل على الحق؛ ولكن ذلك كله إلى حين، ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين.

وهذا هو الاطمئنان إلى حكم الله وفصله، فالله لا بد حاكم وفاصل ومبين عن وجه الحق، وهو لا يترك الأمور مختلطة إلا إلى حين، ولا يجمع بين المحقين والمبطلين إلا ريثما يقوم الحق بدعوته، ويبذل طاقته، ويجرب تجربته، ثم يمضي الله أمره، ويفصل بفصله.

والله سبحانه هو الذي يعلم ويقدر متى يقول كلمة الفصل، فليس لأحد أن يحدد موعدها، ولا أن يستعجلها، فالله هو الذي يجمع، وهو الذي يفتح ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٢).

فإذا عجز الخلق عن أن يتبينوا من المحق ومن المبطل، ومن هم أهل الهدى؟ ومن هم أصحاب الضلال في هذه الخصومة

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٥.

في الله القائمة بين الخلق؟ إذ عجزوا عن أن يحكموا في هذه القضية في الدنيا فإن القضية ستحال إلى الآخرة، وسيفصل فيها أحكم الحاكمين، يوم يجمع الله الناس جميعًا، فهو الحكم العدل، الذي يحكم عن علم محيط بكل شيء؛ ولهذا جيء بصيغة المبالغة (فتاح).

فجملة ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته، وإحاطة العلم؛ وبذلك كان تذييلًا لجملة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المتضمنة حكمًا جزئيًا، فذيل بوصف كلي، وإنما أتبع ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ بـ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ للدلالة على أن حكمه عدل محض؛ لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز، واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب[(١)].

وقد كثرت الآيات في هذا المعنى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى:١٥].

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:١٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٣].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:٦٩].

٣. الجمع في المصير بين المتشابهين في الأعمال.

يأمر الله عز وجل يوم القيامة بجمع الكفار والظالمين وأزواجهم، ومن كان على شاكلتهم وأمثالهم وأشباههم من رجال ونساء، وآلهتهم التي كانوا يعبدونها، كما تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٤].

والحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد[(٢)]. فيأمر الله بجمع هؤلاء الأصناف الثلاثة في موقف الحساب، وهم:

- الظالمون.
- وأزواجهم.
- والأشياء التي كانوا يعبدونها من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٤٤.

والعلة ظاهرة في حشر الصنفين الأولين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ لكن لماذا تُحشر المعبودات من الملائكة، ومن آدمي رضي بذلك، ومن صنم ووثن، وغيرها؟ والجواب: زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم مع عدم نفعهم وعجزهم، وتوبيخًا لهم، وإظهارًا لسوء حالهم، ومن أجل أن يتبرأ من لم يرض منهم بذلك.

فالصنف الأول ممن يجمع ويحشر: الظالمون: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ظلم الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ولذلك كان الشرك أعظم أنواع الظلم، فظلموا الحق في النفس، وظلموا ما كان يجب ألا يظلموا أنفسهم فيه، فأنكروا خالقهم وقدرته وإرادته، وأنكروا كونه جل جلاله لا يحتاج إلى معين، ولا وزير ولا مساعد، ولا شريك له ولا ند، لا في ذات ولا في صفات ولا في أفعال.

قال الرازي: «ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله، وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر؛ وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]»(١).

والصنف الثاني: أزواجهم:

ومعناه: ونظراءهم وضرباءهم، تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وكذلك زوجان من الخفاف، أي: كل واحد نظير صاحبه؛ وكذلك الزوج المرأة، والزوج الرجل، وقد تناسبا بعقد النكاح، وكذلك قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص:٥٨](٢).

فالزوج: هو اسم لشكله، واسم لضده، اسم لهما جميعًا، يحتمل قوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشكالهم وقرناؤهم من الجن والإنس والشياطين، يأمر الملائكة أن تجمع بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا، ويجتمعون على ذلك؛ فعلى ذلك يجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف:٣٦](٣).

قال الرازي: «اختلفوا في المراد بأزواجهم، وفيه ثلاثة أقوال:

الأول: المراد بأزواجهم: أشباههم، أي:

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٠١.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥٥٥.

أحزابهم ونظراؤهم من الكفر، فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه، وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ [الواقعة:٧] أي: أشكالًا وأشباهًا.

الثاني: أنك تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وتقول: زوجان من الخف؛ لكون كل واحد منهما نظير الآخر، وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين؛ لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح، وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم؛ لكون كل واحد من سميه مثالًا للقسم الثاني في العدد الصحيح.

القول الثاني: في تفسير الأزواج أن المراد: قرناؤهم من الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠٢].

والقول الثالث: أن المراد: نساؤهم اللواتي على دينهم»[(١)].

إلا أن جمهور أهل العلم منهم: عمر وابن عباس رضي الله عنهم على أن المراد به: أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني وهكذا، وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن، وفي كلام العرب؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:١٢].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١] إلى غير ذلك من الآيات[(٢)].

والصنف الثالث مما يجمع: المعبودات.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

وفيه قولان:

الأول: المراد: ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت، ونظيره قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

قيل: المراد بالناس عباد الأوثان، والمراد بالحجارة: الأصنام التي هي أحجار منحوتة، فإن قيل: إن تلك الأحجار جمادات، فما الفائدة في حشرها إلى جهنم؟

أجيب: بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها؛ ولقائل أن يقول: هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣٠٩.

يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها؟ والأقرب أن يقال: إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام، بل يتركها على الجمادية، ثم يلقيها في جهنم؛ لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]. الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا، فلما قبلوا منهم ذلك الذين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين.

وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠].

والقول الأول أولى؛ لأن الشياطين عقلاء، وكلمة (ما) لا تليق بالعقلاء[1].

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى يجمع الذين كفروا بالله في الدنيا، وعصوه وأزواجهم وأشياعهم على ما كانوا عليه من الكفر بالله، وما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة.

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك، ومتابعوهم في الكفر، ومشايعوهم في تكذيب الرسل، وقرناؤهم من الشياطين، يحشر كل كافر مع شيطانه، كذلك يحشر أصحاب المعاصي مع بعضهم، فيجمع أهل الزنا معًا، وأهل الربا معًا، وأصحاب الخمر معًا، وهكذا.

قال صاحب الظلال: احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون، وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣].

فما أعجبها من هداية خير منها الضلال! وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم؛ وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم! وها هم أولاء قد هُدوا، هُدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا على استعداد للسؤال، وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال بريء!

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات:٢٥]؟! ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا، وأنتم هنا جميعًا؟! وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين؟! ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون! ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب[2].

ويدخل في (أزواجهم) قرناءهم وأشكالهم، ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير، وكذلك في هذه الطريقة من أعان صاحب معصية في معصيته، أو صاحب زلة على زلته كان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٢٨ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٦.

مشاركًا له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأزواج: الأمثال والأشباه والنظائر، أي: مأخوذ من المزاوجة والمشاكلة، تقول: وزاوج الرجل المرأة فأصبحت ندًا وشريكًا له في حياته، وكذلك هؤلاء في ظلمهم وفي كفرهم وفي شركهم، وانفرد الحسن البصري، فقال: أزواجهم نساؤهم، وزوجاتهم المشركات اللاتي متن على الشرك؛ ليزداد عذاب البعض بالبعض، وعلى كل فلا حاجة لهذا التفسير، سواء كانت زوجة أو غير زوجة، فإن كانت مشركة فهي من أمثاله، وهي من أشكاله، اجتمعت به أو لم تجتمع، فهم سيحشرون في مكان واحد، ويفصلون عن المسلمين.

ويدخل في ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢] إبليس وشيطان وحيوان، وجمادات؛ لتكون حجة الله البالغة عليهم، فهؤلاء الذين كنتم تعبدون سيتبرؤون منكم ومن عبادتكم، فإن كانوا يعبدون الملائكة أو رسلًا أو صالحين، فإنهم أيضًا يقفون معهم.

وكما قال الله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

فيحشرون معهم للبراءة منهم، فالصالحون لا يحشرون معهم إلى النار، ولكن يقفون معهم، ليتبرؤوا منهم؛ وليدركوا إذ ذاك -ولات حين إيمان- أنهم عاشوا على ضلال، عاشوا على باطل، ولكن اعترافهم فاته الزمن، وفاته الوقت، وكما يقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، لقد قطعوا بالوفاة وبالموت، وبعد أن يحشروا ويكبلوا في السلاسل يقول الله لملائكته: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣] إلى الطريق البين الواضح الذي يوصل إلى جهنم، وقد تكون جهنم بعيدة عليهم، فتأتي الملائكة تحشرهم وتسحبهم زحفًا على وجوههم إلى أن يدخلوا النار، وبئس المصير.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات:٢٢].

يقتضي حضورهم معهم في المحشر، وآية الأنعام فيها سؤالهم عن شركائهم ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام:٢٢]؟

والجواب: هم حاضرون بالفعل، محشورون معهم مصداقًا للآية التي في سورة الصافات.

لكن المقصود هنا بتقدير مضاف، فقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ يعني: أين نفع شركائكم؟

وأين شفاعة شركائكم؟!

فهم بمنزلة الغُيَب؛ لأن الحاضر الذي لا نفع ولا فائدة من حضوره هو مثل الغائب، ومثل الميت، ومثل المعدوم؛ لأنهم عدموا ما رجوا منهم من الشفاعة.

فالمقصود هو التوبيخ والتقريع، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه ميؤوس منه، وثمرة هذا أنهم يعلمون في الدنيا أنه تقوم عليهم الحجة، فيعملون عقولهم ليستحضروا ما هم عليه من الضلال، وأن هؤلاء الذين يرجون شفاعتهم سوف ييئسونهم ويخذلونهم؛ وذلك تنبيه لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة[1].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ من الهدى العام، أي: دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الجحيم، أي :طريق النار ليسلكوها إليها، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ راجع إلى الثلاثة: الذين ظلموا، وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله.

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر، ونظير ذلك في القرآن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٤].

ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١][2].

موضوعات ذات صلة:

الاختلاف، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٥٠/ ١٥.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣١٠.





عناصر الموضوع

مفهوم الأجل	٣٨٢
الأجل في الاستعمال القرآني	٣٨٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٤
حقيقة الأجال	٣٨٦
أجل الإنسان	٣٩٤
أجل الأمم	٣٩٩
أجل الكون	٤٠٣
الأجل في العبادات والمعاملات	٤٠٧
الأجل في الآخرة	٤١٥



مفهوم الأجل

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (أ ج ل) تدل على خمس معانٍ مختلفة، كل واحدةٍ أصلٌ في نفسها[1].

وأما (الأَجَل): فغاية الوقت، سواء في الموت، أو الدين، وغير ذلك[2].

ويقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان: أجل، فيقال: دنا أجله، عبارة عن دنو الموت[3].

واسْتَأْجَلْتُه فَأَجَلَنِي، جعلني إلى مدةٍ[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يطلق الأجل في الاصطلاح على الوقت الذي ينتهي عنده الأجل[5].

ويطلق على مدة الحياة كلها[6].

فالأجل: الوقت الذي قدر الله تعالى فيه انقضاء الأشياء الكونية والشرعية، أو الموعد الذي حدده غاية لمعاملاتهم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٤.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٦/ ١٧٨، تهذيب اللغة، الأزهري، ١١/ ١٣٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصبهاني، ص ٦٥.
(٤) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٦٢١.
(٥) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الجمل، ١/ ٥٨.
(٦) الكليات، الكفوي ١/ ٤٩.

الأجل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أجل) في القرآن (٥٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٥٥) مرة[1].

والصيغ التي وردت بها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ [المرسلات:١٢]
اسم المفعول	١	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥]
الاسم المفرد	٥١	﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت:٥]
الاسم المثنى	١	﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص:٢٨]

وجاء الأجل في الاستعمال القرآني بالمعنى اللغوي، وهو: المدة المضروبة للشيء؛ سواء أكانت مضروبة لحياة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس:٤٩].

أو لعدة المرأة كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢]. أو غير ذلك[2].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٤-١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص٢٥-٢٦.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/١٠٨-١٠٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/٦٧-٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العمر:

العمر لغةً:

أصل مادة (ع م ر) تدل على معنيين:

أحدهما: بقاءٌ وامتداد زمانٍ.

والآخر: شيءٌ يعلو، من صوتٍ أو غيره.

فالأول العُمُر، وهو الحياة، وهو العَمْر أيضًا[(١)].

العمر اصطلاحًا:

اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، والتعمير: إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء[(٢)].

الصلة بين الأجل والعمر:

فرق العسكري بينهما بقوله: الأجل: هو آخر مدة العمر المضروبة في علمه تعالى، فهو لا يتبدل، والعمر: هو ما يتبدل ويحتمل الزيادة والنقصان»[(٣)].

٢ الوقت:

الوقت لغةً:

وقت: قال الليث: الوقت: مقدارٌ من الزمان. وكل شيءٍ قدرت له حينًا فهو موقت، وكذلك ما قدرت غايته فهو موقت. والميقات: مصدر الوقت... ويقال: وقتٌ موقوتٌ وموقت[(٤)].

الوقت اصطلاحًا:

المقدار المحدود من الزمن[(٥)].

الصلة بين الأجل والوقت:

وبالنظر في تعريف الوقت وتعريف الأجل نجد أن بينهما خصوصًا وعمومًا مطلقًا، فكل

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١٤٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ٢٤٧.
(٣) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١٨.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ١٨٩.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٣٤٠.



وقتٍ أجلٌ على اعتبار أن الوقت هو: نهاية الزمان المفروض للعمل[١].

وهذا هو الأجل كما رأينا سابقًا -، وليس العكس فليس كل أجل وقتٌ على اعتبار أن الوقت هو: المقدار من الدهر[٢].

٣ المدة:

المدة لغةً:

مددت الشيء فامتد والمادة الزيادة المتصلة، ومد الله في عمره. ومده في غيه، أي أمهله وطول له... ورجلٌ مديد القامة، أي: طويل القامة، ومدةٌ من الزمان: برهة منه[٣].

المدة اصطلاحًا:

هي حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها مع تلاصق أجزائها وتعاقب أبعاضها[٤].

الصلة بين الأجل والمدة:

أما الفرق بينهما فالأجل في الأصل موضوع للمدة المضروبة للشيء.

قال الله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر:٦٧]. في المدة المضروبة لحياة الإنسان[٥].

وعليه فالأجل نهاية المدة المعلومة.

---

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ٩٤٥.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الصحاح، الجوهري، ٢/ ٥٣٧.
(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ٨٧٤.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزابادي، ٢/ ١٠٨.

حقيقة الآجال

ارتبطت الآجال التي قدرها الله تعالى ارتباطًا وثيقًا بقدر الله في هذا الكون، فبعضها قد استأثر الله بعلمه وبعضها قد عرفه لخلقه وبعضها قد وضعه البشر مواقيت بينهم، وكل ذلك بحكمة الله وعلمه وتقديره وأسرار حكمته وتشريعه.

أولًا: العلم بالآجال:

ظهر لنا من التعريف القرآني للأجل أن الأجل إما أن يكون كونيًا أو شرعيًا مقدرًا من الله تعالى، أو أن يكون أجلًا مضروبًا بين الناس بعضهم بعضًا، وعليه فإن العلم بالأجل فرعٌ عن هذه الأقسام على النحو الآتي:

١ . آجال اختص الله بعلمها.

وهي الآجال التي قدرها الله تعالى في هذا الكون والحياة الدنيا والآخرة من الخلق والتكوين والعمر والموت والعذاب والإهلاك والبعث والقيامة ومقادير السماوات والأرض والأفلاك.

قال تعالى في بيان استئثاره بعلم أجل الخلق والموت والنشور ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢].

ومعنى قوله ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤][1].

وقال جل ثناؤه في تقدير وقوع الهلاك على الأمم المستحقة له: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣﴾ [العنكبوت: ٥٣].

«يقول تعالى ذكره: ويستعجلك يا محمد هؤلاء القائلون من قومك: لولا أنزل عليه آية من ربه بالعذاب، ويقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولولا أجل سميته لهم فلا أهلكهم حتى يستوفوه ويبلغوه، لجاءهم العذاب عاجلًا.

وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وليأتينهم العذاب فجأة، وهم لا يشعرون بوقت مجيئه قبل مجيئه»[2].

أما أجل الحياة وانقضاؤها بالموت ففيه آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٤.

﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

«يعني تعالى ذكره: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾، يثيركم ويوقظكم من منامكم ﴿فِيهِ﴾ يعني: في النهار، و(الهاء) التي في ﴿فِيهِ﴾ راجعة على ﴿النَّهَارِ﴾ ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يقول: ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته»[1].

وقد كتب الله لهذه الدنيا أجلًا وختامًا هو وقت البعث والنشور لا يعلم وقته إلا هو.

قال جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٣-١٠٤].

أي: ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناسٍ معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة. ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدةٍ مؤقتةٍ لا يزاد عليها ولا ينتقص منها[2].

وبين سبحانه أنه خلق الأفلاك وقدر سيرها وانقضاء أجلها بعلمه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم[3] [4].

ومما استأثر الله بعلمه من آجال الخلق والتكوين أيضًا مدة مكث الجنين في رحم أمه، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

والأجل: الأمد المجعول لإتمام عملٍ ما، والمراد هنا: مدة الحمل... ولكل مولودٍ مدةٌ معينةٌ عند الله لبقائه في رحم أمه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهرٍ وتسعة أيامٍ، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدة لعارضٍ، وكلٌّ معينٌ في علم الله تعالى[5].

مراتب الغيب: إن لعلم الغيب مراتب، أعلاها: ما اختص بعلمه الله وحده، ومن الغيب ما أطلع عليه ملائكته، ولكنه غيبٌ بالنسبة لبقية الملائكة وللبشر عمومًا، فهذا غيب نسبي.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا في تفسيره، لقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. حيث بين علة

(١) المصدر السابق، ١١/ ٤٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٠٠.

(٣) تكوير الشمس: ذهاب ضوئها، وانكدار النجوم: انتثارها وذهاب نورها. انظر: التفسير الميسر، نخبة من المفسرين، ص ٥٨٦.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٣٢٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٠٠.

تقييد الأجل المسمى الثاني بـ(عنده) فقال: أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

فالأجل الأول هو أجل كل عبدٍ؛ الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ فإن وقت الساعة لا يعلمه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

بخلاف ما إذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إذ لم يقيد بأنه مسمّى عنده فقد يعرفه العباد، وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله وشقيٌّ أو سعيدٌ، كما قال في الصحيحين عن ابن مسعودٍ قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلماتٍ فيقال: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح)[(١)].

فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو[(٢)].

٢. آجالٌ شرعها الله لبعض معاملات البشر.

وهي بطبيعة الحال آجالٌ عرفها الله عباده ليتعبدوه بالتزامها واتباعها فهي معلومة مرقومة جعلها الله آجالًا لبعض العبادات والمعاملات كعدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها وكتابة الدين ووقت نحر الهدي.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣﴾ [الحج: ٣٣].

والأجل المسمى هو وقت نحرها، وهو يومٌ من أيام منًى. وهي الأيام المعدودات[(٣)].

٣. ما ضربه الناس بينهم من آجال باختيارهم.

وهو معلوم أيضًا بطبيعة الحال كسابقه، ولكنه يخالفه في أن القسم الثاني أجلٌ شرعيٌّ مقدرٌ من عند الله وهذا أجلٌ وضعه البشر فيما بينهم وقد ورد عليه مثال واحدٌ في كتاب الله تعالى وهو الأجل الذي جعله أبو المرأتين اللتين سقا لهما نبي الله موسى عليه السلام على موسى.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الحق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ٤/ ١١١.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٤/ ٤٨٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٥٨.



﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٨﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيرًا عندي، ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثماني سنين، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالًا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه... فـ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام - مجيبًا له فيما طلبه منه -: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه[1].

فهذا عقدٌ بين أبي المرأتين وموسى عليه السلام بأن يكون مهر تزويج موسى لابنته عملًا، وليس الأجل المضروب هنا أجلًا شرعيًا؛ كونه اندرج في معاملة شرعية، وهي مهر الزواج فالمهر هو العمل وليس الأجل ولم يرد في شرع الله تأقيتٌ لأي عملٍ يكون مهرًا، فالتأقيت هنا عقدٌ بشري والدليل على ذلك أن الرجل خير موسى بين أجلين.

ثانيًا: الأجل بين المحو والإثبات:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد:٣٨-٣٩].

لكل أجلٍ كتابٌ، يقول: لكل أمرٍ قضاه الله كتابٌ قد كتبه فيه، وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديره أي: لكل كتابٍ أجلٌ ومدةٌ أي: الكتب المنزلة لكل واحدٍ منها وقتٌ ينزل فيه[2].

لم يقع الخلاف بين السلف في معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ إلا على قولين متقاربين كما رأيت أعلاه، ولكن الخلاف الكبير وقع بينهم في معنى المحو والإثبات في الآية التي تليها والمتصلة بها اتصالًا وثيقًا.

قال تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

وسأسوق باختصار أقوالهم قبل أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦١٤.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٦.

أحاول الوقوف على أرجحها وأكثرها ارتباطًا بالنص القرآني:

سعيد بن جبيرٍ وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه.

ابن عباسٍ: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة.

عمر وابن مسعود: يمحو السعادة والشقاوة أيضًا، ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء.

الضحاك والكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيءٍ ليس فيه ثوابٌ ولا عقابٌ.

عطية عن ابن عباسٍ: هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالةٍ، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعة الله عز وجل، فهو الذي يثبت.

الحسن: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من جاء أجله يذهب به، ويثبت من لم يجئ أجله إلى يوم أجله.

سعيد بن جبيرٍ: يمحوا الله ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها.

السدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: القمر، ويثبت يعني الشمس، بيانه قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم، فمن أراد موته محاه فأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢](١).

ويمكن إجمال هذه الأقوال في اتجاهات خمسة هي:

١. أن الآية تتحدث عن القدر الذي كتبه الله تعالى سواء في اللوح المحفوظ أو كتبته الملائكة في الصحف.
٢. أن الآية تتحدث عن الشرائع السماوية نسخًا وإثباتًا.
٣. أن الآية تتحدث عن كتابة الحسنات والسيئات على الأعمال.
٤. أن الآية تتحدث عما نفذ من قضاء الله تعالى وما لم يزل مؤجلًا في الأزل.
٥. أن الآية تتحدث عن أحداث كونية لبعض مخلوقات الله كالأفلاك والروح.

ولكي نحاول ترجيح أولى الأقوال بمعنى الآية فإننا ينبغي أن نقف على سياق الآية، فإن السياق من المقيدات والمحددات كما هو معلوم عند أهل التفسير، فهذه الآيات تتحدث عن رجوع الأمر إلى الله في كل

(١) المصدر السابق.

شأن، حتى في شأن أوليائه الأنبياء وشأن المعجزات التي يأتون بها تأييدًا لدعوة الله، فحتى هذا النبي الذي إنما يأتي بالمعجزات نصرة لدين الله وتأييدًا له، لا يمكن أن يأتي بهذه الآية إلا بإذن الله تعالى وتقديره.

يقول ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

أي: لم يكن يأتي قومه بخارقٍ إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدةٍ مضروبةٍ، كتابٌ مكتوبٌ بها، وكل شيءٍ عنده بمقدارٍ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠][1].

إذًا فأرجح الأقوال في تفسير المحو والإثبات هو القول الأول المتعلق بما قدره الله تعالى وكتبه على عباده، ولكن ما معنى المحو والإثبات هنا؟ وهل يتغير قدر الله كما يظهر من لفظ الآية؟

لن نخوض في أقوال العلماء في هذه المسألة التي خاضوا فيها كثيرًا، وهي من مسائل العقيدة في مبحث القضاء والقدر ولكننا نختار ألصق الأقوال بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة فقال:

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**)[2].

وقد قال بعض الناس: إن المراد به: البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان، فيقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضًا مقدرةٌ مكتوبةٌ وتتناول لجميع الأشياء، والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب.

ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: (**أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته، فأراه إياهم فرأى فيهم رجلًا له بصيصٌ فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود، قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنةً، قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنةٍ، قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنةً، فكتب عليه كتابٌ، وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنةً، قالوا: وهبتها لابنك داود، فأنكر ذلك**

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم ٢٠٦٧، ٣/ ٥٦.

فأخرجوا الكتاب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته)**(١).

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنةً ثم جعله مائةً.

وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيًا، فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت(٢).

والله سبحانه عالمٌ بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات(٣).

وقد ساق الألوسي شواهد كثيرة على تحقق وقوع المحو والإثبات في قضاء الله عز وجل، نذكر بعضها هنا من كلامه:

«ورأيت في نسخة لبعض الأفاضل كانت عندي وفُقِدَت في حادثة بغداد، ألفت في هذه المسألة، وفيها أنه ما من شيء إلا ويمكن تغييره وتبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور:

١. منها: أنه قد صح من دعائه صلى الله عليه وسلم في القنوت: **(وقني شر ما قضيت)**(٤)، وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأولي، ولو لم يمكن تغييره ما صح طلب الحفظ منه.

٢. ومنها: ما صح في حديث التراويح من عذره صلى الله عليه وسلم عن الخروج إليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه لمزيد رغبتهم فيها بقوله: **(خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها)**(٥)، فإنه لا معنى لهذه الخشية لو كان القضاء الأزلي لا يقبل التغيير، فإنه إن كان قد سبق القضاء بأنها ستفرض فلا بد أن تفرض، وإن سبق القضاء بأنها لا تفرض فمحال أن تفرض على ذلك الفرض، على أنه قد جاء في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج بعد ما هو

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم ٣٠٧٦، ٥/ ٢٦٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الدولابي في الكنى والأسماء، رقم ٨٧٢، ٢/ ٤٨١.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٤/ ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، جزء من رقم ١٤٢٥، ٢/ ٥٦٣.
قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب قيام شهر رمضان، جزء من رقم ١٣٧٣، ٢/ ٥٢٤.
قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ظاهر في سبق القضاء بأنها خمس صلوات مفروضة لا غير، فما معنى الخشية بعد العلم بذلك لولا العلم بإمكان التغيير والتبديل.

٣. ومنها: ما صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يضطرب حاله الشريف ليلة الهواء الشديد حتى أنه لا ينام، وكان يقول في ذلك: (أخشى أن تقوم الساعة)، فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضًا مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يوجد إذ ذاك؛ كظهور المهدي، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك مما يستدعي تحققه زمانًا طويلًا، فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أن القضاء يمكن تغييره، وأن ما قضي من أشراطها يمكن تبديله، ما خشي صلى الله عليه وسلم من ذلك.

٤. ومنها: أن المبشرين بالجنة كانوا من أشد الناس خوفًا من النار، حتى أن منهم من كان يقول: «ليت أمي لم تلدني»، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: «لو نادى منادٍ: كل الناس في الجنة إلا واحدًا، لظننت أني ذلك الواحد»، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيره له بالجنة، والعلم بأن القضاء لا يتغير.

٥. ومنها: أنه لولا إمكان التغيير لَلَغِيَ الدعاء؛ إذ المدعو به إما أن يكون قد سبق القضاء بكونه، فلا بد أن يكون، وإلا فمحال أن يكون، وطلب ما لا بد أن يكون، أو محال أن يكون، لغوٌ مع أنه قد ورد الأمر به، والقول بأنه لمجرد إظهار العبودية والافتقار إلى الله تعالى وكفى بذلك فائدة، يأباه ظاهر قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

٦. وأيضًا: أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر»[(١)] [(٢)].

ثالثًا: أسرار إخفاء الآجال:

كما ذكرنا سابقًا فإن من الأجل ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما يعلمه البشر فما هي الأسرار والحكم التي تكون وراء إخفاء هذه الآجال عن البشر؟

لقد أخفى الله تعالى الآجال المرتبطة بحياة الإنسان؛ من انقضاء عمرٍ، وحلول عذابٍ، ويوم بعثٍ ونشورٍ، وإنما كان هذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم ١٨١٣، ١/ ٦٦٩.
حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٧٧٣٩، ٢/ ١٢٧٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٦١ - ١٦٢.

لحكمٍ كثيرة، لعل من أهمها فتح باب الاجتهاد والعمل، وإغلاق باب التفريط والتسويف وطول الأمل، فإن العبد الذي لا يدري متى ينقضي عمره وينتهي أجله، يبقى في ترقبٍ دائم، وتوقعٍ مستمرٍ لمفارقة هذه الدنيا، وبالتالي فإن صاحب كل ذي عقلٍ ينبغي أن يستعد ليوم الحساب، ويتأهب ليوم الفراق الذي لا يعرف متى وقوعه، فهذا يحمله على دوام التأهب، والحرص على ألا يغادر إلا وهو على عمل خير وخاتمة رشد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

قال ابن عاشور: «وهذا المركب مستعملٌ في غير معناه؛ لأنه مستعملٌ في النهي عن مفارقة الدين بالإسلام مدة الحياة، وهو مجازٌ تمثيليٌّ علاقته اللزوم، لما شاع بين الناس من أن ساعة الموت أمرٌ غير معلومٍ كما قال الصديق[(١)]:

كل امرئٍ مصبحٌ في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

فالنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة»[(٢)].

(١) البيت ينسب إلى حكيم النهشلي، كان يرتجز به وهو يقاتل.
انظر: نهاية الأرب، النويري، ١٥/ ٣٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٣١.

أجل الإنسان

الإنسان هو المخلوق الذي كرمه الله تعالى في هذا الكون، وشرفه بعبادته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، واتصاله بذلك بوحي السماء، ولذا كان لهذا الإنسان النصيب الأعظم في كتاب الله تعالى؛ هدايةً وعنايةً وتربيةً وبيانًا وإرشادًا، وقد حظيت مراحل خلق هذا الإنسان وحياته بالبيان القرآني، بدءًا بإيجاده من عالم الذر، ومرورًا بخلقه في بطن أمه وخروجه، وحياته على وجه هذه الأرض، وليس انتهاءً بموته وإقباره، بل خروجه ونشوره يوم البعث.

وسيتناول هذا المبحث ما قدره الله تعالى من آجال الإنسان منذ تكوينه في بطن أمه حتى مفارقته هذه الدنيا.

أولًا: أجل الخلق والتكوين:

يقول الله تعالى في معرض الحث على التفكر في مخلوقاته من الإنسان والسماوات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني به: النظر

والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدًى ولا باطلًا، بل بالحق، وأنها مؤجلةٌ إلى أجلٍ مسمى وهو يوم القيامة[1].

وقد بين الله تعالى أن أجل هذا الإنسان مكتوب معلوم قبل أن يخرج هذا الإنسان للحياة.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلًا، وآخرون قبل الأشد، وآخرون قبل الشيخوخة، وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي: هذه الأصناف كلها مخلوقة ميسرة ليبلغ كل واحد منها أجلًا مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه[2].

ثانيًا: أجل وضع الجنين:

قدر الله تعالى وقتًا معلومًا مقدرًا لكل نسمة تنشأ من نطف ابن آدم وتستقر في الأرحام، فهي تمر في خلقها وتقديرها هذا في أطوارٍ كَتَبَها الله تعالى، وقدر لكل نطفة ما شاء من هذه الأطوار نقصًا أو تمامًا، وكل ذلك مؤجلٌ معلوم عند الخالق البارئ البديع.

يقول تعالى ذاكرًا هذه الأطوار وقدره سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلاكم، استعظامًا منكم لذلك، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم عليه السلام من تراب، ثم إنشاءنا لكم من نطفة آدم، ثم تصريفنا لكم أحوالًا، حالًا بعد حال، من نطفة إلى علقة، ثم من علقة إلى مضغة، لكم معتبرًا ومتعظًا تعتبرون به... المخلقة المصورة خلقًا تامًا، وغير مخلقة: السقط قبل تمام خلقه... فمن كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية، فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها، فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٧٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٥٦٨.

من رحمها أذنا له بالخروج منها، فيخرج[1].

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المراحل لتكوين الجنين في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح)[2].

فهذه مراحل تكوين الجنين في رحم أمه، ولكن الأجل المذكور في هذا الحديث والذي يؤمر الملك بكتابته ليس هو أجل وضع الجنين نقصًا أو اكتمالًا في بطن أمه وإنما هو أجل عمر من قدر له الحياة.

ثالثًا: أجل حياة الإنسان:

حياة الإنسان مقدرة معلومة البداية والنهاية، فهي تقدير العزيز العليم، فهو سبحانه ما خلقنا عبثًا، بل لمهمة عظيمة هي عبادته وإقامة شريعته، وجعل هذه الدنيا دار اختبار ومرورٍ لدار الجزاء والقرار، فكان من حكمته سبحانه أن يجعل لكل إنسان أجلًا مقدرًا تتم فيه حياته، وينقضي فيه إعذاره.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ قال سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني: الآخرة».

وهكذا روي عن مجاهدٍ، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدي، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وقول الحسن في رواية عنه: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يُخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث». هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسانٍ، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها»[3].

ولما كانت مسألة الآجال وانتهاء الأعمار مما يخشاه البشر كثيرًا ويؤملون عدم ورودها، فقد أكد الله تعالى على حتميتها بحيث إن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، بل هو مكتوب من عند الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٦٧ ٥٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الحق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ٤/ ١١١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢١٤.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

جيء في هذا الحكم بصيغة الجحود للمبالغة في انتفاء أن يكون موتٌ قبل الأجل... ومثل هذه الحقائق تلقى في المقامات التي يقصد فيها مداواة النفوس من عاهاتٍ ذميمةٍ، وإلا فإن انتهاء الأجل منوطٌ بعلم الله لا يعلم أحدٌ وقته، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]... والمراد بـ(إذن الله): تقديره وقت الموت، ووضعه العلامات الدالة على بلوغ ذلك الوقت المقدر، وهو ما عبر عنه مرةً بـ(كن)، ومرةً بقدرٍ مقدورٍ، ومرةً بالقلم، ومرةً بالكتاب.

والكتاب في قوله: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ يجوز أن يكون اسمًا، بمعنى: الشيء المكتوب، فيكون[1].

وقال أيضًا: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑪﴾ [المنافقون: ١١].

جاءت هذه الآية تعقيبًا على أمنية العبد أن يؤخر الله أجله ولو شيئًا يسيرًا يبادر فيه إلى العمل الصالح، ولكن هيهات، فهذا أمر مقضي لا يتأخر، ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي: وبادروا إلى الإنفاق من بعض ما رزقناكم، في سبيل الخير العام... من قبل مجيء أسباب الموت ومشاهدة علاماته، فيقول الواحد منكم: هلا أمهلتني يا رب، وأخرت موتي إلى مدة أخرى قصيرة، فأتصدق بمالي، وأكن من الصالحين المستقيمين، وهذا دليل على أن كل مفرط أو مقصر في عمل الخير يندم عند الاحتضار...

وقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] مطالبةٌ بالعودة إلى الدنيا والإمهال، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ﴾ تعالى أي نفس عن الموت أو قبض الروح إذا حضر أجلها، وانقضى عمرها، والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها، بالخير خيرًا، وبالشر شرًا، وهذا حض على المبادرة لعمل الخير، ومسابقة الأجل بالعمل الصالح، إن الندم من أي إنسان على التفريط وطلب العودة إلى الدنيا لتدارك التقصير عما فاته، لا يفيد الإنسان شيئًا، فلات ساعة مندم، فقد تم القضاء، ونفذ الأمر، ولا أمل في النجاة إلا بالعمل الصالح. وهذا حض على المبادرة لعمل الخير، ومسابقة الأجل بالعمل الصالح[2].

رابعًا: الإعجاز العلمي وتحديد الآجال:

برز الإعجاز القرآني في كتاب الله تعالى بحديثٍ دقيقٍ عن مراحل تكوين الجنين في رحم أمه بحيث جاءت متطابقة تطابقًا تامًا مع ما اكتشفه العلم الحديث عبر كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١١٤.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٦٦٨.

وسائل التكنولوجيا المتطورة من تصوير وفحص جيني وكيميائي وغير ذلك، وقد مر بنا آية من كتاب الله ذكرت أطوار الجنين في رحم الأم، وبينت أن كل هذه الأطوار بدءًا وإتمامًا أو نقصًا وسقطًا إنما هي آجال أجلها وكتبها الله عز وجل بعلمه وحكمته، يقول الدكتور محمد علي البار: من خلال آيات القرآن نستطيع أن نحدد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي: (١) نطفة، (٢) علقة، (٣) مضغة مخلقة وغير مخلقة، (٤) عظام، (٥) لحم يكسو العظام، (٦) التسوية والتصوير (خلق آخر) والتعديل، (٧) نفخ الروح[(١)].

وقد اتضح هذا الإعجاز القرآني في العصر الحديث، وتجلت بكل وضوح مراحل وأطوار خلق الجنين، فإن ثمة علمٌ تاريخه حديثٌ، اسمه علم الأجنة، وهو علم تكون الجنين في رحم الأم، وقد تقدم هذا العلم في السنوات الأخيرة تقدمًا كبيرًا، حتى أصبح بإمكان الأطباء والعلماء أن يصوروا الجنين وهو في الرحم في مراحل نموه وتطوره، فهناك صورةٌ للجنين في الأسبوع الثالث، وصورةٌ في الأسبوع الرابع، وصورةٌ في الأسبوع الخامس، وصورةٌ في الأسبوع السادس، ويعنينا من كل هذه الصور صورةٌ للجنين في رحم الأم وهو في بداية الأسبوع السادس، ماذا نرى؟ نرى الأنف مختلطًا بالفم، متصلًا بالعين، نرى اليد كأنها مجدافٌ قصيرٌ، نرى الرأس ملتصقًا بالجذع، هذه صورة الجنين في بداية الأسبوع السادس، فإذا انتهى هذا الأسبوع ابتعد الرأس عن الجذع، وتوضحت معالم العينين، ومعالم الأنف، ومعالم الفم، وملامح اليدين، والرجلين، هذه الملامح هي ملامح نهاية الأسبوع السادس، والأسبوع سبعة أيام، فإذا ضربنا سبعةً بستةٍ، فالناتج هو: اثنان وأربعون (٤٢).

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها ملكًا، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص)**[(٢)(٣)].

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٣٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم ٢٦٤٥، ٤/ ٢٠٣٧.

(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، ١/ ٨٧.

أجل الأمم

جعل الله الناس شعوبًا وقبائل وأممًا ليتعارفوا وتكون بينهم الحياة الطيبة يعمرون هذه الأرض بعبادة الله وينشر الحق والخير، ولكن الشياطين اجتالتهم وحملت بعض الأمم على بعض فاستكبروا وعتو وسعوا بالباطل في هذه الأرض، ونسوا سنن الله في خلقه فجاءت آيات الكتاب العزيز كي تذكر الأمم بأن الله تعالى جعل لهم أعمارًا وآجالًا إليها ينتهون، وجعل لمن عتا منهم عقوبة بها يرتدعون.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رسل الله، ورد نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة ربهم حججه عليهم أجل.

«يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثلات بهم على شركهم، فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم ساعة من ساعات الزمان ولا يتقدمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك»[1].

أولًا: فناء الأمم.

ومما هو معلوم مكتوب في أم الكتاب، آجال الأمم والشعوب وما قد قدر لها من آثار على وجه هذه الأرض، فكم من أمةٍ اندرست واندثرت آثارها، وكم من شعوبٍ تتابع بعضها على ديار بعض، وكم من أمةٍ أبقاها الله دهرًا وأمدها، وهكذا.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك، لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه[2].

ثانيًا: هلاك الأمم.

وإن لم يكن اندثار الأمم بفنائها واندراسها مع مرور الزمان جاء فناؤها بهلاكها عقوبةً من عند الله تعالى على انحرافها وسيرها في طريق الشيطان.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحجر: ٤-٥].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق، ١٥/ ١٠٠.

يخبر تعالى أنه ما أهلك قريةً إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشادٌ لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك [1].

وقد تتتابع العقوبات على أمة ما قبل أن يحين هلاكها فلا يكون تتابعها أو شدتها مظنة لتعجيل هلاكهم، فإن أجل الهلاك لا يتقدم مهما زادت العقوبات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٦].

حين نزل العذاب الشديد وتواترت ألوان العقاب على فرعون وقومه الكافرين من الجراد والضفادع والدم وطوفان الماء وغيرها من الآيات التسع، حينئذ اضطرب قوم فرعون واشتد فزعهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، بسبب ما عهد الله عنده من النبوة والرسالة والكرامة والمحبة وصلة العهد مع الله من طاعة موسى ونعمه عليه، وأقسموا له: لئن كشفت عنا بدعائك ذلك العذاب، لنصدقن برسالتك، ونؤمنن بما جئت به من عند ربك، ولنرسلن معك بني إسرائيل إلى حيث تتوجه وتريد، ليتمكنوا من عبادة ربهم كما شاؤوا.

وهذا عهد من فرعون وملئه الذين بيدهم الحل والعقد، ولكن قوم فرعون لما كشف الله عنهم العذاب، وأزال عنهم العقاب مرة بعد مرة، مؤقتًا إلى أجل محدود، منتهون إليه حتمًا، فمعذبون فيه، وهو الغرق، إذا هم ينقضون العهد ويحنثون في كل مرة، ولم ينفعهم ما تقدم في حقهم من الإمهال.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ أي: غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، في الغرق المنتظر... ولما كشف الله العذاب (وهو الرجز) عن قوم فرعون من قبل مرات ومرات، ولم يقلعوا عن كفرهم وجهلهم، ثم حان الأجل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٥٢.

المؤقت لعذابهم، انتقم الله منهم، بأن أهلكهم بالغرق في البحر؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله التي نزلت عليهم كلها، وكانوا غافلين عنها وعما يتبعهم من العذاب في الدنيا والآخرة[1].

ثالثًا: استعجال العذاب لا يغير أجله.

يستعدي ابن آدم بجهله، ويستعجل وقوع العذاب بطيشه، ويسيء الظن بربه فيظن أن ربه لا يقدر عليه، فتدفعه رعونته إلى أن يطلب من الرسل أن ينزل الله بهم العذاب، ولكن الله تعالى برحمته الواسعة يمهلهم إلى أجلهم المكتوب لهم.

يقول سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، قال ابن عباسٍ: ما وعدتك أني لا أعذب قومك، ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقال الضحاك مدة أعمالهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب، وقيل: يوم بدرٍ، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ يعني: العذاب، وقيل: الأجل، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه[2].

ورحمة الله تعالى سابقة سابغة فهو لا يعاجل المستعجل بالعقوبة رحمة به ورأفة بعباده، وقد بين سبحانه سبب عدم معاجلة المستعجل بالعقوبة وحكمة تأجيل الآجال والعذاب.

يقول: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

وهذا إجمال ينبىء بأن الله جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجالٍ أرادها، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة، فالخيرات المفاضة على المخلوقات في هذا العالم كثيرةٌ، والشرور العارضة نادرةٌ ومعظمها مسببٌ عن أسبابٍ مجعولةٍ في نظام الكون وتصرفات أهله... فهذه الجملة معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] الآية.

فحيث ذكر عذابهم الذي هم آيلون إليه ناسب أن يبين لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتكشف شبهة غرورهم وليعلم الذين آمنوا حكمةً من حكم تصرف الله في هذا الكون.

فبينت هذه الآية أن الرفق جعله الله

---

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٧١٤ ٧١٥.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٥٦٤.

مستمرًا على عباده غير منقطع عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير؛ لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيفٌ بعباده، وفي ذلك منةٌ عظيمةٌ عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم[1].

ومن جهة موازية فإن الله تعالى يبين أن الآجال لا ترتبط بحجم ظلم البشر وطغيانهم وفسادهم وإفسادهم على هذه الأرض، وإلا لو كان ذلك كذلك ما بقي على وجهها أحد.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي: بشركهم ومعصيتهم، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لم يترك على ظهر الأرض من دابة، ودل الإضمار على الأرض؛ لأن الدواب إنما هي على الأرض، يقول: أنا قادر على ذلك. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم، ويقال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ لأنه لو أخذهم بذنوبهم لمنع المطر، وإذا منع المطر لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت، ولكن يؤخر العذاب إلى أجل مسمى.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم، لأصاب العذاب جميع الخلائق، حتى الجعلان في جحرها، ولأمسكت السماء عن الأمطار، ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو». ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجل العذاب ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ١٠٦.

(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٧٩٩.

أجل الكون

أبدع الله سبحانه وتعالى هذا الكون بعلمه وقدرته، وبدأه بأمره وإرادته، وقدر له أجلًا تكون فيه نهايته، وقضى فيه سننه ونواميسه وقوانينه التي بها يكون حفظه واستمراريته، وقد حظي هذا الكون بعناية خاصة في آيات كتاب الله تعالى توجيهًا للنظر فيه وتدبر إتقان صنعته لإدراك عظمة الباري وتمام حكمته، وقد برزت حكمة الله تعالى وتجلت في تلك الدقة المتناهية في هذه الصنعة المنسجمة على عظم حجمها وارتفاع سمائها وانبساط أرضها، فجعل لهذا الكون برمته قدرًا وأجلًا دقيقًا دقةً ما زال البشر يطلعون على جانب ضئيل منها ويكتشفون في كل يوم جديدًا عنها.

أولًا: أجل الأجرام السماوية:

أجل السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة[1].

وقد بين سبحانه هيمنته على هذه العوالم وتسخيرها إلى أجل مسمى حيث يقول: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]» والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاقٍ أو شاغلٍ بقهرٍ وتخويفٍ أو بتعليمٍ وسياسةٍ بدون عوضٍ، فمنه تسخير العبيدِ والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل، ومنه تسخير البقر للحلب، والغنم للجز. ويستعمل مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عملٍ عجيبٍ أو عظيمٍ من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلةٍ أو إلهامٍ تصريفًا يصيره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد في الصيف، وتسخير الشجر للأكل من ثماره حيث خلق مجردًا عن موانع تمنع من اجتنائه مثل الشوك الشديد.

وقد أطلق التسخير في السماوات والأرض والشمس والقمر مجازًا على جعلها خاضعةً للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغييرٍ، مع أن شأن عظمها أن لا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظامٍ محدودٍ منضبطٍ... والجري: المشي السريع استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض، تشبيهًا بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تقطع في خلال ذلك.

وزيادة قوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ للإشارة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٨١.

إلى أن لهذا النظام الشمسي أمدًا يعلمه الله، فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم، فهذا تذكيرٌ بوقت البعث.

فيجوز أن يكون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ ظرفًا لغوًا متعلقًا بفعل ﴿يَجْرِىٓ﴾، أي: ينتهي جريه، أي: سيره عند أجلٍ معينٍ عند الله لانتهاء سيرهما، ويجوز أن يكون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلقًا بفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾ أي: جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيًا عند أجلٍ مقدرٍ[1].

لطيفة لغوية:

ورد جري الأجرام السماوية متعديًا بحرف (اللام) ثلاث مرات في كتاب الله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] [فاطر: ١٣] [الزمر: ٥].

وورد مرة واحدة متعديًا بـ(إلى) وذلك في [لقمان: ٢٩].

وقد نحا كثير من اللغويين إلى تعاقب الحروف فقالوا: إن (اللام) بمعنى (إلى) والعكس.

ولكن هناك فرق تعبيري تصويري لطيف يشير إليه النيسابوري في تفسيره حيث يقول: وقوله هاهنا - أي: في موضع سورة لقمان-: ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله في فاطر والزمر ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥] [فاطر: ١٣] يؤول إلى معنًى واحد، وإن كان الطريق مغايرًا؛ لأن الأول معناه انتهاؤهما إلى وقت معلوم، وهو للشمس آخر السنة، وللقمر آخر الشهر...

والثاني: معناه: اختصاص الجري بإدراك أجل معلوم كما وصفنا. ووجه اختصاص هذا المقام بـ(إلى) وغيره بـ(اللام): أن هذه الآية صدرت بالتعجيب فناسب التطويل[2].

وقد وضح الشيخ الشعراوي هذا المعنى بقوله: وفي هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، وفي مواضع أخرى ورد بلفظ: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] بـ(اللام) بدلًا من (إلى)، وكذلك في سورتي فاطر والزمر.

ولكل من الحرفين معنى:

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [لقمان: ٢٩] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل.

إنما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣] أي: الوصول المباشر للأجل[3].

وكأن هذا الحرف (إلى) يدعو الإنسان إلى أن ينظر ويتفكر في سير هذه الأجرام الباهرة العظيمة؛ كي يدرس جريانها ومسارتها، ويقف على عظمة خالقها أكثر فأكثر.

(١) المصدر السابق، ٨/ ١٦٩، ٢١/ ١٨٦.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ٥/ ٤٣٠.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٧٤١.

ثانيًا: الإعجاز العلمي وتحديد أجل الكون:

مما لا ريب فيه أن هذا الكون قائمٌ على نظام دقيق بديع ينبئ عن خالق عليم حكيم، ومما بات معلومًا لدى العلماء تضمن هذا الكتاب العزيز إشارات بينة على حقائق كونية باهرة يكتشف العلم في كل يوم منها قدرًا يزيد اليقين بصدق هذا الكتاب الحكيم، وقد ذكر القرآن الكريم كما مر أعلاه أن الله تعالى جعل لهذا الكون بأجرامه وسمواته وأرضه قدرًا معلومًا وأجلًا محتومًا يسير في كنفه هذا الكون العظيم إلى أن يبلغ أجلًا مسمًى تنقضي عنده الدنيا بأجرامها.

وقد أشارت النظريات العلمية الحديثة التي تفسر نشوء الكون إلى هذه الحقيقة؛ إذ إن البراهين كلها تشير إلى أن هذا الكون كله في حركة تمدد دؤوب مستمرة، وقطعًا فإن هذا التمدد سيصل إلى نقطة يتلاشى عندها الكون، وتنبئ الأجهزة التي يستخدمها علماء الفلك بأن المجرات والنجوم والكواكب جميعًا في حركة دائبة، وأن هذه الحركة تؤدي إلى تمدد مستمر...

ومن هذه الحسابات، أن سرعة تمدد الجزء الذي تدركه حواسنا من هذا الكون هي ٢٣٥ مليون ميل في الدقيقة، وأن هذا التمدد قد نشط من ١٨ ألف مليون سنة من السنين التي نعرفها على الأرض، وأنه بدأ بانفجار هائل تعارف العلماء على تسميته: (بج بانج/ Big Bang)، وكل المجرات وما تضمنه من أجرام تتحرك في نظام وتوقيت رباني محكم، بما يؤكد التوزان المطلق الذي شاء الرحمن أن يكون في كل مخلوقاته، كبيرها وصغيرها، فهناك تجاذب بين الأجرام السماوية والأرض، كالتجاذب بين الأرض والأجسام الواقعة على سطحها، وهناك توازن بين قوى التجاذب بحيث لا تختل حركة الأجرام في دورانها في أفلاكها[(١)].

يقول الدكتور محمد دودح: عرض القرآن الكريم لأهوال نهاية العالم في صور بيانية تعكس الحقيقة بتلطف؛ والتي بالكاد أوشكت أن تدركها الفيزياء الفلكية اليوم، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧].

المعنى المتبادر: أن يفسح جو الأرض والمعهود بالزرقة حين يبدأ في التفسخ والتلاشي عن كتلة حمراء ضخمة ملتهبة تتأجج وتغطي معظم السماء، بدلا عن الشمس؛ أشبه في اللون والتضخم بوردة حمراء تتفتح، وفي الالتهاب والسيولة واللمعان والتموج بزيت الدهان وهو يتأجج على النار، ونطالع في التصورات العلمية

(١) القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية، ص٢٧.

المتوقعة لمصير الشمس؛ أنها ليست من الضخامة بحيث تنتهي إلى ما يسمى فيزيائيًا ثقب أسود Black Hole، أو إلى ما يسمى نجم نيوتروني Neutron Star؛ وإنما تنتفخ وتتحول إلى عملاق أحمر Red Giant من شدة الحرارة، يبلغ قطره من ١٥ إلى ٤٥ مرة مثل قطر الشمس حاليًا، ويعادل لمعانه حوالي مائة مرة أو أكثر مثل لمعان الشمس، ويبتلع في طريقه ما يجاوره، والحد الذي يحدد مصير النجم بعد انفجاره قيمته ١,٤ قدر كتلة الشمس (حد تشاندراسيخار)، يتحول النجم دونه لقزم أبيض؛ وهذا هو حال الشمس.

وفي المقابل يعرض القرآن الكريم لمشاهد تكمل الصورة؛ كإبادة الكواكب وجمع الشمس والقمر وانشقاق الجو لينفتح المشهد على عملاق أحمر يتنفخ من شدة الانفجار ويدفع بألسنة النار في كل صوب مثل وردة حمراء تتفتح أوراقها؛ وكزيت الدهان يتأجج ناثرًا قطرات حارقة، وتقترب الشمس فتطال الأرض وتصهر كل ما عليها، وتصبح عملاقًا أحمر ووردة حمراء في الأسفل.

وتنفجر الأرض وتطرح ما فيها من أثقال وتتخلى عن كل ما عليها؛ وتمحى كل مظاهر الحياة، ولا وجود حينئذ لبشر يشاهد فخلى الوصف من المشاهد؛ وفي الختام تنكمش الشمس وتطوى كلفافة وتكور لتصبح قزمًا أبيض White Dwarf ثم تموت، ويمنح السياق فسحة كبيرة لتصور المخيلة ما لم تصرح به الكلمات من مشاهد القدرة المفزعة؛ التي أحالت كل العالم خراب[١].

---

(١) مصير الشمس في ضوء القرآن، مقال للدكتور محمد دودح، نشر بتاريخ ١/ ٥/ ٢٠١٤م على موقع صوت القرآن: quran-m.com.

الأجل في العبادات والمعاملات

وكما جعل خالق هذا الكون لمخلوقاته أجلًا ينتهون إليه وقدرًا معلومًا يصيرون إليه، فقد جرت سنته هذه أيضًا في ما شرع وقدر لعباده فجعل شرائعه قائمة على آجال تنضبط بها أحوال الناس من عبادات ومعاملات بينهم، ولذا فإننا نجد هذه الآجال في الكتاب العزيز على نوعين: آجال في العبادات، وآجال في المعاملات.

ويعرف الفقهاء الأجل بأنه: المدة المستقبلة التي يضاف إليها أمرٌ من الأمور، سواءٌ كانت هذه الإضافة أجلًا للوفاء بالتزام، أو أجلًا لإنهاء التزام، وسواءٌ كانت هذه المدة مقررةً بالشرع، أو بالقضاء، أو بإرادة الملتزم فردًا أو أكثر.

وهذا التعريف يشمل:

أولًا: الأجل الشرعي، وهو المدة المستقبلة التي حددها المشرع الحكيم سببًا لحكم شرعي، كالعدة.

ثانيًا: الأجل القضائي: وهو المدة المستقبلة التي يحددها القضاء أجلًا لأمرٍ من الأمور كإحضار الخصم، أو البينة.

ثالثًا: الأجل الاتفاقي، وهو المدة المستقبلة التي يحددها الملتزم موعدًا للوفاء بالتزامه (أجل الإضافة)، أو لإنهاء تنفيذ هذا الالتزام (أجل التوقيت) سواءٌ كان ذلك فيما يتم من التصرفات بإرادةٍ منفردةٍ أو بإرادتين[1].[2]

والذي ورد في كتاب الله تعالى من هذه الآجال هو الأجل الشرعي ويكون في العبادات، والأجل الاتفاقي وهو في المعاملات.

أولًا: الأجل في العبادات:

تميزت العبادات في شريعة الإسلام بانضباطها بأوقات وأماكن وأحوال مخصوصة فالصلاة والزكاة والصوم والحج، أمهات العبادات هذه كلها ذوات أوقات بدء وانتهاء متناهية في الدقة والانضباط، وهذه العبادات وغيرها مما هو بين العبد وربه، ولكن هناك عبادات تكون في المعاملات بين الناس كالزواج والطلاق والوصية والميراث، وهذه معاملات شرع الله تعالى فيها أحكامًا تعبدية وضبطها بآجال معلومة كي لا يقع فيها الخطأ أو تعمد الضرر؛ إذ إن هذه الأمور مما يكون للنفس

(١) الإرادتان هما الإيجاب والقبول، وهذا من شأنه أن يرتب التزامًا في جانب كلٍ من الطرفين كالبيع والإجارة والمزارعة، أما الإرادة الواحدة فهو إيجاب الطرف الملتزم وحده كالوقف والوصية لغير معينٍ والضمان والهبة. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت، ٦/ ١٤٦.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢/ ٥.

فيها حظ الأثرة وحب جلب المنفعة ولو على حساب الآخرين، وهي مما يقع فيه الخلاف كثيرًا بين الناس، ولذا فإنك ترى أن القرآن الكريم اعتنى بشكل بين بضبط آجال أحوال انقضاء الحياة الزوجية سواء بالطلاق أو الوفاة، وكذلك ذكر أجل انقضاء المنفعة بالأنعام التي تهدى إلى الحرم حتى لا يتجاوز فيها الأنسان فيظلم الفقير.

١ . أجل المرأة المتوفى عنها زوجها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤].

يعني: شرعًا؛ فما وجد من متوفى عنها زوجها لم تتربص فليس ذلك من الشرع، فجرى الخبر على لفظه... والتربص: هو الانتظار، ومتعلقه ثلاثة أشياء: النكاح، والطيب والتنظف، والتصرف والخروج... والمقصود بهذه العدة براءة الرحم من ماء الزوج؛ فامتناع النكاح إنما هو لأجل الماء الواجب صيانته أولًا. وامتناع عقد النكاح إنما هو لاستحالة وجوده شرعًا على محل لا يفيد مقصوده فيه وهو الحل... وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: انقضت العدة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ هذا خطابٌ للأولياء، وبيان أن الحق في التزويج لهن.

﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من جائزٍ شرعًا، يريد من اختيار أعيان الأزواج، وتقدير الصداق دون مباشرة العقد؛ لأنه حقٌّ للأولياء[1].

٢ . أجل المطلقة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣١-٢٣٢].

وهاتان آيتان تجيئان في سياق الحديث عن الطلاق وأحكامه في سورة البقرة.

يقول الصابوني متحدثًا عن أجل المطلقة: يقول الله تعالى ما معناه: الأزواج المطلقات اللواتي طلقهن أزواجهن لسبب من الأسباب على هؤلاء انتظار مدة من

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٢٧٩ - ٢٨٤.

الزمن هي مدة (ثلاثة أطهار)، أو (ثلاث حيض)؛ لمعرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب، وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من الأجانب، إذا لم تنقض عدتهن، وكان الغرض من هذه الرجعة (الإصلاح) لا (الإضرار) ولهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن، مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أمر الله عز وجل [1].

ويأتي الأجل في الآية الأولى احترازًا عن فعل كان يفعله العرب في الجاهلية ويفعله كثير من الناس عمومًا وهو مضارة المرأة بجعلها معلقة لا زوجة ولا مطلقة فقد.

أخرج الطبري بسنده عن الحسن أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ قال: «كان الرجل يطلق المرأة ثم يراجعها ثم يطلقها ثم يراجعها، يضارها، فنهاهم الله عن ذلك» [2].

ولذا فقد أمر تعالى في الآية بأحد فعلين: إما الإمساك بإحسان، أو التسريح بإحسان.

أما الأجل في الآية الثانية فيأتي احترازًا عن فعل يكون من جهة أهل المطلقة عضلًا ومنعًا لها أن تعود إلى زوجها نكاية فيه لما حصل بينهم من سوء وطلاق آنفًا، وقد

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١/ ٣٢١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٨.

نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته رضي الله عنهما، فعن الحسن أن أخت معقل بن يسارٍ طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقلٌ، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] [3].

إشكال:

قال الشيخ الشنقيطي: ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] انقضاء عدتهن بالفعل، ولكنه بين في موضعٍ آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصةً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعةٌ إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروءٍ [4] في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فاتضح من تلك الآية أن معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، وأشرفن على بلوغ أجلها [5].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن)، رقم ٤٥٢٩، ٦/ ١٦.

(٤) قروء: جمع قرء بالفتح والضم، ويطلق في كلام العرب على الحيض وعلى الطهر فهو من الأضداد.
انظر: تفسير آيات الأحكام، الصابوني، ١/ ٣١٨.

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٤٩.

٣. أجل المطلقة الحامل.

يقول تعالى في عدة المطلقة ذات الحمل: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أجل الشيء الانتفاع بها على هذا القول، وأجله أيضًا آخر مدته، والمراد بالأجل هنا: آخر المدة التي تتربصها المرأة، أي: آخر عدتهن أن يضعن حملهن، وظاهر هذا أن المعتدة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواء أكانت معتدة عن طلاق أم عن وفاة[(١)].

وقد دل على أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هي وضع حملها: حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية، فعن عبد الله بن عتبة قال: أن سبيعة بنت الحارث أخبرته: (أنها كانت تحت سعد ابن خولة، وهو من بني عامر بن لؤيٍ، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حاملٌ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها[(٢)]، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعككٍ، رجلٌ من بني عبد الدار، فقال لها: ما لي أراك تجملت للخطاب، ترجين النكاح؟ فإنك والله ما أنت بناكحٍ حتى تمر عليك أربعة أشهرٍ وعشرٌ، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي)[(٣)].

وفي ختام ذكر هذه الآجال يؤكد القرآن الكريم على الالتزام بها والوقوف عندها حتى تستقيم أحوال العباد، ولا يتجرأ من يتجرأ على حدود الله وحرمات الناس وأعراضهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة: ٢٣٥].

إن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس، ٧٨٤.
(٢) تعلت من نفاسها: أي ارتفعت وطهرت. ويجوز أن يكون من قولهم: تعلى الرجل من علته إذا برأ: أي خرجت من نفاسها وسلمت. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٢٩٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٣٩٩١، ٥/ ٨٠.

كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه.. وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة. لأن هذا الحديث لم يحن موعده، ولأنه يجرح مشاعر، ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض -لا التصريح- بخطبة النساء، أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها... كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التي لا يصرح بها لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ لأن الله يعلم أن هذه الرغبة لا سلطان لإرادة البشر عليها، وقد أباحها الله لأنها تتعلق بميل فطري، حلال في أصله، مباح في ذاته، والملابسات وحدها هي التي تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه. والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها، ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها، ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور، وطهارة الضمير... ولم يقل: ولا تعقدوا النكاح، إنما قال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾، زيادة في التحرج، فالعزيمة التي تنشئ العقدة هي المنهي عنها، وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، توحي بمعنى في غاية اللطف والدقة، وهنا يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر. فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة هنا قيمتها في العلاقات بين رجل وامرأة، تلك العلاقات الشديدة الحساسية، العالقة بالقلوب، الغائرة في الضمائر.

وخشية الله، والحذر مما يحيك في الصدور أن يطلع عليه الله هي الضمانة الأخيرة، مع التشريع، لتنفيذ التشريع [١].

٤ . أجل الشعائر.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾ [الحج:٣٢-٣٣].

فضمير الغائب (ها) هنا في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ عائد على الشعائر وبحسب اختلاف أهل التفسير في معنى الشعائر اختلفوا في معنى الأجل المرتبط بها، وقد سرد الطبري أقوالهم وجمع بينها كما يلي:

القول الأول: عنى بالشعائر: البدن، واختلفوا في منافعها؛ فقال قومٌ: منافعها قبل تسميتها بدنة وقبل تقليدها أو إيجابها فتكون منافعها بشرب ألبانها وركوب ظهورها وأخذ نتاجها وأولادها، وعليه يكون الأجل المسمى هو وقت إيجابها بتسميتها بدنة أو هديًا فينقطع بذلك الانتفاع بها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

وقال آخرون: إن المنافع هنا بعد اتخاذ البدن هدايا وإيجابها، ويكون الانتفاع بها على هذا القول بركوب ظهورها عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الاضطرار؛ وعليه يكون الأجل المسمى في الآية هو نحرها.

القول الثاني: عنى بالشعائر: شعائر الحج، وهي الأماكن التي ينسك عندها لله، وهؤلاء أيضًا اختلفوا في المنافع؛ فقال قومٌ: التجارة عند هذه الشعائر والبيع والشراء والتسبب، وعليه يكون الأجل المسمى الخروج من هذه الأماكن إلى غيرها.

وقال آخرون: المنافع هنا: هي العمل لله بما أمر من مناسك الحج، وعليه يكون الأجل المسمى انقضاء أيام الحج التي ينسك لله فيها[(١)].

ثم قال الطبري بعد سرد هذه الأقوال: وقد دللنا قبل على أن قول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معني به: كل ما كان من عمل أو مكان جعله الله عَلَمًا لمناسك حج خلقه، إذ لم يخصص من ذلك جل ثناؤه شيئًا في خبر ولا عقل، وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بُدنًا وهَدْيًا، فمنافعها لكم من حين تملكون إلى أن أوجبتموها هدايا وبدنًا، وما كان منها أماكن ينسك لله عندها، فمنافعها التجارة لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها، وما كان منها أوقاتًا بأن يطاع الله فيها بعمل أعمال الحج ويطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن يطاف بالبيت في بعض، أو يوافي الحرم في بعض ويخرج عن الحرم في بعض[(٢)].

الأجل في المعاملات:

لا تستقيم معاملات الناس فيما بينهم إلا بوضوح أركانها وأطرافها وكمها وكيفها، فالنفس مفطورة على حب التملك، وإذا أطلق لها العنان في هذا التملك ظلمت غيرها وتعدت، ولذا فقد قضت حكمة الله تعالى أن يجعل بين الناس في معاملاتهم حدودًا وآجالًا تنضبط بها هذه المعاملات، وقد جاءت هذه الآجال في باب المعاملات عامة غير مقيدة بأوقات ومدد كتلك التي رأينا في باب العبادات؛ لأن المعاملات ترجع إلى ما يتعارفه الناس بينهم إلا ما حرمه الشارع الحكيم، فالأصل كما يقول الأصوليون في باب المعاملات الحل، إلا ما حرمه الشارع الحكيم، وقد ورد الحديث عن الأجل في باب المعاملات في موضعين،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٦٢٣-٦٢٥.

(٢) المصدر السابق، ١٨/ ٦٢٦.

أحدهما يرتبط ببيع السلم أو الأجل، والآخر في المعاملات المتعلقة بالشركات والإجارة والمضاربة ونحوها.

١. الأجل في البيوع الآجلة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وحقيقة الدين: عبارةٌ عن كل معاملةٍ كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر في الذمة نسيئةً، فإن العين عند العرب ما كان حاضرًا، والدين ما كان غائبًا.

قال الشاعر[١]:

وعدتنا بِدِرْهَمَيْنَا طِلاءً

وشِواءً معجلًا غير دين

وعلى هذا المعنى يدخل في هذه الآية كل بيع نسيئة مما يصح فيه الأجل؛ كبيع سلعة حاضرة بنقود مؤجلة، أو بسلعة أخرى مؤجلة، وكبيع سلعة مؤجلة، أي: إلى أجلٍ مسمًّى مع معرفة الجنس والنوع والقدر بثمن حال، وهو السلم[٢].

والأجل المسمى هو المضبوط المبين بالأيام أو الشهور أو بأي طريقة ترفع الجهالة عن وقت انقضاء هذا الأجل، فقد كان أهل المدينة إبان قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبايعون بأجل مجهول وبكيل مجهول أيضًا فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: (من أسلف في شيءٍ، ففي كيلٍ معلومٍ، ووزنٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ)[٣].

وقال ابن عمر: كان أهل الجاهلية يتبايعون لحم الجزور إلى حبل الحبلة. وحبل الحبلة: أن تنتج الناقة ثم تحمل التي نتجت. فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك[٤].

وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن السلم الجائز أن يسلم الرجل إلى صاحبه في طعامٍ معلومٍ موصوفٍ، من طعام أرضٍ عامةٍ لا يخطئ مثلها، بكيلٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ، بدنانير أو دراهم معلومةٍ، يدفع ممن ما أسلم فيه قبل أن يفترقا من

(١) البيت منسوب إلى شخص يدعى الأقيشر. انظر: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، ابن السري الكندي الرفاء، ص ١٥٢. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٧٣.

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم ٢٢٤٠، ٣/ ٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم إلى أن تنتج الناقة، رقم ٢٢٥٦، ٣/ ٨٧.

مقامهما الذي تبايعا فيه [١].

٢. الأجل في الشركات.

قال تعالى في قصة نبي الله موسى عليه السلام مع شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٦-٢٨].

هذه الآيات تتحدث عن جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة، وما يعنينا في بحثنا هذا عقد الإجارة وتحديدًا ضرب الأجل فيه، وقد عرف الفقهاء الإجارة بأنها عقد معاوضةٍ على تمليك منفعةٍ بعوضٍ [٢]، وبما أن الإجارة عقد معاوضة فإننا يمكن أن ندخل كل عقود المعاوضة في حكم الآية من حيث ثبوت الأجل فيها، وعقود المعاوضة هي: عقد البيع بأنواعه من المقايضة والسلم والصرف، وعقد الإجارة والاستصناع، والصلح والنكاح والخلع، والمضاربة والمزارعة والمساقاة والشركة ونحوها [٣].

وقد اتفق الفقهاء على صحة الأجل (فيما يقبل التأجيل) إذا كان الأجل معلومًا، فأما كيفية العلم به فإنه يحتاج فيها إلى أن يعلم بزمانٍ بعينه لا يختلف من شخصٍ إلى شخصٍ ومن جماعةٍ إلى جماعةٍ، وذلك إنما يكون إذا كان محددًا باليوم والشهر والسنة... وإنما اتفقوا؛ لأن جهالة الأجل تفضي إلى المنازعة في التسلم والتسليم، فهذا يطالبه في قريب المدة، وذاك في بعيدها، وكل ما يفضي إلى المنازعة يجب إغلاق بابه، ولأنه. سيؤدي إلى عدم الوفاء بالعقود، وقد أمرنا بالوفاء بها [٤].

[انظر: الوقت: الوقت في الأحكام الشرعية]

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٧.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١/ ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ٣٠/ ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٣٣.

الأجل في الآخرة

وهذا هو أجل الآجال ومنتهى العمر والأعمال، فكل شيء عند الله بمقدار، إليه يرجع الأمر كله، أوله وآخره، علنه وسره، فإن الله سبحانه بواسع علمه وحكيم صنعته جعل لهذه الحياة أجلًا عنده تنقضي، ووقتًا إليه تنتهي، إنه يوم القيامة، يوم البعث والنشور.

أولًا: أجل يوم القيامة:

وقد وردت الآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى التي تبين أن يوم القيامة مؤخرٌ إلى وقت معلوم محدود.

يقول سبحانه: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٩].

أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾

أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ومدةً مقدرةً لا بد من انقضائها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم[1].

وقد قضى الله تعالى هذا الأجل منذ الأزل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٢].

عن سعيد بن جبيرٍ في قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ قال: إلى يوم القيامة.

وروي عن سعيد بن جبيرٍ، وعطية، والضحاك، وعكرمة، والسدي، وعطاءٍ الخراساني، والربيع بن أنسٍ نحو ذلك[2].

وأجل يوم القيامة جاء مانعًا من تعجيل العذاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هي آخر الأمم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه: ١٢٩].

بين تعالى الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلًا على من كذب وكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾.

وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقدير: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مسمًى لكان لزامًا.

ولا شبهة في أن الكلمة هي إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ، أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١١٣.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٤/ ١٢٦١.

يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال[1].

وأجل القيامة آتٍ لا محالة لا يحابي أحدًا أو ينتظر أحدًا.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٥-٦].

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملًا موفرًا، فإن ذلك كائنٌ لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات...

وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥].

أي: من عمل صالحًا، فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غنيٌّ عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا[2].

ثانيًا: أجل النعيم والعذاب:

وكما اقتضت سنة الله الحكيم العليم بمجازاة المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، فإن هذا الجزاء مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأجل انقضاء الدنيا وحلول البعث الذي فيه الحساب حيث يصير الناس إلى فريقين أهل النعيم وأهل العذاب والجحيم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٣-١٠٨].

يخبر الله تعالى عن تأخير يوم القيامة وعذابه إلى أجل معين: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة القيامة إلا لانتهاء مدة محدودة في علمنا، لا يزاد عليها ولا ينقص منها، وهي عمر الدنيا، لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم، وتصحيح عقيدتهم.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ﴾ أي: فمن أهل الجمع من الناس في ذلك اليوم شقي معذب لكفره وعصيانه، ومنهم سعيد منعم في الجنان لإيمانه واستقامته، كما أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فمن أريد له الشر فعمل الشر، فهو من أهل الشقاوة، ومن أريد له الخير فعمل

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ٢٢/ ١١٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٣٨.

الخير، فهو من أهل السعادة، وكل ميسر لما خلق له... ثم بين الله تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال عن الفريق الأول:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي: فأما الأشقياء فهم في جهنم مستقرهم ومثواهم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السيء، لهم من الهم والكرب وضيق الصدر زفير وشهيق، تنفسهم زفير، وإخراجهم النفس، وشهيق، لما هم فيه من العذاب، كما ذكر ابن كثير، مع أن الزفير في العادة هو إخراج النفس، والشهيق: رده.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها على الدوام، مدة بقاء السماوات والأرض، والمراد: التأبيد ونفي الانقطاع، على سبيل التمثيل وقول العرب: أفعل كذا أو لا أفعله ما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وما تغنت حمامة.

ثم ذكر الله تعالى جزاء الفريق الثاني وهم السعداء: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ أي: وأما أهل السعادة وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٥].

قال ابن كثير: معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمًا، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس.

فكلٌ من جزائي أهل النار وأهل الجنة دائمٌ بمشيئة الله تعالى.

فعذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلى مشيئته تعالى، وأنه بعدله وحكمته موافق لأعمالهم.

وثواب أهل الجنة في الجنة بحسب مشيئته تعالى أيضًا، جزاء بما كانوا يعملون.

إلا أنه تعالى أورد فرقًا في ختام آية كل من الفريقين، فقال عقب بيان حال الأشقياء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال عقب بيان حال السعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تطييب القلوب، والإشارة إلى أن جزاء المؤمنين هبة منه تعالى وإحسان دائم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة: **(لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)**[1].

وجاء في الصحيحين: **(يؤتى بالموت في**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧٣، ٧/ ١٢١.

صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت)[1] [2].

موضوعات ذات صلة:

الدين، الطلاق، العبادة، الوقت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، رقم ٤٧٣٠، ٦/ ٩٣.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٤٩-١٥٣.





عناصر الموضوع

مفهوم الإحسان	٤٢٠
الإحسان في الاستعمال القرآني	٤٢١
الألفاظ ذات الصلة	٤٢٢
الإحسان في حق الله تعالى	٤٢٥
مجالات الإحسان	٤٣٣
جزاء المحسنين	٤٤٩



مفهوم الاحسان

أولًا: المعنى اللغوي:

الإحسان لغة: مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[(١)]، قال ابن فارس: «(حسن) الحاء والسين والنون أصل واحد، فالحسن ضد القبح، يقال: رجل حسن وامرأة حسناء وحسانة، والمحاسن من الإنسان وغيره: ضد المساوي»[(٢)]. وهو مصدر أحسن يحسن إحسانًا، ويتعدى بنفسه، أو بغيره، تقول: أحسنت كذا، إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان، إذا أوصلت إليه النفع[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

قال الراغب: الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا عَلِمَ عِلْمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا»[(٤)].

وقال ابن العربي: «الإحسان مأخوذ من الحسن، وهو كل ما مدح فاعله»[(٥)].

وعرف الإمام القرطبي الإحسان بأنه: «إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع، وحالة الاستمرار»[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ١١٧.
(٢) مقاييس اللغة ٢/ ٥٧.
(٣) انظر: تعليق محب الدين الخطيب على فتح الباري ابن حجر ١/ ١٦٤.
(٤) المفردات، ص٢٣٥.
(٥) أحكام القرآن١/ ١٦٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن١٠/ ١٦٧.



الإحسان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حسن) في القرآن (١٩٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٠٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٤]
الفعل المضارع	٢	﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾[النساء:١٢٨]
فعل الأمر	٢	﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص:٧٧]
أفعل التفضيل	٣٦	﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[النساء:٥٩]
المصدر	١٢	﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩]
اسم الفاعل	٣٩	﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة:١١٢]

وجاء الإحسان في الاستعمال القرآني بمعنى: إجادة العمل وإتقانه وإخلاصه، وهو ضد الإساءة. ويأتي متعديًا بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، و في كذا، إذا حسنته وكملته، ومتعديًا بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى كذا، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤٣٣-٤٣٧.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٧، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٦٨-٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإفضال:

الإفضال لغةً:

هو: الإحسان، يقال: ورجل مفضال وامرأة مفضالة على قومها إذا كانت ذات فضل سمحة، وأفضل عليه وتفضل بمعنى[١]، قال ابن فارس: «(فضل) الفاء والضاد واللام أصل صحيح يدل على زيادة في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة والخير[٢]».

الإفضال اصطلاحًا:

يستعمل لمطلق النفع[٣].

وقد وردت آيات في كتاب الله تعالى تدل على أن الإفضال هو الإحسان

منها قوله تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٣].

فالمراد به بالفضل في الآيتين: الإحسان من الله بالعافية والسلامة والغنيمة ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: «والله ذو إحسان وطول عليهم بصرف عدوهم الذي كانوا قد هموا بالكرة إليهم، وغير ذلك من أياديه عندهم وعلى غيرهم بنعمه عظيم عند من أنعم به عليه من خلقه»[٤].

الصلة بين الإحسان والإفضال:

أن في كليهما نفعًا للغير لكن الإحسان لفظ عام؛ لأن فيه معنى الإتقان والإحكام، وفيه معنى الإحسان من العبد مع الله تعالى.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٥٢٤.
(٢) مقاييس اللغة ٤/ ٥٠٨.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص٦٨٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤١٤



٢ الامتنان:

الامتنان لغةً:

الامتنان لغة: الإحسان والإنعام، من عليه يمن مَنًّا: أحسن وأنعم، والاسم المنة، والمن القطع، ويقال النقص[١].

الامتنان اصطلاحًا:

إحسان المحسن غير معتد بالإحسان، وفي أسماء الله تعالى: الحنان المنان، أي: الذي ينعم غير فاخر بالإنعام[٢]، قال ابن الأثير: «هو المنعم المعطي من المن في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه»[٣].

الصلة بين الإحسان والامتنان:

أن الامتنان هو الإحسان والإنعام وأن الإحسان أعم منه.

٣ الإنعام:

الإنعام لغةً:

من النعمة، بالفتح، وهي المسرة والفرح والترفه، ومعنى قولهم: أنعمت على فلان، أي: أصرت إليه نعمة[٤]، والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤسى. والتنعم: الترفه، والاسم النعمة، ونعم الرجل ينعم نعمة، والنعمة: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك، ونعمة الله، بكسر النون: ما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه؛ كالسمع والبصر[٥].

الإنعام اصطلاحًا:

إيصال النعمة والإحسان إلى الغير[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤١٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤١٨.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٦٥.
(٤) انظر: المصدر السابق ٥/ ٨٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٧٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٥٠٢.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٩١٢، التوقيف على مهمات التعاريف المناوي ص ٦٥.

الصلة بين الإحسان والإنعام:

أن الإنعام لا يكون إلا من المنعم على غيره؛ لأنه متضمن بالشكر الذي يجب وجوب الدين، ويجوز إحسان الإنسان إلى نفسه، تقول لمن يتعلم العلم: إنه يحسن إلى نفسه، ولا تقول: منعم على نفسه، والإحسان متضمن بالحمد ويجوز الحامد لنفسه[1].

٤ الإكرام:

الإكرام لغةً:

الإكرام والتكريم لغة هو: أن يوصل إلى الإنسان بنفع لا تلحقه فيه غضاضة، أو يوصل إليه بشيء شريف[2].

الإكرام اصطلاحًا:

الإكرام والتكريم اصطلاحا هو: التفضيل والاحترام[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي الإكرام المذكور في الآية أقوال: روي عن ابن عباس أنه قال: هو أكلهم باليد، وسائر الحيوانات يأكلون بأفواههم، وقيل: امتداد القامة وانتصابها، والدواب منكبة على وجوهها، وقيل: بالعقل والتمييز، وقيل: بأن سخر جميع الأشياء لهم، وقيل: بأن جعل فيهم خير أمة أخرجت للناس، وقيل: بالخط والقلم[4].

الصلة بين الإحسان والإكرام:

أن الإكرام هو الإحسان مع التفضيل والتشريف.

---

(١) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري، ص ٨١.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي٣٣ / ٣٣٧.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس وحامد قنيبي، ص١٤٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني٣/ ٢٦٢.



الاحسان في حق الله تعالى

إن الإحسان في حق الله تعالى يتمثل في كون الإحسان صفة من صفات الله تعالى، وفي إحسان الله تعالى الخلق، وفي إحسان الله تعالى في الرزق، وفي إحسان الله تعالى في الحكم، وفي إحسان الله تعالى في الأجر والثواب، وبيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإحسان من صفات الله تعالى:

إن الإحسان صفة من صفات الله عز وجل الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة، والإحسان في حق الله تعالى يأتي بمعنيين:

١. الإنعام على الغير، وهو زائد على العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

٢. الإتقان والإحكام، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣][1].

الدليل من القرآن الكريم:

- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].
- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧].
- وقوله جل شأنه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣].

الدليل من السنة النبوية:

- ما رواه أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا حكمتم؛ فاعدلوا، وإذا قتلتم؛ فأحسنوا؛ فإن الله محسن يحب الإحسان)**[2].
- ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه؛ قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين؛ أنه قال: **(إن الله عز وجل محسن يحب الإحسان، فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القتلة)**[3] [4].

---

(١) انظر: الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، محمد بن خليفة التميمي، ص ٦٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم٥٧٣٥ /٦ /٤٠. صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم١٨٢٤ ، ١/ ٣٧٤.

(٣) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه رقم٨٦٠٣ ، ٤/ ٤٩٢، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٧١٢١، ٧/ ٢٧٥. صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ١٨٢٤، ١/ ٣٧٤.

(٤) انظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب

والمحسن من أسماء الله تعالى، ومعناه: «إن المحسن مشتق من أحسن يحسن إحسانًا، ومعناه: أن الإحسان وصف لازم له لا يخلو موجود من إحسانه طرفة عين، فلا بد لكل مكون من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، والله جل وعلا يحب من خلقه أن يتقربوا إليه بمقتضى معاني أسمائه، فهو الرحمن يحب الرحماء، وهو الكريم يحب الكرماء، وهو المحسن يحب المحسنين»[1].

وبعبارة أخرى: فإن المحسن في صفات الله معناه: المنعم المتفضل الذي أحسن للناس عقيدة ودينًا وأحسن لهم خلقًا ورزقًا وأحسن لهم مثوبة وأجرًا كرمًا منه وتفضلًا، وبهذا يتبين أن اسم الله المحسن من صفات الذات الثابتة بالسنة النبوية.

ومن خلال الأدلة السابقة يتبين أن الإحسان من صفات الله الفعلية الثابتة بالقرآن والسنة، والصفات الفعلية هي: التي تتعلق بالمشيئة والقدرة، ومنها: الخلق - الرزق الإحسان العدل، وضابط: الصفات الفعلية أنها هي التي تنفك عن الذات، على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها، وأن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات، ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلًاP لائقان بجلال الله عز وجل[2].

ثانيًا: الإحسان في الخلق:

إن الله تعالى أحسن في الخلق بصفة عامة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧].

والإحسان في الخلق معناه: أتقن كل شيء وأحكمه، هو مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠].

فلم يجعل خلق البهائم في خلق الناس، ولا خلق الناس في خلق البهائم ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرًا، قال مجاهد ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾: أعطى كل شيء خلقه، قال: الإنسان إلى الإنسان، والفرس للفرس، والحمار للحمار[3].

يقول تعالى مخبرًا: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾

والسنة، علوي السقاف، ص٥٠.

(١) انظر: بحث: إثبات أن المحسن اسم من أسماء الله الحسنى، د. عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر، منشور في مجلة البحوث الإسلامية العدد٣٦ص٣٧٤ الإصدار ربيع الأول- جمادي الثانية لسنة ١٤١٣هـ.

(٢) انظر: الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، محمد بن خليفة التميمي، ص ٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٠.

قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر[(١)].

أما الإحسان في خلق الإنسان على وجه الخصوص، فقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣].

يقول: ومثلكم فأحسن مثلكم، وقيل: أنه عني بذلك تصويره آدم، وخلقه إياه بيده[(٢)].

قال القرطبي: «﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: آدم عليه السلام، خلقه بيده كرامة، له، قاله مقاتل، الثاني: جميع الخلائق، معنى التصوير: أنه التخطيط والتشكيل. فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]»[(٣)].

والمعنى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤][(٤)].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

قال الإمام ابن جرير: «ومعناه: في أعدل خلق، وأحسن صورة، قال ذلك ابن عباس، وقال آخرون: بل معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان، فبلغنا به استواء شبابه وجلده وقوته، وهو أحسن ما يكون، وأعدل ما يكون وأقومه، وقال آخرون: قيل ذلك لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو منكب على وجهه غير الإنسان. قال ذلك عن ابن عباس: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال: خلق كل شيء منكبًا على وجهه، إلا الإنسان.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها»[(٥)].

ولهذا أنكر الله تعالى على من يدعو من لا يخلق فضلًا عن أن يكون محسنًا في الخلق، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥﴾ [الصافات: ١٢٥].

والمعنى: ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ هو علم لصنم كان من ذهب وكان طوله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥٩.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٥٠٧.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٤٣.

عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء، وكان موضعه يقال له: بك، فركب وصار بعلبك، وهو من بلاد الشأم، ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدرين[1].

ثالثًا: الإحسان في الرزق:

إن الله سبحانه وتعالى أحسن في الرزق كما أحسن في الخلق.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيان وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، يعني: حلالًا طيبًا»[2].

قال الماوردي: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ فيه تأويلان: أحدهما: أنه المال الحلال، قاله الضحاك، قال ابن عباس، وكان شعيب كثير المال، الثاني: أنه النبوة، ذكره ابن عيسى[3]، قال الإمام ابن كثير: «قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين»[4].

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧].

فقد رزق الله تعالى من ثمرات النخيل والأعناب، الرزق الحسن، وهو يؤكل من الأعناب والتمور[5]، قال ابن عباس: ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقره الله وجعله حلالًا للمسلمين[6].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾.

فيها أربعة تأويلات:

أحدها: أن السكر: الخمر، والرزق الحسن: التمر والرطب والزبيب، وأنزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حرمت من بعد، قال ابن عباس: السكر: ما حرم من شرابه، والرزق الحسن: ما حل من ثمرته، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير:

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي٣/ ١٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٤٥٣.
(٣) انظر: النكت والعيون٢/ ٤٩٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٢٩٦.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ٢٠٩.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٧/ ٢٢٨٨.

والسكر: الخمر، والنبيذ المسكر.

واختلف من قال بهذا هل خرج مخرج الإباحة أو مخرج الخبر على وجهين:

أحدهما: أنه خرج مخرج الإباحة ثم نسخ، قاله قتادة.

الثاني: أنه خرج مخرج الخبر أنهم يتخذون ذلك وإن لم يحل، قاله ابن عباس.

الثاني: أن السكر: النبيذ المسكر، والرزق الحسن: التمر والزبيب، قاله الشعبي والسدي، وجعلها أهل العراق دليلًا على إباحة النبيذ.

الثالث: أن السكر: الخل بلغة الحبشة، الرزق الحسن: الطعام.

الرابع: أن السكر: ما طعم من الطعام، وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب، وهو الرزق الحسن، وبه قال أبو جعفر الطبري»[(١)].

وإحسان الله تعالى في الرزق لا يقتصر على الدنيا، بل ذلك يشمل أيضًا الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨﴾ [الحج: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١١﴾ [الطلاق: ١١]

أي: رزقهم الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها، ولا يزول[(٢)].

ويعني بالرزق: ما رزقهم فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعد لأوليائه فيها، فطيبه لهم[(٣)].

رابعًا: الإحسان في الحكم:

بين الله تعالى أنه أحسن الحاكمين، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

قال تعالى موبخًا اليهود الذين أبوا قبول حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ولهم من اليهود، ومستجهلًا فعلهم ذلك منهم، ومن هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقر بربوبيته؟ يقول تعالى ذكره: أي حكم أحسن من حكم الله، إن كنتم موقنين أن لكم ربًا، وكنتم أهل توحيد وإقرار به؟[(٤)].

والمعنى: أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع، وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء، فضارعوا الجاهلية في هذا الفعل[(٥)].

(١) انظر: النكت والعيون، ٣/ ١٩٨.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٨٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢٣/ ٤٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي٤/ ٣١٦.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٠/ ٣٩٤.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وفي الآية ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء[(١)].

وبمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

وردت آيات في كتاب الله تعالى، منها: قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، أي: أن الله خير من يفصل وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد، ولا محاباة لأحد[(٢)]، يعني: أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: ٤٥].

يعني: أنت وعدتني أن تنجي أهلي ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: وأنت أحكم الحاكمين بالعدل[(٤)].

قال الزمخشري: «أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل»[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨].

أي: أتقن الحاكمين صنعًا في كل ما خلق، وقيل: أحكم الحاكمين: قضاء بالحق، وعدلًا بين الخلق[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٣٣.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٣٩٨.

(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٤١١.

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨]: «يقول تعالى ذكره: أليس الله يا محمد بأحكم من حكم في أحكامه، وفصل قضائه بين عباده؟»[١].

خامسًا: الإحسان في الأجر والثواب:

إن الإحسان في الأجر والثواب من الله تعالى لمن آمن وعمل صالحًا ثابت في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

يعني: الإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا، فيجزيهم بأحسن أعمالهم، ويبقى سائر الأعمال فضلًا[٢].

قال الماوردي: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يجازى على أحسن الأعمال وهي الطاعة، دون المباح منها.

الثاني: مضاعفة الجزاء وهو الأحسن، كما قال تعالى ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]»[٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور: ٣٨].

وفي الآية تقرير وتنبيه على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، وسعة الإحسان؛ لأن ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن السعة، وأنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدهم[٤].

والمراد بـ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت: ٧].

والمعنى: ولنثيبنهم على صالحات أعمالهم في إسلامهم، أحسن ما كانوا يعملون في حال شركهم مع تكفيرنا سيئات أعمالهم[٦].

وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][٧].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥١٦.
(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٩٠.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢١٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩١.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن السعدي، ص ٥٦٩.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠ / ١١.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٥٠.

﴿الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بمعنى الحسن، فيثيبهم عليها، وتتجاوز عن سيئاتهم، فلا نعاقبهم عليها، ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، وهو قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢][١].

وقوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها»[٢].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٥.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة[٣].

والمعنى: هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه، فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفرًا[٥].

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٠٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٧.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٦٢.

﴿ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والمنقلب، وهي الجنة[(١)].

مجالات الاحسان

مجالات الإحسان في القرآن الكريم أربعة، هي: الإحسان في الاعتقاد، والإحسان في العبادة، والإحسان في المعاملات، والإحسان في الأخلاق، ويمكن بيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإحسان في الاعتقاد:

العقيدة هي: الأمور التي تصدق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقينًا عند أصحابها لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك مما جاء عن الله تعالى في كتابه الكريم وصح عن رسوله في سننه[(٢)].

والإحسان في الاعتقاد يكون بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فالإحسان بتوحيد الربوبية هو بإفراد الله تعالى بالوحدانية، والإقرار بأنه واحد في أفعاله، لا شريك له فيها، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور والتصرف في الكون، وغير ذلك مما يتعلق بربوبيته.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١-٤][(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٥٨.

(٢) انظر: الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية، أحمد الغامدي، ص ١٩٠.

(٣) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

فتوحيد الربوبية هو: توحيد الله تعالى بأفعاله، والإقرار بأنه خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو الذي يرسل الرسل، ويشرع الشرائع، ليحق الحق بكلماته، ويقيم العدل بين عباده شرعًا وقدرًا إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد، ولا تحيط به العبارة، وهذا النوع من التوحيد قد أقرت به الفطرة، وقام عليه دليل السمع والعقل(١).

والإحسان في توحيد الألوهية: يكون بتوحيده بأفعال العبادة، كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها، فلا يصرف منها شيء لغيره، ولو كان ملكًا مقربًا، أو نبيًا مرسلًا، فضلًا عمن سواهما.

وبمعنى آخر فتوحيد الإلهية: هو إفراد الله بالعبادة: قولًا، وقصدًا، وفعلًا، فلا ينذر إلا له، ولا تقرب القرابين إلا إليه، ولا يدعى في السراء والضراء إلا إياه، ولا يستغاث إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، إلى غير ذلك من أنواع العبادة(٢).

والإحسان في توحيد الأسماء والصفات: هو إثبات كل ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله، دون تكييف أو تمثيل، ودون تحريف أو تأويل أو تعطيل، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به.

كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فجمع في هذه الآية بين الإثبات والتنزيه، فالإثبات في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ والتنزيه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فله سبحانه وتعالى سمع لا كالأسماع، وبصر لا كالأبصار، وهكذا يقال في كل ما ثبت لله من الأسماء والصفات(٣).

وقد وردت في القرآن آيات تدل على الإحسان في الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

فالآية تدل على أن الإحسان في الاعتقاد هو لمن استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربه وهو محسن، يعني: وهو عامل بما أمره به ربه، محرم حرامه

(١) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.
(٢) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.
(٣) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

ومحلل حلاله، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به، ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مستقيمًا على منهاجه وسبيله[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

أي: من أسلم فقد استمسك بقول: لا إله إلا الله، وهي العروة الوثقى[2]، وذلك بأن يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى وهو محسن؛ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع[3].

ثانيًا: الإحسان في العبادة:

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة، بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة»[4].

والإحسان في العبادة يكون بالإخلاص لله تعالى فيها، وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في العبادة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

والإسلام قد أسبغ على أعمال الإنسان كلها صفة العبادة، إذا تحقق فيها شرطا قبول العمل، وهما:

أولًا: **الإخلاص**: بأن يكون العمل خالصًا لوجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فينوي العبد أن يكون عمله، وقوله وإعطاؤه، ومنعه، وحبه، وبغضه لله وحده، لا شريك له؛ إذ الأعمال لا تقوم إلا بالنيات، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**إنما الأعمال بالنيات**)[5]؛ فالنية تتحكم في العمل، وتقلبه

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٥٠.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٢٠.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٧٤.

(٤) العبودية، ابن تيمية، ص ٤٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي صلى الله عليه وسلم، رقم١، ١/ ٦، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إلى عبادة[1].

ثانيًا: المتابعة: بأن يكون العمل على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهديه القويم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فالأعمال لا اعتبار لها إلا إذا كانت على الوجه الذي رسمه الشرع، فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد)[2].

وكل عمل بلا متابعة، فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله؛ فإن الله عز وجل إنما يعبد بأمره، لا بالأهواء، ولا الآراء، والمسلك الحسن ليس في إخلاص العمل لله عز وجل فحسب، ولا في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، بل في مجموعهما معًا، فإن الله عز وجل ذكر العمل الصالح، فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح هو الخالص الصواب، فإذا جمع العمل هذين الشرطين، كان عبادة[3].

وبخصوص الإحسان في أعمال الحج.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج: ٣٧].

قال ابن جرير: «لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه إن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه، وعملتم فيها بما ندبكم إليه وأمركم به في أمرها وعظمتم بها حرماته ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ قال: ما أريد به وجه الله، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة[4]، والمحسنون هم المخلصون في أعمالهم»[5].

ولا يقتصر الإحسان على أعمال الحج فقط، بل يشمل جميع العبادات؛ لعموم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

فإن من معاني الإحسان في الآية: أداء

---

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على جور، فالصلح مردود، رقم ٢٦٩٧، ٣/ ١٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨، ٣/ ١٣٤٣.

(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ٩٣.

(٤) جامع البيان١٨/ ٦٤١.

(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي٧/ ٢٤٨.

الفرائض والإخلاص لله تعالى فيها[1].

ثالثًا: الإحسان في العلاقات الاجتماعية:

إن الإحسان في المعاملات في القرآن يأتي في أمور هي:

١. الإحسان إلى الوالدين.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما، وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه[2].

فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومعنى قضى في الآية: أمر ووصّى، قال ابن عباس: «يريد: وأمر ربك، ليس هو قضاء حكم»، وهو قول مجاهد، والحسن، وقتادة، وعامة المفسرين[4]، وقرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين بعبادته وحده جل وعلا يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين[5].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

والمعنى: ووصينا ابن آدم بوالديه أمرناه بالإحسان إليهما في صحبته إياهما

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٥٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٧٩.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢ / ٤٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠٢.

(٥) انظر: أضواء البيان الشنقيطي ٣/ ٨٥.

أيام حياتهما، والبر بهما في حياتهما وبعد مماتهما[(١)].

٢. الإحسان إلى الزوجة والأولاد.

إن الإحسان إلى الزوجة يكون بالمعاشرة بالمعروف فقد ورد الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

فقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لنسائهم)[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ١١٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٤٤٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٢١٢.

(٣) اخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم١١٦٢، ٣/ ٤٥٨، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم ١٩٧٨، ١/ ٦٣٦.

والحديث صححه الترمذي، والبوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١١٨ ، والألباني في

والإحسان إلى الزوجة كما يكون في حال الزوجية يكون كذلك في حال الطلاق، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فالإمساك الذي هو بمعروف بعد الطلقة الثانية هو أن يحسن صحابتها، أو تسريح بإحسان، قال ابن عباس رضي الله عنه: أن يسرحها بإحسان، فلا يظلمها من حقها شيئًا، بأن يوفيها حقها ولا يؤذيها ولا يشتمها، وقال: من خالع امرأته فأخذ منها شيئًا أعطاها، فلا أراه سرحها بإحسان[(٤)].

كما جعل الله تعالى من الإحسان إلى الزوجة بعد الطلاق أن أمر لها بالمتعة، وهي عطية يعطيها الزوج لمطلقته.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

أي: هذا التمتيع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم

صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٣٢٦٥، ١/ ٦٢٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٢/ ٤١٩.

بامتثالهم لأوامر الله، وبترضيتهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتي تأثرن بسبب هذا الفراق. فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن، متى كانت المصلحة تستدعي ذلك، وتبين الحقوق التي للمرأة على الرجل في هذه الحالة[١].

بل نبه الله تعالى الزوج بأن لا ينسى الإحسان إلى الزوجة حتى بعد الطلاق فقال سبحانه في آخر الآية: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والمعنى كما قال الإمام البيضاوي: «أي: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم»[٢].

أما الإحسان إلى الأولاد، فيدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله[٣]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل وهو الأبوان وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولها وفصولهما، ويشمل الفصل وهو الأبناء والبنات وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة، وإن كانا داخلين في هذا العموم[٤].

فيكون الإحسان إلى الأولاد بجميع أنواع الإحسان المادية والمعنوية من تربيتهم تربية حسنة وتعليمهم والتلطف بهم ورحمتهم والإنفاق عليهم والعدل بينهم في العطايا والهبات.

لما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: تصدق علي أبي ببعض ماله، فقالت

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٤٢.
(٢) أنوار التنزيل ١/ ١٤٧.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.
(٤) انظر: تفسير ابن باديس، ص ٧٩.

أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفعلت هذا بولدك كلهم؟) قال: لا، قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، فرجع أبي، فرد تلك الصدقة[1].

٣. الإحسان إلى الأقارب.

إن المراد بالأقارب: من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا[2].

وقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][3].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاء لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[4].

قال الرازي: «ومعلوم أن الإحسان إلى هؤلاء إنما يكون بالمال، ثم ذم المعرضين عن هذا الإحسان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]»[5].

وقد جعل الله تعالى لذوي القربى حقًا في مال القريب، قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

قال ابن عطية: «اختلف المتأولون في «ذي القربى»، فقال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: الأمة، والحق في هذه الآية ما يتعين له من صلة الرحم وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، قال بنحو هذا الحسن وعكرمة وابن عباس وغيرهم، وقال علي بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي عليه السلام، أمر النبي عليه السلام بإعطائهم حقوقهم من بيت المال»[6].

قال ابن الجوزي: في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ «فيه قولان:

أحدهما: أنه قرابة الرجل من قبل أبيه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم ١٦٢٣، ٣/ ١٢٤٢.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٣١.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.

(٤) التحرير والتنوير ٥/ ٤٩.

(٥) مفاتيح الغيب ١٠/ ٧٨.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠.

وأمه، قاله ابن عباس، والحسن، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد به: برهم وصلتهم.

والثاني: النفقة الواجبة لهم وقت الحاجة.

والثالث: الوصية لهم عند الوفاة»[(١)].

وإن من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة، وكلتا هاتين يحبب للنفس إيتاء حق القريب فابتدى به في الأمر ليكون تقبلها له أسهل ومبادرتها للامتثال أسرع، فاذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب ومرنت عليه اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها إيتاء كل حق، ولو كان لأبعد الناس. وشيء آخر، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل، أو تصادم المنافع أو التشاح على المواريث ما لا يكون بين الأباعد، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الأسرة، ويعود ذلك عليهم أولًا بالوبال، ويرجع ثانيًا على مجتمعهم بالتضعضع، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم إلى المقتضيات المتقدمة الأخرى[(٢)].

وللقرابة حقان: حق الصلة، وحق المواساة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥][(٣)].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟، وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه، والخير الذي قال جل ثناؤه في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، هو المال الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من النفقة منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية»[(٤)].

٤ . الإحسان إلى اليتامى والمساكين.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى والضعفاء والمساكين في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا

(١) زاد المسير٣/ ٢٠.
(٢) انظر: تفسير ابن باديس ص ٧٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ٧٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٤/ ٢٩١.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

قال ابن عادل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]: «وظاهر الآية يدل على أن الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين كان واجبًا على بني إسرائيل في دينهم، وكذا القول الحسن للناس كان واجبًا عليهم؛ لأن أخذ الميثاق يدل على الوجوب، وذلك لأن ظاهر الأمر للوجوب، والأمر في شرعنا أيضًا كذلك من بعض الوجوه»[(١)].

والمسكين: هو المتخشع المتذلل من الفاقة والحاجة، والمسكنة هي ذل الحاجة والفاقة[(٢)].

وفي الآيتين السابقتين يبين به الله سبحانه أصحاب الحقوق الواجبة على الإنسان نحوهم، إما لصلة قرابة تجمعهم إليه، وتجعلهم بعضًا منه، أو تجعله بعضًا منهم.. وإما لصلة إنسانية عامة، تلك الصلة التي تقوم على أساس أن الفرد عضو فى الجسد الاجتماعي كله، وأن كل عضو سليم فى هذا الجسد من واجبه أن يحمل بعض أعباء الأعضاء المريضة فيه، شأن الجسد حين تضعف فيه حاسة، أو تعجز عن العمل، فتتولى أقرب الحواس إليها، وأشكلها بها، أداء وظيفتها بوجه أو بآخر حتى يستقيم للجسد أمره[(٣)].

٥. الإحسان إلى الجيران.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجيران، فقال سبحانه: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: القريب، يعني: الذي بينك وبينه قرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، وقال نوف الشامي: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ المسلم

(١) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٢٤٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٩٣.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني، وقال جابر الجعفي عن الشعبي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة، وقال مجاهد أيضًا في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر[(١)].

قال القرطبي: «وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه. روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[(٢)]»[(٣)].

والجوار ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[(٤)].

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام توكيدًا بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه، ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك[(٥)].

٦. الإحسان إلى عموم الناس.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى عموم الناس، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة: ٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

أي: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا.

ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم ٦٠١٤، ٨/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥، ٤/ ٢٠٢٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم ٤٨، ١/ ٦٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٣٦.

عن المنكر بالمعروف[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

والمعنى: قل لعبادي المؤمنين يقولوا للكافرين الكلمة التي هي أحسن، قال الحسن: يقولون له: يهديك الله، إن الشيطان هو الذي يفسد بينهم؛ لأنه عدو للإنسان ظاهر العداوة[2].

وفي الآية يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها[3].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، قال ابن جرير الطبري: «وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]»[4].

٧. الإحسان في الجهاد.

إن الإحسان في الجهاد من صفات المحسنين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

يقول تعالى: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذبًا من كفار قريش،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١١٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٢٦.

المكذبين بالحق لما جاءهم فينا، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه[1].

وقد تكفل الله تعالى بأنه لايضيع من أحسن في الجهاد.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

كما يكون الإحسان في الجهاد بالإنفاق في سبيل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

أي: أنفقوا في سبيل الله فمن أنفق في سبيل الله فهو محسن، فقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وكل ما أمر الله به من الخير فهو في سبيل الله وأكثر ما يستعمل في الجهاد، لأنه السبيل الذي يقاتل فيه[2].

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: بالإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته. وقيل: أحسنوا في الإنفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا، نهوا عن الإسراف والإقتار في الإنفاق. وقيل: معناه: وأحسنوا في أداء فرائض الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: يثيبهم على إحسانهم[3]..

كما يكون الاحسان في الجهاد بالالتزام بتعاليم الإسلام في قتال أعدائه، وذلك بعدم المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، لما رواه بريدة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **(اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم،**

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٦٦، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٩٣.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٢٣.

وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله، ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)[(١)].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (إن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان)[(٢)].

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون، ففي وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم له»[(٣)].

رابعًا: الإحسان في الأخلاق:

إن الإحسان في الأخلاق يكون بالتخلق بالقرآن الكريم في الأقوال والأفعال وجميع التصرفات، فإن أحسن الناس خلقًا هو من يتخلق بالقرآن، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عنه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

والمعنى: أنت على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن[(٤)]، أي: على الخلق الذي أدبك

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم ١٧٣١، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، رقم ٣٠١٤، ٤/ ٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، رقم ١٧٤٤، ٣/ ١٣٦٤.

(٣) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٤٦٠.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/

الله به مما نزل به القرآن من الإحسان إلى الناس، والعفو، والتجاوز، وصلة الأرحام، وإعطاء النصفة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك.

وفي حديث سعد بن هشام، قال: أتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: (كان خلقه القرآن). أما تقرأ القرآن، قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤][(١)(٢)].

وما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أي: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النساء: ٨٦].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

التحية: هي دعاء بطول الحياة، والمراد بالتحية هاهنا: السلام، يقول: إذا سلم عليكم مسلم فأجيبوا بأحسن مما سلم أو ردوها كما سلم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال:

٢٠٤.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٦٠١، ٤١/١٤٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٨٤٢، ٢/٥٤١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الارناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد٤١ / ١٤٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦ / ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا)، رقم ٤٨٣٨، ٦/ ١٣٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٢٠٩.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد مثله، روي أن رجلًا سلم على ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئًا، فقال ابن عباس: إن السلام ينتهي إلى البركة[1].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[2].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

«يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]»[3].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٦٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٠.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٢٦.

جزاء المحسنين

إن جزاء المحسنين يكون في الدنيا: بالإحسان من الله تعالى، ورضاه ومحبته، ومعيته، ورحمته، والذكر الحسن في العالمين، وبأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وبالبشارة بالخير، والمجازاة بأحسن ما كانوا يعملون، ويكون جزاء المحسنين في الآخرة بالجنة ونعيمها، وبيان ذلك في المطلبين الآتيين:

أولًا: جزاء المحسنين في الدنيا:

١. الإحسان من الله تعالى.

إن الله تعالى أحسن على الإنسان بجميع النعم تفضلًا منه وكرمًا.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾

[إبراهيم: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾

[النحل: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ٢٠﴾

[لقمان: ٢٠].

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وماء وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[(١)].

والإسباغ: الإفاضة والشمول، عن سعة وكثرة. والنعم السابغة: الكثيرة المتعددة والنعم الظاهرة: ما يعرفها الإنسان، ويلمسها بحواسه، أو يدركها بعقله والنعم الباطنة، هي ما لا يعلمه الإنسان من أسرار هذا الوجود الذي يعيش فيه[(٢)].

وقد أحسن الله للإنسان في خلقه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾

[التين: ٤].

وأحسن إليه بالصحة والعافية، وذلك على المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٠﴾ [النحل: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٧.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٧٦.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

فحسنة الدنيا المذكورة في الآيتين هي الحسنة: الصحة والعافية[1].

قال الماوردي: «وفيما أريد بالحسنة التي لهم في الدنيا أربعة أوجه: أحدها: العافية والصحة، قاله السدي. الثاني: ما رزقهم الله من خير الدنيا، قاله يحيى بن سلام، الثالث: ما أعطاهم من طاعته في الدنيا وجنته في الآخرة، قاله الحسن، الرابع: الظفر والغنائم، حكاه النقاش. ويحتمل خامسًا: إن الحسنة في الدنيا الثناء وفي الآخرة الجزاء»[2].

ومن إحسان الله تعالى على العبد الإحسان المعنوي المتمثل في السعادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١].

قال المفسرون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: عني به: كل من سبقت له من الله السعادة من خلقه أنه عن النار مبعد[3].

وقيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة.

وقال أكثر المفسرين: عني بذلك: كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره[4].

والحسنى: الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن؛ إما السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة، يروى أن عليًا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[5].

ومن المفسرين من قال: إن المراد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة ﴿عَنْهَا﴾ عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: جميع المؤمنين لما روي أن عليًا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: « أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف»[6].

والواجب على العبد تجاه إحسان الله تعالى في الدنيا ما يأتي:

١ . الإحسان في الاعتقاد والعبادة وجميع الأعمال.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٩٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٨.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٧.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣١.

وفي معناها وجوه:

أحدها: هل جزاء التوحيد غير الجنة، أي: جزاء من قال: لا إله إلا الله إدخال الجنة.

ثانيها: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة.

ثالثها: هل جزاء من أحسن إليكم في الدنيا بالنعم وفي العقبى بالنعيم إلا أن تحسنوا إليه بالعبادة والتقوى.

وأما الأقرب فإنه عامٌّ، فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضًا[1].

٢. الشكر للمحسن سبحانه وذلك بالاعتراف بذلك.

كما قال يوسف عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠].

أي: وقد أحسن بي ربي إذ أخرجني من السجن، وسما بي إلى عرش الملك، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون في شظف العيش وخشونته، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق، وتتعاونون على ترقي العلوم والصناعات[2].

وكذلك ببذل الإحسان إلى الآخرين من المستحقين والمساكين.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

٢. رضا الله سبحانه.

بين سبحانه أنه يرضى عن المحسنين في إتباع السلف الصالح.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولًا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم والأنصار الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٧٧.

(٢) تفسير المراغي ١٣/ ٤٤.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٣٤.

قال الزجاج: «﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ تأويله: والله أعلم أن الله رضي أفعالهم، وأنهم رضوا ما جازاهم الله به»[1].

هو عرض كاشف لمنزلة هؤلاء الصفوة من عباد الله، وأن الله رضي عنهم، بما كان منهم من إحسان، وأنهم رضوا، بما أرضاهم الله به، ونعموا فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ رضوان فوق رضوان من عند الله، يحفهم به، ويزيدهم نعيمًا إلى نعيم؛ إذ جعل الله سبحانه وتعالى رضاهم عنه بما أعطاهم معادلًا لرضاه عنهم، حتى لكأنه سبحانه وتعالى، يتبادل الرضا معهم، فيرضى عنهم، ويرضون عنه. فسبحانه، ما أعظم لطفه، وما أوسع فضله، وما أكرم عطاءه، وأسبغ إحسانه[2].

٣. محبة الله تعالى.

أثبت الله تعالى محبته للمحسنين في الدنيا بصفة عامة، قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وذلك جزاء من قال: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨][3].

وفي معرض الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥].

والمعنى: أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائضي، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الإنفاق في سبيلي، وعود القوي منكم على الضعيف ذي الخلة، فإني أحب المحسنين في ذلك[4]، أي: أنفقوا في سبيل الله فمن أنفق في سبيل الله فهو محسن[5].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعد للعاملين بها الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والعاملون بها هم المحسنون، وإحسانهم، هو عملهم بها، أي: وذلك الإحسان، وأنا أحب من

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٤٦٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٦/ ٨٨٢.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن١/ ٣٠٦.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٣/ ٥٩٥.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٢٦٦، التفسير الوسيط، الواحدي١/ ٢٩٤.

عمل به[1]، لفظ: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ للجنس، فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وقد تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء[2].

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

قال أبو جعفر الطبري: «وهذ أمر من الله عز ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جل وعز له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه»[3].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ظاهره الأمر بالمعروف والصفح عنهم جميعهم، وذلك بعث على حسن التخلق معهم ومكارم الأخلاق.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: يجوز أن يعفو عنهم في غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حربًا، ولم يمتنعوا من أداء جزية[4].

٤ . معية الله تعالى.

أخبر الله تعالى بأنه مع المحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

يقول تعالى ذكره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدم عليها.

﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه[5].

والمراد من هذه المعية: المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة[6]، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢١٥.
(٢) انظر: الموسوعة القرآنية، جعفر شرف الدين ٩/ ٢٥٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٠٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢٧.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٥١، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢١١.

ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أي: إن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه[2].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تأويله إن الله ناصرهم؛ لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ الله معهم، يدل على نصرهم، والنصرة تكون في علوهم على عدوهم بالغلبة بالحجة والغلبة بالقهر والقدرة[3].

وروي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وإن الله لمع المحسنين، بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عقباهم[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٧٤ التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٦٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٨٨.

٥. رحمة الله تعالى.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا، أن يكون العبد قريبًا من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

في الآية تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفًا وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم.

قال ابن القيم[5]: في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: «له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه:

- فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان.
- ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم.
- ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٣/ ٨٦١.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدًا ببعد، وقربًا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان هاهنا: هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس، أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان: الإيمان والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه)[1].

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به وإنما كتب رحمته: للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، والذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟

قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة؟».

٦. الذكر الحسن في العالمين.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا: أن الله تعالى يجعل للمحسن ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا في الناس في حياته وبعد موته.

قال تعالى مبينًا بقاء ذكر المحسنين، وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام، فقال في نوح عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات: ٧٧-٨١].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: لقينا له ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا فيمن بعده من الأنبياء والأمم. وقيل: أن يصلى عليه إلى يوم القيامة[2].

قال الماوردي في قوله عز وجل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها:

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٠٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٤٧.

معناه أبقى الله الثناء الحسن في الآخرين، قاله قتادة. الثاني: لسان صدق للأنبياء كلهم، قاله مجاهد، الثالث: هو قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قاله الفراء»[1].

وعلل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه[2].

وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾ [الصافات: ١٠٨-١١١]

وقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناء حسنًا[3].

قال الإمام الماوردي: «فيه قولان: أحدهما: الثناء الحسن، قاله قتادة. الثاني: هو السلام على إبراهيم، قاله عكرمة»[4].

وقال تعالى في إل ياسين: ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الصافات: ١٢٧-١٣٢].

أي: وأبقينا عليه الثناء الحسن في الآخرين من الأمم بعده[5].

وقال في موسى وهارون: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١﴾ [الصافات: ١١٤-١٢١].

أي: وتركنا عليهما في الآخرين بعدهم الثناء الحسن عليهما: وذلك أن يقال: سلام على موسى وهارون.

ثم جعل سبحانه ذلك الذكر والثناء عامًا لكل محسن، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: هكذا نجزي أهل طاعتنا، والعاملين بما يرضينا عنهم ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢﴾ [الصافات:١٢٢] يقول: إن موسى وهارون من عبادنا المخلصين لنا الإيمان[6].

أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله؛ إنه من عبادنا المؤمنين أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في

(١) النكت والعيون٥/ ٥٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري٤/ ٤٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ٩٠.
(٤) النكت والعيون٥/ ٦٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ٩٩، تفسير القرآن، السمعاني٤ / ٤٠٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري٢١ / ٩٥.

الإيمان بالله وتوحيده[1]، وهذه سنته تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى: إنا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين. وفي هذا تنويه بنوح عليه السلام بأن جزاءه كان هو المثال والإمام لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقاربها من إحسان نوح عليه السلام وقوته في تبليغ الدعوة. فهو أول من أوذي في الله فسن الجزاء لمن أوذي في الله، وكان على قالب جزائه، فلعله أن يكون له كفل من كل جزاء يجزاه أحد على صبره إذا أوذي في الله، فثبت لنوح بهذا وصف الإحسان، وهو النعمة السابعة. وثبت له أنه مثل للمحسنين في جزائهم على إحسانهم»[3].

٧. لا يضيع الله أجر المحسنين.

أخبر الله تعالى في آيات كثيرة أنه لا يضيع أجر المحسنين، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: ١١٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: واصبر، يا محمد، على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه، رجاء جزيل ثواب الله على ذلك، فإن الله لا يضيع ثواب عمل من أحسن فأطاع الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوفره أحوج ما يكون إليه»[4].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: ٥٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: وهكذا وطأنا ليوسف في الأرض، يعني: أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾، يقول: يتخذ من أرض مصر منزلًا حيث يشاء، بعد الحبس والضيق ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ من خلقنا، كما أصبنا يوسف بها، فمكنا له في الأرض بعد العبودة والإسار، وبعد الإلقاء في الجب ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، يقول: ولا نبطل جزاء عمل من أحسن فأطاع ربه، وعمل بما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، كما لم نبطل جزاء عمل يوسف إذ أحسن فأطاع الله»[5].

(١) انظر: فتح القدير الشوكاني ٤ / ٤٦٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٠٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣ / ١٣٤.
(٤) جامع البيان ١٥ / ٥٢٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٥١.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

أي: أن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل نجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار[1]، كما في الآية التي بعدها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ [الكهف: ٣١].

قال ابن الجوزي: «ومعنى: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: لا نترك أعماله تذهب ضياعًا، بل نجازيه عليها بالثواب»[2].

٨. البشارة بالخير.

إن البشارة هي: إعلام الرجل بما لم يكن به عالمًا مما يسره من الخبر، قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قبل غيره[3]، والأغلب في البشارة إطلاقها على الإخبار بالخير المنتظر في المستقبل[4].

فقد جعل الله تعالى القرآن الكريم بشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ [الأحقاف: ١٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأجود أن يكون (بشرى) في موضع رفع على الابتداء، والمعنى: وهو بشرى للمحسنين، ويجوز أن يكون بشرى في موضع نصب على المصدر على معنى: لينذر الذين ظلموا ويبشر المحسنين بشرى[5].

أي: وهذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ومصدق لغيره من الكتب السماوية السابقة وأمين عليها، وقد أنزلناه بلسان عربي مبين، امتنانًا منًا على من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهم العرب.

وجعل الله تعالى من وظيفة هذا الكتاب: الإنذار للظالمين بسوء المصير إذا ما أصروا على ظلمهم، والبشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم[6].

وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبشر المحسنين بالخير.

(١) انظر: المصدر السابق، ١٨/ ١٦.
(٢) انظر: زاد المسير ٣/ ٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٩٣.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٨٢، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٨٣٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٤١.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٨٨.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

قال الطبري: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: «يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة»[١].

وقال الماوردي: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: بالقبول. والثاني: بالجنة[٢].

٩. المجازاة بأحسن ما كانوا يعملون.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا المجازاة بأحسن ما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، وسائر ما ذكر ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، في سبيل الله ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾، مع رسول الله في غزوه ﴿وَادِيًا﴾ إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاء لهم عليه، كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم»[٣].

وقال الرازي: ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون وفيه وجهان:

الأول: أن الأحسن من صفة فعلهم، وفيها الواجب والمندوب والمباح والله تعالى يجزيهم على الأحسن، وهو الواجب والمندوب، دون المباح.

والثاني: أن الأحسن صفة للجزاء، أي: يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل، وهو الثواب[٤].

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرًا لأجرهم[٥].

وخلاصة ذلك إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة في غير الجهاد بالمال

(١) جامع البيان ١٨/ ٦٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤ / ٢٨.
(٣) جامع البيان ١٤/ ٥٦٥.
(٤) مفاتيح الغيب ١٦/ ١٧٠.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٧١٧.

والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من أنواع المبرات، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فما عداه من الأعمال الصالحات[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٦-٩٧].

أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧][2].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يجازى على أحسن الأعمال وهي الطاعة، دون المباح منها، الثاني: مضاعفة الجزاء وهو الأحسن، كما قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][3].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥][4].

ثانيًا: جزاء المحسنين في الآخرة:

إن جزاء المحسنين في الآخرة هي الجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم عند ربهم يوم القيامة، ما تشتهيه أنفسهم، وتلذه أعينهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا الذي لهم عند ربهم، جزاء من أحسن في الدنيا فأطاع الله فيها، وائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه فيها عنه.

وجزى هؤلاء المحسنين ربهم بإحسانهم، كي يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال، فيما بينهم وبين

(١) انظر: تفسير المراغي ١١ / ٤٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٤٨٧.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢١٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٦.

ربهم، بما كان منهم فيها من توبة وإنابة مما اجترحوا من السيئات فيها ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ يقول: ويثيبهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا (يعملون) مما يرضى الله عنهم دون أسوئها[1].

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤] لهم عند الله من الجزاء والكرامة ما يشاءون، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤] في أقوالهم وأعمالهم. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٥] أي: أعطاهم ما شاءوا، ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥] يسترها عنهم بالمغفرة، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوي[2].

ذلك هو جزاؤهم، وجزاء المحسنين كلهم، والمحسنون هم: الذين أحسنوا الاعتقاد والقول والعمل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: من الذنوب والآثام والخطايا والسيئات، أي: وفقهم للإحسان ويسره لهم، ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا وسيئه ويجزيهم أجرهم على إيمانهم وتقواهم وإحسانهم في ذلك بأحسن ما كانوا يعملون وحسنه أيضًا، وإنما يضاعف لهم الأجر، فتكون الحسنات الصغيرة كالكبيرة، فأصبح الجزاء كله على الأحسن، والذي كانوا يعملون هو كل ما شرعه الله تعالى لعباده وتعبدهم به من الإيمان وسائر الطاعات والقربات[3].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قال الطبري في قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «يقال لهم: كلوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلما اشتهيتم، ﴿هَنِيئًا﴾ يقول: لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنه لكم دائم، لا يزول، ومريء لا يورثكم أذى في أبدانكم، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة الله، وتجتهدون فيما يقربكم منه.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: إنا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان فى طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٩٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٨١.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٨٧.

لا نضيع في الآخرة أجرهم»[١].

أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل[٢].

وقال سبحانه في جزاء من أحسن الاعتقاد والعمل: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٤-٨٥].

أي: فكافأهم الله تعالى بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، ﴿جَنَّاتٍ﴾ تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العطاء الجزيل الذي منحه الله لهم ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم[٣].

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني: عبادة ربهم. ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة تأويلات: أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري. والثاني: أن الحسنى واحدة من الحسنات، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس، الثالث: أن الحسنى حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد والرابع: أن الحسنى الجزاء في الآخرة والزيادة ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد. والخامس: أن الحسنى الثواب، والزيادة الدوام، قاله ابن بحر، ويحتمل سادسًا: أن الحسنى ما يتمنونه ، والزيادة ما يشتهونه»[٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قتر. والقتر: الغبار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها ومن هو فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغص عليهم لذتهم»[٥].

(١) جامع البيان٢٤/ ١٤٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨ / ٣٠٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤ / ٢٥٨.

(٤) النكت والعيون٢ / ٤٣٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٧٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٥.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن عباس: «للذين قالوا: لا إله إلا الله الجنة»، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي عن صهيب، قال: عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**). ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]» [1] [2].

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قالت فرقة وهي الجمهور: الحسنى: الجنة والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل، وروي في نحو ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه صهيب، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وحذيفة وأبي موسى الأشعري وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «الزيادة» غرفة من لؤلؤة واحدة.

وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنة، و الزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نص الحديث، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول، وطريق ترجيحه أن الآية تتضمن اقترانًا بين ذكر عمال الحسنات وعمال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم حسنى وزيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها فتعادل الكلامان، وعبر عن الحسنات بـ(الحسنى) مبالغة؛ إذ هي عشرة، وقال الطبري: الحسنى عام في كل حسنى فهي تعم جميع ما قيل.

ووعد الله تعالى على جميعها بالزيادة، ويؤيد ذلك أيضا قوله: أولئك أصحاب الجنة، ولو كان معنى الحسنى الجنة، لكان في القول تكرير بالمعنى، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة، وأنهم لا يرهق وجوهم قتر ولا ذلة. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم، أي: أولئك مستحقوها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

وأصحابها حقًا وباستيجاب، و﴿يَرۡهَقُ﴾ معناه: يغشى مع ذلة وتضييق، والقتر: الغبار المسود[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم)[2]»[3].

موضوعات ذات صلة:

البر، التقوى، التطوع، العطاء

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٢٩.

